الأنثروبولوجيون الاجتماعيون واللغة

(عرض نقدي لتطور العلاقة في بريطانيا)

تأليف

هيلارى هنسون

نقله إلى العربية

د. محمود حمدي عبد الغني

كلية الآداب– جامعة حلوان

الطبعة الثانية

2019

هذه ترجمة لكتاب:

Hilary Henson; *British Social Anthropologists and Language: A History of Separate Development ;* Clarendon Press , Oxford 1974 .

حقوق النشر محفوظة للمترجم

يحظر نسخ أي جزء من هذا الكتاب، أو استعماله بأية وسيلة
تصويرية، أو اليكترونية، أو ميكانيكية، بما فيها التسجيل الفوتوغرافي
على أشرطة، أو الأقراص المقروءة، أو أية وسيلة أخرى للنشر، بما فيها
نشر المعلومات، وحفظها، واسترجاعها على الانترنت،
وذلك دون إذن خطي مسبق من المحرر.

بِسمِ اللهِ الرَحمَنِ الرَحِيمِ

"رَبَّنا ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحمَةً وَهَيِّء لَنَا مِن أَمرِنَا رَشَدًا"

سُورة الكهف (الآية العاشرة)

الاهداء

إلى روح أمي،

رحمها الله، ورضي عنها.

المحتويـات

الموضـوع	الصفحات
تقديم المترجم	
مقدمة المؤلف	

الجزء الأول

الأنثروبولوجيون الاوائل

– فكرة اللغة البدائية .....

– اللغات البدائية، وأصل اللغة .....

– البُنى المعرفية واللغة .....

– استخدام المقولات الوطنية .....

– الحس المشترك وعصر التحول .....

– اللغة والأنثروبولوجيون الأوائل .....

الجزء الثاني

مالينوفسكي: النظرية الإثنوجرافية واللغة

– تأثير مالينوفسكي في علم اللغة .....

– الأدوات التصنيفية (**1920**) .....

– الأرجونوتس في المحيط الباسفيكي (**1922**) .....

– مشكلة المعنى فى اللغات البدائية (**1923**) .....

– حدائق المرجان والسحر (**1935**) .....

– جون روبرت فيرث .....

– مدرسة لندن فى علم اللغة .....

– بين لانجندون ومالينوفسكى .....

الموضـوع **الصفحات**

الجزء الثالث

معاصرو مالينوفسكي ومْنّ بعدهم

– تأثير مالينوفسكي .....

– اللغة والنظام الاستعماري .....

– استخدام اللغات الوطنية ولغة الوصف .....

– أنساق القرابة .....

– راد كليف براون ومشكلة الدليل السالب .....

– بعض الاستثناءات .....

– علامات التغير فى الموقف .....

الجزء الرابع

– خاتمة .....

تقديم من قلم المترجم

الترجمة واحتراف الأنثروبولوجيا "الورقية" في لغتنا العربية

وحتى ...، فإنَّني استسمح القارئ عذرًا أن حملته عبء قراءة هذه "الثرثرة"، فما كتبتها إليه، وإنَّما كتبتها إلى ذاتي، لأنني أشعر بالعبث إن مارست هويتي الإثنو– فيلولوجية "العائمة"، وأشعر– كذلك– بخيبة الأمل أن حملت لغتنا العربية عبء التعبير عن هذه الترجمة، وما عاد عقلي ليقدر علي الاحتفاظ بهواجسه، وما عدت قادرًا على التعبير الأصيل عن تلك المعاني التي تأججت بالثقة، يوم حلمت أن يعبر قلمي عنها ذات يوم.

* * *

إذا كان بالإمكان العثور على معاني الكلمات بالتنقيب عن اشتقاقاتها، فمن الواجب أن تكون الأنثروبولوجيا الإثنوجرافية، حينذاك، علمًا موضوعه "الإنسان"، **مشروع أوليمبي** هائل لا تكفي كتب العالم بأكمله لتغطيته، فمن المعروف أن الأنثروبولوجيا الإثنوجرافية ظهرت في بريطانيا بوصفها مشروعًا أكاديميًا متجانسًا، يتمتع بأسلوبه الخاص في العمل والتفكير معًا، وذلك حين حرص المعنيون على مغادرة **مقاعدهم** الوثيرة إلى رحاب الجغرافيا، للعيش بين أحد الأقوام المغمورة المنعزلة، القاطنة في أحد الأقاليم الصحراوية، أو الأدغال "البرية" المفتوحة فترة من الزمن، وذلك بهدف الحصول على المادة الأولية الخام، حيث تستمد الأنثروبولوجيا الإثنوجرافية مادتها المصدرية من **الحضور الحي** (دون الوثائقي المدون) لأحد المجتمعات البرية الصغيرة، بما يكفي لمناظرة **شاهد العيان** الإثنوجرافي للنشاطات البرية الحية، التي تتم في الهواء الطلق، وهو أمر يقتضي منه قضاء فترة طويلة نسبيًا من الاقامة المتواصلة، والتدريب على تقانات المناظرة والرصد والتحليل، والتفسير العلمي، وذلك قبل العكوف على تدوين هذه الخبرة الميدانية، ووصفها، أو إخراجها على هيئة "**مونوجراف**" Monograph للقراء الأوروبيين.

لقد ارتبطت الأنثروبولوجيا الإثنوجرافية، في الأذهان، بدراسة الإنسان البدائي "**المتكلم**"، وذلك بالمقابل مع السوسيولوجيا التي تعني بدراسة الإنسان الأوروبي "**الكاتب**"، وفي الواقع، لقد شكل هذا التباين في موضوع الدراسة جزءًا جوهريًا من النسيج الحيوي لهذا العلم، ومنحه الطابع الإمبريقي الحاكم لدراسة الإنسان "البدائي"، فعلى الخلاف من المنظرين الفيلولوجيين الفيكتوريين، الذين كانوا يبتهجون كثيرًا بأن يدرجوا في البحث الواحد مجموعة متباينة من الأخبار، تمتد جغرافيًا

من الصين شرقًا وحتى بيرو غربًا، وتتباعد كرونولوجيًا آلاف السنين، حرص الممتهنون المحدثون لهذا العلم على ممارسة أبحاثهم بطريقة تكاملية مع مصادر معلوماتهم الأحياء، ولقد أدى الابتعاد عن روح الثقافة الكلاسيكية "**الوثائقية**" (التي شطرت العمل الأنثرويولوجي بين شخصين: **مْنّ** يقوم بجمع "الأخبار والمشاهدات الانطباعية" من المناطق النائية، و**مْنّ** يقوم بالتنظير النظري المحض)، والاهتمام بتقصي المعلومات الحية المقيدة بقيود المكان والزمان، ورصدها، وتدوينها في آن معًا، إلى تطور مواز في نهج تأويل المادة "البدائية" الخام، على فرض أن ثمة ارتباطًا وثيقًا بين منهج البحث في العلم، وأسلوب تأويله للمادة، وتطوره الفكري في المستقبل.

لقد اعتمدت الأنثروبولوجيا الإثنوجرافية على الاحساس الواقعي بالأعراف الوجودية المتداولة بين الأقوام "البدائية"، التي تعيش في **الأقاليم البرية** النائية، وهو احساس من الصعب أن يبدأ في العمل دون وجود الخبرة الشخصية الحية بهذه الأقوام، الذين يعتمدون في تداول المعلومات بينهم على **الذاكرة**، والمشافهة، ولذلك كانت الأنثروبولوجيا الإثنوجرافية **تستحضر**– دائمًا– صورة لأحد الزائرين الأوروبيين، وهو يجلس في أحد مراكز الإرساليات التنصيرية، أو المفوضيات الديبلوماسية فيما وراء البحار، وهو يستمع من آخر المعمرين البدائيين الأحياء (مستعينا بمترجم) عن الأوضاع الوجودية "**السابقة**"، التي ميزت طرائق المعيشة قبل وصول المُنصرين والمستعمرين الأوروبيين، ويقوم بتدوين ملاحظاته في الكراسة المشبكية، وذلك تمهيدا لوضع المونوجراف الإثنوجرافي بعد عودته إلى الوطن في أوروبا.

كان العمل الإثنوجرافي قد تشابك– قبل هذا التوصيف أثناء تطوره "الفائت"– مع أدب الرحلات، وتقارير رجال الإرساليات التنصيرية والمفوضيات الديبلوماسية والبعثات العلمية وغيرهم، مْنّ اهتموا بالتوثيق الأوروبي للأقوام البرية المغمورة، وفي الواقع، **لم تظهر** الأنثروبولوجيا الإثنوجرافية في العالم الغربي، بوصفها فرعًا من المعرفة العلمية المستقلة، **لديه** من النظريات والمفاهيم ما يمكن تدريسه للمبتدئين بوصفه **يمثل الثروة النظرية والمنهجية الأساسية فيه**، وإنَّما نشأت– في الأصل– بوصفها مشروعًا **أدبيًا محضًا** (اختفت فيه الحدود الافتراضية الفاصلة بين العلم النظري والتطبيقي) لتوفير **الوقود اللازم** لا**لمطابع الآلية الأوروبية**، لإ**نتاج** ما **سُمي** بـ**الأدب الغرائبي exotic**، وفي الواقع، إنَّ الملامح المميزة لهذا العلم– بمعناه الدقيق– لم تتبلور إلَّا في بداية القرن العشرين، وذلك

بعد الهجوم العنيف الذي تعرض له الراصدون الهواة، الذين اكتفوا بتسجيل الانطباعات، والرصد العابر للأوضاع المعيشية للأقوام البرية النائية، وبعد الاعتراف **بتقانة البحث الميداني** القائم علي "**الملاحظة بالمعايشة**"، بوصفه يمثل المعيار المهني الوحيد **لتوثيق** سائر الثقافات "**الأجنبية**"- دون استثناء.

فعلى هذا الأساس، **تطور البحث الإثنوجرافي الميداني**، بوصفه يمثل النشاط المهني الملائم للباحث الأنثروبولوجي الفرد، وتعزز **حضور** هذا الباحث بوصفه يمثل الملاحظ المحايد (أو المجهول) من أجل تعظيم ما يُعرف بـ"**الموضوعية**" العلمية، إلَّا أنه بالرغم من الاستراتيجيات، والمواصفات النقدية البارعة، التي وضعها الباحثون الميدانيون للتقصي، والرصد، فإنَّهم شعروا بالارتباك حين عكفوا علي "**إعادة كتابة**" مشاهداتهم الشخصية للأوضاع المعيشية "البدائية" في لغاتهم الأوروبية، وفي الواقع، لقد كانوا هؤلاء الباحثون يحملون، دائمًا، في حقائب سفرهم **ثقافة ناطقة بالإنجليزية**، ولم يتيسر لهم فهم الآفاق المعيشية للثقافات "الأجنبية"، وتمثلها- في الأصل- إلَّا **بإعادة ترتيبها** وفقا **لقواعد المنطق الديكارتي**، أو وفقًا لـ"تصورهم الأوروبي المسبق"، وملامح **الإحالة المفاهيمية الغربية**، وبهذا المنوال فإنَّهم قد **استحضروا إلي واقع الأقوام** "**البرية**"- مثلما استحضر تجار الأدب "الغرائبي" **بالاستبطان** قبلهم- **شيئًا لم يكن موجودًا- في الأصل- فيه**.

وهكذا، فبالرغم من **الزي الإمبريقي** السابغ، الذي ارتدته الأنثروبولوجيا الإثنوجرافية، وتباين **الكثافات التأويلية**، أو **الحدسية** الراصدة للأوضاع المعيشية للأقوام البرية فيها، فإنَّها لم تكن تعبر عن الوعي الحيوي للكتاب الغربيين بعلم الوجود البري، ومراده الفسيح، أو مايعنيه "ديالكتيك" الرموز، والمرموز به بالنسبة لمؤلفيه وجمهوره الأصليين، وإنَّما عبرت عن ممارسة نوع من "**الشعوذة**"، أو **الطصلقة** bricolage للانتقال من ملاحظات الكراسة المشبكية الخام إلى رحاب النص الإثنوجرافي المطبوع، وإقران "التمثيل الواقعي" الذي يؤكد علي "الوصف الشامل" للطريقة البدائية في الحياة، وإعادة "تأويلها" أو "ترجمتها" للغة الأوروبية، بما يجعله مألوفًا للقارئ الأوروبي.

وفي الواقع لقد كان يوجد- دائمًا- في الأنثروبولوجيا الإثنوجرافية **انصهار مخبوء** بين "**أفقين**" للإحالة، بين "**أفق**" الحضور التاريخي الحي للزائر الأوروبي الغريب، والعيش مترجلًا علي الشواطيء

أو الصحارى، أو داخل الأدغال البرية النائية، لمعاينة الأوضاع المعيشية "**الأجنبية**"، ورصدها، و"**أفق**" التمثيل النصي "**التالي**" لهذا الحضور "الفائت" بصيغة الغائب المجهول **في لغته الغربية،** وهكذا، فبقدر ما حرص الباحثون الغربيون على المناظرة الاستقرائية الحية للمعالم الوجودية للأقوام "البرية"، فإنَّهم لم يتحدثو عنها في مونوجرافاتهم- بلسان حالها الثقافي الوطني- قط، وإنَّما اهتموا بـ"**إعادة تمثيلها**" من منصة **شاهد العيان الأوروبي** "الأجنبي" بأثر رجعي، وتقديمها للقاريء الأوروبي، على هذا الأساس، معتمدين في ذلك على **الوسائل الاقناعية،** والأعراف البلاغية، والتصويرية، التي تميز أشكال الأدب الواقعي بشكل عام. وفي الواقع، فإنَّهم لم يبذلوا أي جهد **مستنير** لتمحيص **تكنولوجيا** "**الكتابة الإثنوجرافية**"، أو تحديد **أين تنتهي ثقافتهم الأوروبية الأجنبية،** وتبدأ "**الثقافة البدائية الوطنية**" التي يمثلونها في النص، ولقد سلموا بأن كل ما يرصدونه في هذا **الميدان** سيجد **شكلًا** من "**التمثيل**" بين النظرية والمنهج داخل النص، وأن الحديث عن المغزى الأدبي لمفهوم "**الكتابة**" ذاتها (بما تحمله من مواصفات خيالية، وحدسية) قد يقوض من المكانة العلمية "**المتوهمة**" لفرع المعرفة الأنثروبولوجي- ذاته.

إلَّا أنه يجب التسليم بأن الأنثروبولوجيا الإثنوجرافية قد وقعت منذ البداية في "**شرك**" **الكتابة** (أو **ترجمة الخبرة الثقافية** لـ"**المجتمع الشفاهي الأجنبي**" إلى **نص** أدبي صالح للقراءة الأوروبية)، وأنها قد فرضت علي **ممتهنيها** شيئًا أشبه بـ"**الحراك العقلي**"، أو بالأصح **الحراك** "**التمثيلي**"، ولقد ثبت أن مهارة الباحثين الميدانيين لا تقتصر على مناظرتهم الشخصية للمعالم الوجودية البرية الراهنة فوق الشواطئ، أو في الصحاري أو الأدغال الاجتماعية، ورصدها بوصفها حقائق يقينية واقعة، وإنَّما تكمن في حضورهم أمام **لوحة الآلة الكاتبة،** وفي قدرتهم على تفعيل كفاءاتهم الأدبية، والحدسية، وإعادة وصف المشاهد البرية (**الممتنعة،** في الأصل، **عن إدراك العيون، والآذان الديكارتية الغربية،** أو "**إعادة تمثيل**" **الموصوف اللاشعوري،** أو **المتخيل البري فيها**) **في اللغات الغربية،** ولذلك، فمثلما اعتمد تقصي المعلومات، ورصدها- في العمل الميداني- على العيش بين أحد الأقوام البرية، ومدامجة طرائق حياتهم، والتحدث بلغاتهم، اعتمد إعادة "**تمثيل**" هذه الخبرات الميدانية- **في العمل المكتبي**- على الابتكارات النصية، والأدبية، وعلى الأطر المفاهيمية والتمثيلية

(تخير العناوين، والمقدمات، والفقرات الإيضاحية، وكيفية ترتيب المادة، والاقتباسات، والأمثلة الإيضاحية، والوقائع المسرودة، والصور البلاغية والكنائية، التعليقات الشخصية ...إلخ)، وذلك من أجل **احكام الحبكة الإيضاحية**، أو السردية للقاريء الأوروبي، حيث كان **القاريء** يطالع **(من فوق كتفي الكاتب)** في النص، عادة، "**إعادة تمثيله**" للمجابهة الميدانية التي اختبرها **(من فوق أكتاف أعضاء الثقافة "البدائية" أنفسهم)**، والأهم أنه لم يكن باستطاعة القارئ الأوروبي قراءة مثل هذه النصوص الإثنوجرافية إلَّا في ضوء كفاءته الأدبية والثقافية الغربية– كذلك.

لا بأس، ولكن !.

لقد كان من المتوقع في العلم الذي عمد إلى تكريس جهوده لمناظرة الإنسان البري **المتكلم**، وتمثل خبراته المعيشية الحية، وترجمتها للغات الأوروبية أن يحرص المختصون على إدراج "الكلام" ضمن اهتماماتهم بدراسة الإنسان، وذلك، على فرض أن الكلام لا يمثل بذاته الوسيلة الأساسية للإنسان للتعبير عن الأفكار، أو حتى الأداة الرئيسية للاتصال اليومي بين البشر، وإنَّما **يمثل أهم الملكات الفطرية** في **حضوره ذاته بوصفه إنسانًا داخل العالم**. وفي الواقع، **لقد مثل "الكلام" الملكة المحورية التي مكنت الإنسان من التفكير، ومن اختبار العالم المحيط، والتمييز بين موضوعاته**، وتمثلها **قبل أن يبدأ في التعبير عن خبراته**، أو تمثيلها، وإيصالها إلى أقرانه من البشر، هذا بالإضافة إلى أن "الكلام" وإن كان يتجسد، بالفعل، من خلال الأصوات الفيزيائية التي يولد الإنسان مزودًا بالاستعداد الفطري لإصدارها، فإنَّه لا يستمد شرعيته، أو فاعليته من هذا الطابع **الفوناتيكي الفطري المحض**، وإنَّما يستمدها من الطابع "**الفونولوجي**" العميق لـ"**النحو**" الذي يميز كل لغة إنسانية، على حدة، ويمنح المجتمع تلك السلطة الأسمى على كافة مْنّ يعيشون في كنفه من البشر، وذلك على فرض أن هذا **الطابع الفونولوجي**/الانعكاسي وحده، هو الذي يجعل من الكلام تلك **الحقيقة الثقافية الفريدة**، التي تتميز بالشمول، وتتمتع بالاستمرار في أي مجتمع من المجتمعات دون استثناء، ويمكن الأنثروبولوجيا الإثنوجرافية– وهذا هو الأهم– من اتخاذ المجتمعات البرية الأجنبية– ذاتها– موضوعًا للتقصي والرصد والكتابة...إلخ.

ومع ذلك، فقد نشأت الأنثروبولوجيا الإثنوجرافية في بريطانيا، وتطورت مستقلة، تمامًا، عن دراسة الكلام الإنساني، ولقد كان عزوف المتخصصين فيها عن هذا المطلب الحيوي– على ما

يذكر **أردنر**(Ardiner,1973)– يعبر عن إحدى الصفات الغريبة، أو المثيرة للشكوك فيهم. هذا، بالرغم من ظهور بعض المشروعات الطموحة لإدراج "**الكلام**" ضمن دراسة"**الإنسان**" خلال التطور الفائت لهذا العلم داخل بريطانيا، سواء في **طوره الفيلولوجي** الباكر، أو **طوره الإثنوجرافي** اللاحق، مثل المشروع "**السيميولوجي**" الذي عمَّده عميد الأنثربولوجيين البريطانيين سير **إدوارد تايلور** في بداية عصر الأنثروبولوجيا الفيكتورية، والمشروع "**الفيلولوجى**" الذي صاغه **ماكس موللر** قبيل غروب هذا العصر، أو المشروع "**اللغوي**" الذي وضعه **برونيسلاف مالينوفسكى** للإثنوجرافيا السيكولوجية في بداية العقد الثالث من القرن العشرين، فالثابت أن هذه المشروعات الخلابة قد ظلت داخل الأنثروبولوجيا الإثنوجرافية أشبه ما تكون بالجزر المنعزلة، ولم تصادف أي اهتمام سواء من المعاصرين، أو التاليين عليها. وفي الواقع، لقد كان الحديث عن إدراج "الكلام" ضمن دراسة "الإنسان" يمثل لمعظم المختصين البريطانيين حجر عثرة أمام الجهود التي يبذلونها لارساء **الدعائم** "**الوضعية**" للأنثروبولوجيا الإثنوجرافية في بريطانيا، ولقد ظل الموقف المعادي للموضوع أشبه ما يكون بالموقف الرسمي بينهم، حتى تخطى القرن العشرين عقده السادس.

إنَّه فقط مع بداية هذا العقد اكتشف الأنثروبولوجيون– ممّنْ يعانون من وخز الضمير– أن الاعتراف بالخطيئة– علنًا– فضيلة، ولقد شرعوا في كتابة شكوكهم حول أزمة **الهوية المعرفية** داخل الأنثروبولوجيا الغربية ذاتها، وتحدثوا عن أهمية تحرير فرع المعرفة الأكاديمي من أهدافه الغربية، بل وعن ضرورة **إبطال المنظور الغربي** لـ**الأنثروبولوجيا**، ذاتها، على فرض أن هذا المنظور **يسيء فهم** الثقافات "الأخرى"، ولقد حدث ذلك تجاوبًا مع الأزمة النقدية التي أثارها مثقفوا العالم الثالث، نتيجة انزواء حلم التحديث في بلادهم، ولقد أدان هؤلاء النقاد صمت الأجيال السابقة عن **البيئة الاستعمارية التي نشأت فيها الأنثروبولوجيا**، وتطورت في العالم الغربي، فلقد درسوا الشعوب المقهورة غير الناطقة بالإنجليزية، التي صادفوها– خلال قرون التوسع الاستعماري– وتحدثوا باسمها كما لو أنها شعوبًا بكماء، ولقد تعززت سلطة الباحثين الغربيين في ضوء العلاقة السياسية القائمة بين بلادهم الغربية والشعوب المقهورة، التي قاموا بتشويه أصواتها في نصوصهم الإثنوجرافية.

لقد اعتبر **كلود ليفي شتراوس** أن **الكتابة الإثنوجرافية تمثل شكلًا من أشكال القمع**، وأن "**عنف**" **الأنثروبولوجيا** قد ظهر في اللحظة التي أُعيد فيها تشكيل الحيز الثقافي للشعوب الأخرى

داخل **نسق المقابلات المعرفية في العالم المتروبوليتاني الغربي**، وأن تاريخ الأنثروبولوجيا الغربية لم يك شيئًا إلَّا تاريخ "**إساءة تمثيل" الآخرين**، في لعبة لفظية تستند إلى نقائص الثقافة الغربية، وعيوبها، لقد صدرت الأنثروبولوجيا في العالم الغربي بفكرة "**عبء الرجل الأبيض**"، وضرورة انقاذ الثقافات التقليدية، وتحقيق الهداية الخُلقية، أو الخلاص الروحي لها، ومع ذلك فإنَّ ما تم انقاذه تم الاحتفاظ به، من أجل استهلاكه، في العالم الغربي، على فرض أن الأنثروبولوجيا لم تكن إلَّا خطاب وضعه الغرب من أجل الغرب ذاته، وحوله، ولقد استغله في التغيير القسري للشعوب التقليدية، هذا مع أن الأنثروبولوجيا شيء خاص بـ"**الآخرين الثقافيين**"، وليس بـ"**نحن الغربيين**"(Live-Strauss,1960).

وفي الحقيقة لم تكن أزمة الأنثربولوجيا الغربية تعكس سوى الحاجة إلى تغيير المنظور الغربي، وكما ذهب **توماس كون** T.Kuhn إنَّ الحاجة لتغيير المنظور تظهر **حين** يجابه العلماء الشواهد المضادة له، و**حين** يتخلون عن المنظور القائم، ويشرعون في إعادة تعريف البدائل الافتراضية للمنظور السابق، ووضع مقاييس جديدة للجدل(**Rorty,1986**) ، ولقد كانت أزمة الأنثروبولوجيا تكمن في الثقة الجامحة بالنفس، وفي اعتقادها في أن الثقافة الغربية **تمثل المركز العصبي للعالم، وأن بإمكانها** أن تقدم وصفًا كونيًا للتاريخ الثقافي للعالم بأسره، ولقد رفض النقاد **ثنائية الثقافة الغربية وما عداها**، وما قد تنزله هذه **الثنائية الانعكاسية من زيغ باطل**، وذلك على فرض **أن الثقافة الغربية هي مجرد ثقافة بين ما عداها من ثقافات**، وأن هذه الازدواجية الأيديولوجية لا تنكر إمكانية التداخل بين الثقافات فقط، وإنَّما تنكر – أيضًا– إمكانية صياغة العلاقة بين الأنثروبولوجيا الغربية وموضوع دراستها من منظور يخالف المنظور الانعكاسي الغربي: أمن المعقول أن ينظر الباحث الغربي لنفسة على أنه الوحيد القادر على فهم الأوضاع الراهنة في المجتمعات الأجنبية التي يدرسها.؟. لقد ربط الناقد الأمريكي **ستانلي دياموند** نقده للأنثروبولوجيا الغربية، بنقده للانعكاسية في المجتمع الغربي بأكمله، ولقد رأى أنه لكي تتحرر الأنثروبولوجيا الغربية من هذا المأزق عليها أن تدرس **الذات الغربية** بقدر ما تدرس الآخر غير الغربي، وأن تدرسها بوصفها مجرد "آخر" ثقافي بين الآخرين الثقافيين(**Diamond,1969**).

لقد **تنضدت حروف الثقافة المتجددة للأنثروبولوجيا الغربية** من **خطاب ما بعد الحداثة، والحركات النسائية**، فوفقًا للبرنامج الجديد تحول النشاط الإثنوجرافي الغربي بأكمله إلى **مستوى الكتابة**، من أجل التحقق من كيفية **تمثيل** "الآخرين الثقافيين"، والتعلم من منظوراتهم، وبدلًا من إحالة الإثنوجرافيا إلى الممارسات الميدانية في الصحارى، والأدغال البرية، تم إحالتها إلى ممارسات **التفكيك، والنقد، والفيلولوجيا**، وهكذا تم قلب النظام المألوف للأشياء رأسًا على عقب، واستولى "**النص**" على المشهد الإثنوجرافي، ولقد اقتنع الأنثروبولوجيون- أخيرًا- ب**عدم وجود برج عاجي متعالي** في الكتابة الإثنوجرافية، وعدم وجود "الدرجة صفر في الكتابة"، وأنه ليس ثمة ما يمنع الكاتب الإثنوجرافي من استثمار كفاءته الحدسية، أو الأدبية عند ممارسة الكتابة، وأن على الأنثروبولوجيا الغربية أن تهتم باستراتيجيات الكتابة، وتدريب دارسيها في علوم الأسلوب والبلاغة، بالإضافة إلى التقانات الميدانية، دون أن يبطل ذلك من المكانة العلمية لها بأية حال.

* * *

ويمثل كتابنا الحالي "الأنثروبولوجيون الاجتماعيون البريطانيون واللغة: تاريخ التطور المستقل في بريطانيا"، جانبًا من تلك الجهود الحثيثة التي بذلها المعنيون البريطانيون- في تلك الفترة- لمراجعة مواصفات صناعة الأنثروبولوجيا الإثنوجرافية البريطانية، وموقفها من "اللغة" و"علم اللغة" كليهما، وذلك في الفترة الواقعة بين عامي 1850 و1960، وبذلك فإنَّه يتناول موضوعًا جديدًا غير مسبوق في تاريخ الأنثروبولوجيا الاجتماعية البريطانية، بمعني أنه لا ينتحل موضوعًا تقليديًا من الموضوعات التي سبق أن كتب الآخرون فيها مرارًا وتكرارًا، وبالرغم من مشقة العثور علي المصادر الوثائقية اللازمة لبناء مثل هذا الموضوع، أو صعوبة التفتيش عنه في الركامات المتناثرة التي خلفتها الإثنولوجيون الفيكتوريون، ومْنّ جاءوا بعدهم، طوال تلك الفترة الطويلة نسبيًا التي تناولها الكتاب، إلَّا أن الاستاذة **هيلاري هنسون**- مؤلفة الكتاب- لم تدخر جهدًا في ملاحقة المصادر الوثائقية المتناثرة، أو الطرائد المعرفية الجانحة التي يمكن الاعتماد عليها في رصد الموضوع، وتدقيق التأويلات النقدية، أو تمحيص شبكة العلاقات التاريخية المعاصرة لها، ولقد ساعدها في تلك المهمة الشاقة ثقافتها الموسوعية الخصبة، ومعرفتها الوثيقة بالتطورات التي صادفتها علوم اللغة والإنسان طوال تلك الفترة الطويلة. وعلى أية حال، فإنَّ الكتاب الحالي يمثل إسهامًا رائدًا- دون شك- في تاريخ

الأنثروبولوجيا الاجتماعية البريطانية لدراسة موضوع عاني المختصين من إهماله زمنًا طويلًا، ويسد فراغًا كبيرًا في المكتبة الأنثروبولوجية "البريطانية" ذاتها، هذا إلى جانب اعترافه الصريح بشرعية الاعتماد على المصادر الوثائقية في إعادة بناء المعرفة الأنثروبولوجية الغربية ذاتها.

وبعد !.

من المهم بمكان التعليق على احترافنا الورقي للأنثروبولوجيا الغربية، والمأزق الذي نجابهه نتيجة اعتماد **أئمة المحراب**، ومْنّ عداهم من **الوراقين العرب** على **رماد** الرطانة الانعكاسية "الغربية"، والابتهال لها، أو التحدث باسمها خارج سياقها المفاهيمي بالمعنى الخاطيء لها.!. وسوف أبدأ تلك المهمة المؤرقة بالتعليق على "الترجمة" التي أقدمها للكتاب الحالي. وعلى النحو التالي اتساءل:

مع التسليم جدلًا بأن المترجم– بمعنى ما– يمثل المتحدث الرسمي لـ"المؤلف" في لغة الترجمة، وأن الترجمة هي وسيلة الإيضاح التي يقوم من خلالها بإيصال مايتضمنه النص الأصلي لقارئ الترجمة. هل يجوز للمترجم في تقديمه للترجمة الاكتفاء بالبُنية الانعكاسية والتاريخية للنص الأنثروبولوجي الغربي الأصلي، والإحالة إليها في لغة الترجمة.؟.

في البداية، ينبغي الاعتراف بأن **المترجم لا يقوم**– في الأصل– **بإعادة** الاحلال السردي للنص الأصلي، أو اعادة استنساخه في لغة الترجمة **بقلمه الخاص**، وإنَّما **بقلم المؤلف**، وبوصفه أحد القراء الأجانب المطالعين للنص في لغته الأصلية، الذين تكبلهم آساليب التعبير فيه عن أية محاولة للخروج بالترجمة عن أسلوب التفكير الانعكاسي للمؤلف ذاته، وكأن النص لم يسبق أن وضع في لغته الأصلية بقلم المؤلف، وإنمَّا **في لغة الترجمة من قلم المترجم**.

إنَّ اكتفاء المترجم، في تقديمه للترجمة، بمستوى القراءة الأجنبية، وإعادة نسخ النص بضميره الانعكاسي في لغة الترجمة، أمر لا يجوز أصلًا.!. وذلك لإ**ختلاف المناسيب البلاغية لـالنصوص** في اللغات المختلفة، وأن ثمة **بونًا شاسعًا** بين **الموضع** الذي شغله النص داخل شبكة "**العلاقات**" المعرفية، والنقدية **في لغته الأصلية**، والموضع الذي تشغله الترجمة **في بُنية** "**العلامات**" السردية في **لغة الترجمة**، وأن ثمة صعوبة في الانتقال بالنص من سياقه السردي والنقدي، الناطق– في حالتنا هذه– بالإنجليزية، إلى لغة الترجمة **العربية**، وذلك لاستحالة استرداد السياق التاريخي المتداول للنص بأثر رجعي، وتباين الموضع الذي مارس منه المؤلف مسئولياته النقدية والسردية بـ"صيغة المتكلم" في

لسان الأم، وإعادة احلاله بـ"صيغة الغائب" في لغة الترجمة. ونظرًا لشعورنا بأهمية تلك "**المعضلة**" **عند ترجمة النص الأنثروبولوجي بالتحديد، سوف نقوم بإيضاحها في شي من التفصيل.**

لقد كتب **جون باتي** J.Beattie ذات مرة: "على حين يتحدث الباحث السوسيولوجي، عادة، اللغة الأوروبية ذاتها التي يتحدثها أعضاء المجتمع الأوروبي الذي يقوم بدراسته، ويشترك معهم في بعض المفاهيم، أو المقولات الأساسية، فإنَّ مهمة الباحث الأنثروبولوجي الأوروبي تتمثل في قدرته على فهم آساليب التفكير في المجتمع "الأجنبي" الذي يدرسه، وهذا هو السبب الرئيس في أن المعرفة "**السماعية**" للغة المجتمع المدروس تعد أمرًا ضروريًا وحتميًا في إدارة البحث الإثنوجرافي، وذلك لأن ثمة ارتباطًا وثيقًا بين مقولات تفكير أعضاء المجتمع المدروس وآساليب تعبيره عنها، إلى حد يستحيل الفصل بينهما دائمًا" **(Beattie, 1964:31)**

ونظرًا لتقديرنا البالغ لهذه الملاحظة الهائلة، ودورها الحيوي في إبراز **أهمية مفهوم** "**الأجنبي**" **الشفاهي** في تحديد البُنية التأويلية والسردية للأنثروبولوجيا الإثنوجرافية، وما يثيرة هذا المفهوم حول **الديالكتيك** النقدي الحاكم لـ"ثقافة" الباحث الغربي، و"الثقافات الأجنبية" المدروسة، وآساليب "تمثله" لها، و"تمثيله" لها كذلك في اللغة الأوروبية، ثمة ضرورة للتنويه بأن الأنثروبولوجيا الغربية لم تكن يومًا شكلًا من أشكال البحث العلمي للخبرات الثقافية "الأجنبية"، وإنَّما هي– كما علمنا **مالينوفسكي– شكل من أشكال التصوير البلاغي الأوروبي** لـ**الخبرات الثقافية الأجنبية**. وفي الواقع، فإنَّ المونوجرافات التي وضعتها الأنثروبولوجيا الغربية طوال تاريخها– ولا تزال– لم تكن تمثل أبحاثًا علمية بمعناها الدقيق، يمكن أن تجسد الطموح المعلن للعلماء لتحويلها إلى أحد العلوم الدقيقة، وإنَّما هي **وسائل إيضاح قلمية للخبرات الإنسانية** "**الأجنبية**"، ونظرًا لصعوبة **التمثيل** "المفترض" للتجارب الإثنوجرافية **الشفاهية** في اللغات الكتابية الأوروبية، وذلك **لعمق الهوة التعبيرية** التي تفصل بين الثقافات الشفاهية والكتابية، واستحالة مطابقة وجهتي النظر الشفاهية والكتابية بين اللغات والثقافات بشكل عام، فقد حرص الكُتاب الأنثروبولوجيون دائمًا– عند تحريرهم للمونوجرافات– على استثمار كفاءاتهم الأدبية والانعكاسية في تصويرهم للتجارب الثقافية "الأجنبية"، والمزج **بينها**، و**بين** الحبكة الإثنوجرافية التي يطالعها القارئ، مثلهم في ذلك مثل الأدباء الواقعيين، أو الروائيين المحترفين تمامًا.

إلَّا أنه، وعلي الخلاف من الأعمال الأدبية التي تعتمد "المرويات" فيها علي مخيلة الكتاب وحدها، ويتم فيها التضحية بالصدق الواقعي- عادة- من أجل بلوغ التأثير الأدبي، والاستاطيقي، في القارئ، تحرص المونوجرافات الإثنوجرافية على تحقيق شكل من الصدق الواقعي، بصرف النظر عن التأثير الأدبي، أو الاستاطيقي الذي تمارسه، ونظرًا للصفة "**الأجنبية**" للموصوفات فيها، فقد **ازدوجت** ملامح الإحالة فيها، حيث يمارس الكاتب الأنثروبولوجي **مسئوليته السردية أولًا**: من منظور الباحث الإثنوجرافي المدقق، الحريص على تجسيد المعلومات التي اختبرها مترجلًا في إحدى الثقافات الشفاهية "الأجنبية" بوصفها حقائق يقينية واقعة، ولذلك نجد في النصوص الإثنوجرافية- وعلى غير الأعمال الأدبية- نوعًا من التحري والتدقيق في إيراد وجهات نظر المعلومات، وحوارها المتداول فيما بينها. ويمارسها **ثانيًا**: **من منظور المترجم الإثنوجرافي** الحريص على سرد الأخبار الشفاهية "الأجنبية" سردًا انعكاسيا محكمًا، وإحكام الحبكة الإيضاحية والتصويرية في النص الأنثروبولوجي الذي يطالعه القارئ الأوروبي في آن معًا.

ومن هذا المنظور، يمكن اعتبار المونوجراف الإثنوجرافي "**وسيلة إيضاح**" يستخدمها الباحث لإيراد الممارسات الوجودية **الغرائبية** التي سبق له أن اختبرها مترجلًا في أحد المجتمعات الشفاهية النائية، أو إعادة تصميم الواقع الاجتماعي البري الذي اختبره- من منظور شاهد العيان- بوصفه طريقة كاملة من الحياة، وتمثيله للقراء الأوروبيين على هذا الأساس، وبصرف النظر عن المسائل الاجرائية، والتقانية المتعلقة بنشاط الباحث في الميدان، فإنَّ ما يدرجه في المونوجراف لا يعبر عن "أسلوب العمل في الصحاري، أو الادغال الاجتماعية"، بقدر ما يعبر عن **الحضور التعبيري للباحث الميداني** علي لوحة مفاتيح الآلة الكاتبة. ويمكن تمثيل العلاقة بين المجابهة البدائية الفعلية والتمثيل التالي لها في المونوجراف المطبوع في ضوء **قياس التمثيل**، أو التناظر المفترض بين المشهد الطبيعي "الحي" الماثل للحواس، واللوحة الفنية "غير الحية" التي ترسمها ريشة الفنان له، فعلى حين يجسد المشهد الطبيعي موضوعه الماثل لشاهد العيان دون زيادة أو نقصان، لأنه شبيهًا بذاته، ولا يشتق تمثيله بالمحاكاة، أو بقياس تمثيل، لأن تصميمه يتطابق حرفيًا مع "ذاته"، فإنَّ اللوحه الفنية المرسومة له لا تنقل- على نحو فوتوغرافي حرفي- المشهد الطبيعي الموجود بذاته، بقدر ما تعبر عن اللغة التصويرية التي يستخدمها **الفنان** في رسم مايراه (أي عن **حدسه الغريزي**، و**رؤيته** الخيالية

والوجدانية، وخبرته الفنية في التعبير ... وهكذا)، وفي الواقع فإنَّ هذه اللغة التصويرية، هي ما يمكن الفنان من التوقف كشاهد عيان عن رؤية المشهد الطبيعي الحي، والاستغراق التأملي، وتصوير ما يراه.

وبطبيعة الحال ليس ثمة مونوجراف إثنوجرافي دون وجود إحدى اللغات التصويرية التي تُمكِن الكاتب من **استرداد صدى** المجابهة البدائية داخل النص، ومع ذلك، فإنَّ العلاقة بين المجابهة البرية والمونوجراف الإثنوجرافي المطبوع لا تتناظر مع العلاقة بين المشهد الطبيعي (الحي) الموجود بذاته، واللوحة الفنية (غير الحية) المرسومة له، وإنَّما تتناظر بصيغة "لا زمنية" مع العلاقة الافتراضية القائمة بين اللوحة الفنية، وإحدى اللوحات المسلوتة، أو الرسوم الظلية Silhouette للوحة الفنية ذاتها، فالذي يجمع بين اللوحة المسلوتة (المونوجراف المطبوع) والمشهد الطبيعي (الحي) هو ادعاء الفنان أنه قام في اللوحة الظلية بتصوير مشهد طبيعي، هو "وحده" ثمّ اختبره (المجابهة البرية)، وهذا الادعاء– وحده– هو ما يعطي الانطباع الواقعي للقارىء بأنه يطالع في المونوجراف الإثنوجرافي التجربة الميدانية التي سبق للباحث أن اختبرها في الصحاري، أو الأدغال الاجتماعية البرية.

وبالرغم من القيود الانعكاسية التي تفرضها الثقافات علي المترجمين والإثنوجرافيين والقراء على حد سواء، فإنَّ من الواضح أن الكاتب الإثنوجرافي لا يقوم بترجمة النصوص الثقافية "الأجنبية" على طريقة المترجم، أو بإعادة احلال معاني أحد النصوص "الأجنبية" في لغته الأوروبية، وذلك لأن عليه **أن يقوم بانتاج** هذه النصوص الثقافية الخام– **أولًا**– قبل ترجمتها إلى لغته الأوروبية، والأهم هو أنه، ولئن كان النص الأدبي يتطلب من المترجم العادي أن يستخدم خياله الأدبي لترجمته، وجعله مألوفًا للقارئ، فإنَّ على المترجم الإثنوجرافي أن يستخدام "**اقران التمثيل**"، وذلك لأنه واقع– علي غير المترجم العادي– في شرك الثقافة الشفاهية "الأجنبية"، وتباين المناسيب الثقافية التي تنكر تأويلاته، لجعلها مألوفة للقارئ الأوروبي، ومحتفظة بـ"أجنبيتها" في الآن ذاته، وبالرغم من تأكيد النقد الأدبي على الطبيعة المؤقتة لـ"**التأويل**"، وعدم وجود قراءة نهائية للنصوص بكافة أنواعها، إلَّا أن الحجج العلمية اللازمنية واللاتاريخية المجردة للكتاب الإثنوجرافيين قد أوحت لهم بوجود **تأويل متعالي ختامي** "**منغلق**" للنصوص الإثنوجرافية، وقراءة نهائية لها– كذلك.

لقد لمس **إيفانز بريتشارد** جوهر المسألة حين كتب في مقدمة كتابه "**الدين عند النوير**": "لا أنكر مدى الصعوبات الدلالية في الترجمة، وهي ضخمة بما فيه الكفاية إذا أشرنا للترجمة بين الفرنسية والإنجليزية، ودون شك، فإنَّ المهمة حين تتعلق بترجمة لغة بدائية إلى لساننا (الغربي) مرعبة للغاية، وتلك هي المشكلة التي جابهتنا في الموضوع الذي نناقشه"(**Evans-Pritchard,1936**)، والموضوع الذي كان يناقشه هو الدراسة الأنثروبولوجية للدين. وفي الواقع، فإنَّ الأمر لا يقتصر على الدراسة الأنثروبولوجية للدين، وإنَّما ينطبق على الأنثروبولوجيا الإثنوجرافية بأكملها، وذلك لأن الباحث الإثنوجرافي لا يكرس جهوده، في الميدان، لفهم اللغة الشفاهية للشعب الذي يدرسه، وترجمتها- وحسب، وإنَّما يكرسها لاستيعاب طريقته الشفاهية الإجمالية في الحياة، وذلك من أجل إعادة **تمثيلها** للقاريء الأوروبي، والأهم أن هذا التمثيل لم يكن يتطلب **الاستنساخ الآلي** لـ**بُنية** الخطاب الشفاهي البدائي داخل اللغة الأوروبية وحسب، وإنَّما يقتضي الاستيعاب الانعكاسي لمركب الوقائع المتشابكة للطرق الشفاهية الأجنبية في الحياة، والتوافق الإيقاعي مع مرادها، والعثور على الموارد التعبيرية المكافئة للتعبير عنها في الخطاب التمثيلي، الذي يمكن لجمهور الأنثروبولوجيا الإثنوجرافية- الذين لم يشاركوا في الخبرة الإثنوجرافية- أن يستوعبوه. لقد جعل **لينهارت** من "**الترجمة الثقافية**" المهمة المحورية للأنثروبولوجيا الإثنوجرافية، ولقد ذكر: "لا تعدو مشكلة وصف كيف يفكر أعضاء إحدى القبائل الأجنبية المنعزلة مشكلة الترجمة، أو مشكلة جعل الترابط المنطقي الذي يميز الفكر البدائي في اللغات التي يعيشون فيها، مفهومًا قدر الإمكان في لغتنا الغربية"(**Lienhardt, 1954**).

ليس غرضي- بطبيعة الحال- التورط في أزمة الهوية المعرفية في الأنثروبولوجيا الغربية، ومدى ملائمة الثقافة الغربية، ذاتها، لفهم الأوضاع الثقافية للشعوب الأخرى، والتعبير عنها، إلَّا أن **التأمل السيميولوجي** في ممارساتنا الورقية للأنثروبولوجيا الغربية، يدفعني- ولأسباب إيضاحية- إلى عقد مقارنة بين الأنثروبولوجيا و**الاستشراق**. فمن المعروف أن **المبحثين الغربيين** قد اتخذا من **الثقافات** "**الأجنبية**" موضوعًا للرصد والتحقق، ولئن كان على **المستشرقين** الاعتماد على **الوثائق** والنصوص الجاهزة المكتوبة في اللغات الشرقية، واتخاذها إطارًا للاحالة، كان على **الأنثروبولوجيين** "**وضع**" تلك النصوص "الأجنبية" بـ**أقلامهم أنفسهم**، وذلك بالاعتماد على المعلومات "الميدانية"

الخام التي يقومون بجمعها من الأفواه الشفاهية "الأجنبية" مباشرة. ولعل المفارقة، هنا، هي أن جزءًا من النصوص التي شكلت محورًا للاستشراق كانت **ناطقة بالعربية**، ولربما عثرنا عند دراستنا للاستشراق على حيز انعكاسي **متبادل** يسمح بالنقد والتعليق، وذلك على فرض أن المستشرقين وموضوع دراستهم (الناطق بالعربية) يجيد كل منهما لغة الآخر كلغة ثانية، وأن الوثائق والآثار "العربية" التي حققها المستشرقون من منظورهم الغربي، كانت تمثل هي- ذاتها- موضوعًا للإحالة في نقدنا للاستشراق.

فيما بعد الحرب العالمية الثانية تم إلحاق الإثنوجرافيا بالاستشراق، ولقد بدأ المستشرقون في القيام بدراساتهم الميدانية في المجتمعات العربية، بالاعتماد على المنهج الإثنوجرافي الميداني، ووفقًا للتقاليد الاستشراقية، فإنَّهم لم يهتموا بـ"البُنية الاجتماعية" للمجتمعات العربية "شبه الكتابية"، وإنَّما بالكيانات الطائفية الدينية (السنة والشيعة، والدروز والعلويين، والموارنة والأرثوذوكس اليونانيين، والأقباط والبروتستانت، ... وهلم جرًا، أو بالكيانات الطائفية العرقية (الأكراد، والبربر، والموارنة، وهكذا). وفي الواقع، لقد كانت المجتمعات العربية تمثل "**فردوسًا**" لـ**المستشرقين الإثنوجرافيين المحدثين**، ولكننا لم **نفطن** للمدخل الاستشراق الإثنوجرافي، وأكتفينا بالابتهال للأنثروبولوجيا الغربية في ثوبها البدائي، هذا مع أن موضوع الدراسة "البدائي" لم يكن ناطقًا بالعربية، ولم يحدث أن ذهبنا إلى مواقع الأحداث البدائية الشفاهية، التي اتخذتها الأنثروبولوجيا الغربية موضوعًا للإحالة، ولم يكن لدينا أدنى معرفة باللغات البدائية التي شكلت المسرح المألوف للعمل الإثنوجرافي السماعي، وهكذا لم نتعرف على المعرفة الأنثروبولوجية إلَّا في **رطانتها الغربية**، وآساليب التعبير الانعكاسي الغربي فيها عن الآخرين الثقافيين.

وهكذا، فبالرغم من تباين المناسيب اللغوية، والثقافية، والتمثيلية بين النصوص الأنثروبولوجية، وبالرغم من أن "الترجمة" المعرفية لها ليست عملية "سردية"، بإمكانها أن تنتحل سيرة الحياة الغربية، وتعيد تداولها- كما هي- عبر اللغات، وإنَّما هي عملية فكرية انعكاسية يجب أن تتم من **منظورنا** "**العربي**"، فقد اكتفينا، وللأسف، بقراءة جانب مما خطته الأقلام الغربية حول الآخرين البدائيين، وممارسة لعبة "**المرايا المعرفية**" لالتقاط **لقطة ورقية** للأنثروبولوجيا الغربية في لغتنا العربية، ولفهم المقصود بذلك يمكن النظر للأنثروبولوجيا الغربية بوصفها "خطابًا معرفيًا" انعكاسيًا يتكون من

مجموعة من **العلامات** النوعية، تقوم كل **علامة** منها على المكونات الثلاثة التي وضعها **بنفنيست** Benveniste للعلامة: ثمة **دال** Signifier، وثمة **مدلول** Signified ، ثم الموضوع البدائي الذي **يحيل** إليه هذا الخطاب هذين العنصرين الآخرين للعلامة، ومن هذا المنظور يمكن تفكيك مكونات الخطاب الأنثروبولوجي الغربي إلى: (**1**) المونوجرافات الغربية المكتوبة بوصفها كذلك. (**2**) المفاهيم الغربية المتبناه في فهم الثقافات البدائية، والتي صيغت في الأصل من المنظور الغربي. (**3**) المهام الميدانية "البدائية"، التي حددت- في الأصل- سيرة الاحالات الانعكاسية "الأجنبية" في الخطاب الأنثروبولوجي الغربي- ذاته.

وبطبيعة الحال، ثمة وجود لهذا الخطاب المعرفي الغربي مستقل- تمامًا- عن أية قراءة أجنبية له، أو أي اقتباس يمكن أن يتم له في لغتنا العربية، أو في أية لغة من لغات العالم، وإذا كان من الجائز تداول خطاب العلوم الدقيقة بالجنب عبر اللغات، على فرض أن الموضوعات الكونية الخرساء، بإمكانها أن توفر إطارًا موحدًا للإحالة في هذه العلوم، وسياقًا للتحقق من المواصفات التفسيرية اللازمة لدراستها بين اللغات، فإنَّ من قبيل المستحيل الادعاء بإمكانية تحقيق ذلك في مجال العلوم الاجتماعية، والإنسانية بشكل عام، وفي مجال الأنثروبولوجيا الإثنوجرافية بنوع خاص، وذلك لأن المواصفات الاستراتيجية القصية لدراسة الثقافات "**الأجنبية**" ليست مواصفات نقدية "**محايدة**"، يمكن تداولها بالجنب عبر اللغات، أو استيرادها من اللغات الأوروبية للغتنا العربية بأثر رجعي، وإنَّما هي مواصفات فكرية انعكاسية فريدة بذاتها، لا يمكن فهمها إلَّا في سياق سيرة الحياة التأويلية، والنقدية لخطاب الأنثروبولوجيا الغربية ذاته، و**في ضوء العلاقة التاريخية الاستثنائية**، التي قامت بين **البلاد الاستعمارية الغربية**، و**الموضوعات الأجنبية المُستعمرَة** المدروسة.

وبطبيعة الحال، لم تكن تنقصنا الرؤية التأويلية والنقدية- لسابق خبرتنا بالاستشراق- للخطاب الأنثروبولوجي الغربي، والموهبة الغريزية، أو المنطقية الانعكاسية للمبادرة لوضع المواصفات النقدية لممارساتنا الأنثروبولوجية من منظورنا النقدي الخاص، ولكننا اكتفينا باستنساخ ما خطته الأقلام الغربية، وانتحاله، أو إعادة ترديد المرويات فيها، وإعادة لحمها، أو الحاقها بلغتنا العربية، وهذا معناه أننا قمنا بشطر خطابنا الأنثروبولوجي ليس فقط بين لغتين (اللغة البدائية "**السماعية**" التي اختبر الباحثون الأوروبيون فيها تجاربهم الميدانية، واللغة الأوروبية "**الكتابية**" التي أورد فيها

هؤلاء تجاربهم الميدانية للقارئ الأوروبي) **لا تتقابلان في أبجديتنا العربية**، وإنَّما شطره أيضًا بين شخصين (الكاتب الأنثروبولوجي الأوروبي، والقارئ- الدارس العربي) **لا يتفاعلان**. والغريب أنه بالرغم من استحالة استنساخ خطاب المعرفة الأنثروبولوجية الغربية (المتمركزة حول الثقافة السماعية الأجنبية) بالجنب عير اللغات الكتابية، وذلك لاختلاف المناسيب اللغوية، والانعكاسية بين الثقافات، و**عدم إمكانية تفعيل قانون الأواني "التعبيرية"** المستطرقة في هذا المضمار، فقد اكتفينا بإحالة "لسان حالنا" الانعكاسي على صيغة المتكلم الغربي، و**اكتفينا بدراسة مجتمعاتنا الوطنية**، كما درس الباحثون الغربيون "الآخر البدائي الأجنبي"، وبذلك لم نتعامل مع المعرفة الأنثروبولوجية **الغربية**، وأساليب التعبير فيها بمنطق تحقيق النصوص "الأجنبية" القائم على الصناعتين التأويلية، والنقدية وشروطهما، وإنَّما تعاملنا معها بمنطق **وضع العلم القائم على البرهان**، وهكذا **وقعنا في** الترويج لأحد الأجناس البلاغية الانعكاسية **باسم أحد الأجناس العلمية**، وغدت ممارساتنا الذاتية المسماه بـ"الأنثروبولوجية" أشبه ما تكون بجنس أدبي "عرقي- فيلولوجي" إن صح هذا التشبيه.

وفي الواقع، لقد كان لهذا **الاغتراب المعرفي** مردودات سلبية، قل أن يشار إليها في لغتنا العربية: **المردود الأول**: ويتمثل في تلك **التحقيقات الاخبارية** لمجتمعاتنا الريفية، والصحراوية والحضرية، التي **جاهرنا للترويج لها باسم الأنثروبولوجيا الأكاديمية**، والتي حاكينا فيها، دون احتشام، المفاهيم الانعكاسية التي وضعتها الأنثروبولوجيا الإثنوجرافية الغربية، في الأصل، لدراسة الأوضاع المعيشية للمجتمعات البدائية "الأجنبية" (مفهوم البُنية الاجتماعية، منهج دراسة الحالة، تعلم لغة المجتمع المدروس، الاستعانة بالمعايشة لجمع المعلومات)، مكتفين في ذلك بالصاق النعوت والعناوين **الفسفورية**، لإضفاء النكهة الأنثروبولوجية عليها. والتهكم هنا لا ينصب على ارتجال مثل هذه التحقيقات الاخبارية لمجتمعاتنا الوطنية شبه الكتابية، وإنَّما على **توهم المواهب** التي تقوم بها **أن إلصاق العناوين و النعوت الأنثروبولوجية**، كفيل بجعلها بحوثًا أنثروبولوجية، هذا بالاضافة إلى عدم اهتمام هؤلاء بنشر نتائج هذه التحقيقات بالإنجليزية، والمدامجة النقدية للمعرفة الأنثروبولوجية الغربية، التي تتم هذه التحقيقات الاخبارية، في الأصل، بالإحالة لها، وذلك على فرض أن الأنثروبولوجيين الغربيين لايقرأون العربية، وبين عدم اكتراثنا بمدامجة المعرفة الأنثروبولوجية الغربية، والتلاحم معها، وعدم اطلاع أهلها على تحقيقاتنا الاخبارية **العبثية**، ظلت هذه المسوخ

أشبه بـ**الجزر المهملة خارج الخطاب الأنثروبولوجي الغربي**، ودون إقامة أي حوار نقدي انعكاسي مقنع معه.

أما **المردود الثاني** فيتمثل في تلك المقررات التعليمية التي حرصنا على تدريسها للطلاب في مقررات الأنثروبولوجيا في جامعاتنا المصرية، وهي لا تنسجم، بأية حال، مع الهدف الرئيسي المعلن للجامعات، وهو **اكتشاف المعرفة**، والتزام الأكاديميين بممارسة مسئولياتهم الفكرية، والمعرفية لبلوغ هذا الهدف، و**حفظ** المعرفة المكتشفة، والعمل على **تسويقها** وتداولها- في آن معًا، فتلك المقررات لا تخرج عن بعض الكتب شبه المترجمة، التي لم تكتب- في الأصل- كمقررات أكاديمية في لغاتها الأصلية، حتى يمكن النظر لها على هذا الأساس. أو بعض المصنفات التي يستعرض فيها الوراقون الجدد- كلٌ بقدر طاقته- بعض الأقاويل المجتزأة من سياقها التاريخي والانعكاسي الغربي، ويقومون بعرضها عرضًا "كولاجيًا" يفتقر للترابط المنطقي، أو النقدي في آن معًا. أو بعض المختارات المنفرة التي تُجتزأ فصولًا من رسائل الماجستير والدكتوراة، أو بعض الاستقصاءات العشوائية المعدة سلفًا للتقدم للحصول على الترقيات، من أجل كتافات الرتب الأكاديمية، وكان لديهم الجرأة الكافية لتدريسها باسم هذه المقررات.

نعم- ودون احتشام- تلك هي حقيقة ممارساتنا الغريزية العبثية التي نقوم بها في اطار الرطانة الأنثروبولوجية الغربية في لغتنا العربية، **فلم الخجل إذن"!**.

ولم لا!. وقد وقعنا- منذ زمن- في ممارساتنا لشتى فروع المعرفة الاجتماعية والإنسانية (أقصد السوسيولوجيا والسيكولوجيا وعلم السياسة والتربية وعلم اللغة والنقد الأدبي... إلخ) في الرطانة الغربية، ولم نفطن إلى خلو هذه الممارسات الشتيتة من أية نظرة نقدية انعكاسية، أو تحليلية لما نقوم- عن عمد- به، وكأننا سلَّمنا بأن المختصين الغربيين قد قالوا كل شيء فيها- تقريبًا، ولئن لم يصادف الممتهنون العرب لفروع المعرفة الاجتماعية الغربية- مقارنة بممتهني الأنثروبولوجيا- حيرة "**نقلة الفرس**" المعرفي على رقعة الشطرنج (أقصد العلاقتين بين الأنثروبولوجيا الغربية وموضوع دراستها "الثقافة الأجنبية"، وبين الدارس العربي نفسه والنصوص الأنثروبولوجية "الأجنبية"- ذاتها، التي اتخذت من الثقافة السماعية "الأجنبية" موضوعًا للاحالة)، فإنَّ هذا النقد ينطبق- بشكل أو

بآخر– على كافة ممارساتنا لفروع المعرفة الاجتماعية الغربية بأكملها دون استثناء، هذا وإن لم يسمح المقام بالتعرض لهذة المعضلة المؤرقة للعقل بالفعل.

يدور بخلدي أنه يجب عدم الابتهاج كثيرًا بتمرير النصوص الأنثروبولوجية الغربية، أو إعادة نثر "المرويات" فيها، وترجمتها، على حالها، إلى اللغة العربية، وذلك لأن "المنطوق به" فيها بلسان حالها "الانعكاسي الأجنبي" يخالف تمامًا "المطلوب إثباته" في لغتنا العربية، بلسان حالنا، وأحسب أن أبجديتنا العربية قد ضاق صدرها من "احالة" ممارساتنا **السوسيوجرافية** على فرع المعرفة الغربية، وذلك لأن الأنثروبولوجيا الإثنوجرافية لم تكن مجالًا معرفيًا من الجائز احترافه، والتعبير عنه من منظور الاحالة الورقية، وإنَّما هي– في يقيني– المجال المعرفي الوحيد الذي يحتم على ممتهنيه ضرورة التحقق من منظوره الانعكاسي، والتاريخي، في علاقته بما عدانا من بلاد العالم، من منظور ثقافتنا الانعكاسية والنقدية، فهذا هو ما يجب– في يقيني– الانطلاق منه في دراستنا النقدية لنصوص الأنثروبولوجيا الغربية، والتعبير عنها في لغتنا العربية.

وحتى يحين الوقت الذي نفطن فيه لتلك "المعضلة" في ممارساتنا الورقية للأنثروبولوجيا الغربية، والتحقق من ضرورة ممارسة مسئولياتنا الفكرية والنقدية اللازمة، وذلك لاسترداد الوجهين النقدي والانعكاسي "الغائبين" عن ممارساتنا العرقية– الفيلولوجية "الشاردة" للأنثروبولوجيا الغربية، فإنَّني استسمح القارئ عذرًا أن حملته عبء قراءة هذه "الثرثرة"، وما كتبتها له، وإنَّما كتبتها إلى ذاتي، وذلك، لأنني أشعر بالعبث إنْ مارست هويتي العرقية– الفيلولوجية "العائمة"، وأشعر–كذلك– بخيبة الأمل أن حملت لغتنا العربية عبء التعبير عن هذه الترجمة، وما عاد عقلي ليقدر على الاحتفاظ بهواجسه، وما عدت قادرًا على التعبير الأصيل عن تلك المعاني التي تأججت بالثقة يوم حلمت أن يعبر قلمي عنها ذات يوم.

والله والوطن من وراء القصد.

محمود حمدي عبد الغني

الإسكندرية فى : 1 / 1 / 2019

مقدمة المؤلفة

شهدت الأنثروبولوجيا الاجتماعية في السنوات الأخيرة، في كل من بريطانيا وفرنسا وأمريكا، تطورًا لإحدى الحركات الفكرية الجديدة، ولقد تجلت تلك الحركة في اهتمام الأنثروبولوجيين في هذه البلاد الثلاثة بدراسة الرموز وأنساق المعتقدات والأيديولوجيات، أي بدراسة المعني، كما تجلت في اعترافهم باعتماد الأنثروبولوجيا الاجتماعية على النماذج، واهتمامهم بتنقية تقانات الوصف والمقارنة وتنقيحها، وتلك الحركة هي الأنثروبولوجيا البنائية، حيث لم يعد مصطلح بنائي Structural يشير التعريف إلى الذي قدمه **راد كليف براون** Rad.Cliff-Brown ذات يوم له، وإنَّما أصبح يشير إلى المعنى المستخدم فى علم اللغة البنائي[1]. وهو أمر له دلالته بالطبع، وذلك لأنه يبين الارتباط الوثيق بين الحركة الأنثروبولوجية الجديدة واللغة، وبالفعل فقد ارتبطت التطورات الجديدة التي شهدتها الأنثروبولوجيا الاجتماعية في البلاد الثلاثة المذكورة بظهور وعي جديد بأهمية اللغة للأنثروبولوجيا، سواء تمثل ذلك في اهتمام الأنثروبولوجيين بالنظر للغة بوصفها جزءًا جوهريًا من الثقافة، أو بالنظر إليها بوصفها نموذجًا لجميع الوسائط الثقافية، أو بالنظر إليها بوصفها الأمرين كليهما معًا، أم تمثَّل حتى في حرصهم على الاطلاع على تقانات علماء اللغة، واعترافهم بالصلة الوثيقة بين هذه التقانات والأنثروبولوجيا .

لا بأس، ولكن !. فعلي حين ارتبط التطور الذي شهدته الأنثروبولوجيا باللغة، تباينت تواريخ العلاقة بين الأنثروبولوجيا وعلم اللغة فى تلك البلاد الثلاثة تمامًا، ولقد أشارت **كازاجراند** J.B.Casagrande إلى التناقض الذي يغلف العلاقة بين الأنثروبولوجيا وعلم اللغة في كل من أمريكا وفرنسا وبريطانيا (هذا مع ملاحظة أنها تكتب من منظور أمريكي)، ولئن كان ثمة احتكاك محافظ بين العلمين في أمريكا، خلافًا لما كان عليه الأمر في كل من فرنسا وبريطانيا،لم تتطابق الأنثروبولوجيا الأمريكية بالقدر نفسه الذي تطابقت به الأنثروبولوجيا الاجتماعية الفرنسية والبريطانية وعلم اللغة البنائي الحديث:

---

[1] **وبهذا المعني سوف نستخدم المصطلح فى هذا الكتاب.**

"... ومع ذلك يختفي هذا التناقض إذا تذكرنا الروابط الوثيقة التي قامت بين علم اللغة والأنثروبولوجيا فى القارة الأوروبية، ابتداء من دوسوسير F.deSaussure ، ودوركايم E.Durkhiem، ومارسيل موس M.Mauss، وأنطوان ميي A.Meillet، وليفي شتراوس C.Lévi-Strauss الذي استخدم علم اللغة بوصفه نموذجًا لـ"الأنثروبولوجيا الاجتماعية"، وعلى حين اشترك هؤلاء العلماء جميعًا فى التقليد الفكري ذاته، لم يكن لعلم اللغة أي تأثير يذكر علي الأنثروبولوجيا الاجتماعية البريطانية، ولم يبد الأنثروبولوجيون البريطانيون، باستثناء مالينوفسكي، أي احترام لهذا العلم، وبطبيعة الحال فإنَّ أية معالجة متعمقة للعلاقات المتبادلة بين الأنثروبولوجيا وعلم اللغة فى أمريكا وخارجها سوف تلقى الضوء علي التاريخ المشترك للعلمين كليهما" (Casagrande,1963:233)

ولم تكن الدراسة الحالية إلَّا محاولة للإسهام في تلك المعالجة المتعمقة للعلاقة المتبادلة بين الأنثروبولوجيا وعلم اللغة، هذا وإن اقتصرت على الأنثروبولوجيا الاجتماعية البريطانية، وثمة أمل فى أن يتضح- فى غضونها- إذا ما كانت معالجتنا التفصيلية للموقف البريطاني تؤكد التقدير العابر الذي أظهرته **كازاجراند** له، أم لا .

أما الفرضية الأساسية التي وضعتها نصب عيني عند تقديم الدراسة الحالية للقارئ فقد تمثلت في افتراض وجود ارتباط وثيق بين التطورات الأنثروبولوجية الجديدة وتغير المواقف من اللغة. ولئن اعترف آخرون بوجود مثل هذا الارتباط،لم أقصد بتلك الفرضية إلَّا تقديم البرهان الذي يمكن في ضوئه الاستنتاج وحسب، ولذلك لم أبحث، في ضوءها، عن أية مقدمات أولية قد أدت إلي وجوده، ولم أبحث كذلك عن أية نتائج نهائية قد ترتبت عليه. ولقد كان من الواجب عليَّ وضع فرضيات أخري بالتأكيد، إلَّا أنني لم أفعل، على فرض أنني لا أتطرق في الدراسة إلى تواريخ العلاقة المماثلة بين العلمين في كل من أمريكا وفرنسا، ونظرًا لإفتراضي أن لدى القارئ معرفة عامة بالتطورات التي أحرزها علم اللغة في الفترة الزمنية التي تناولتها فى هذه الدراسة، فقد قمت باستخدام النظريات اللغوية وتقاناتها، أو بالإشارة إليها من وجهة نظر الأنثروبولوجيا الاجتماعية البريطانية، وقد تم ذلك- على سبيل المثال- في حالة **مالينوفسكى** والعلاقة الوثيقة التي ربطت بينه وبين **جون روبرت فيرث** J.R.Firth ومدرسة لندن فى علم اللغة، وقد سبق وأن أشارت

كازاجراند إلى وجود فجوة عميقة في معرفتنا الخاصة بتطور العلاقة المتبادلة بين الأنثروبولوجيا وعلم اللغة، ولذا تجدني أحرص على حصر نفسي في تقديم المعلومات التي يمكنها أن تسد أحد جانبي تلك الفجوة وحسب، على أمل أن يمكننا ذلك– حين تتزايد معرفتنا حول العلاقة المتبادلة بين هذين العلمين ككل– من استنتاج أسبابها، والنتائج المترتبة عليها، هذا وإن لم يكن المقام مناسبًا لانجاز مثل هذا الأمر بالتفصيل .

لقد سبق القول إنَّ ظهور الاهتمام الأنثروبولوجي باللغة أو بعلم اللغة يعد بحد ذاته أحد المظاهر الوثيقة لما يعرف باسم الأنثروبولوجيا الجديدة، وما يعنينا في هذا المقام، هو تاريخ ظهور مثل هذا الاهتمام، وهل كان تطورًا طبيعيًا للاهتمامات البريطانية التقليدية باللغة، أم أن الممتهنين البريطانيين للأنثروبولوجيا الجديدة قد بحثوا عن القدوة خارج بريطانيا.؟. ولقد ركزت الدراسة علي الأنثروبولوجيا الاجتماعية في جميع مراحل تطورها ابتداء من منتصف القرن التاسع عشر حتى بداية الستينيات من القرن العشرين. فلقد بدأت الأنثروبولوجيا في الظهور في الفكر البريطاني في منتصف القرن التاسع عشر كأحد فروع المعرفة المستقلة عن كل الدراسات الخاصة بالإنسان، وفي بداية الستينيات من القرن العشرين سجلت الأنثروبولوجيا الاجتماعية البريطانية تطورًا مهمًا فى المواقف والاهتمامات، وإن اقتصر هذا الدور على قطاعات محددة منها.

وبالطبع لم يكن ثمة مفر من تحديد ميدان هذه الدراسة بشكل عشوائي إلى حد ما، وعلى وجه الخصوص فى عصره المبكر (وهو العصر الذي لم يكن فيه ما يمنع أحد النبلاء الهواة من التخصص في أي فرع من فروع المعارف الإنسانية)، وهو العصر الذي لم يكن من السهل فيه أيضًا التمييز بين إسهامات الباحث الأنثروبولوجي المتخصص، وإسهامات كل من الباحث اللغوي أو المُنصر الديني، أو الإداري الاستعماري، ونتيجة لذلك لم أكتف أثناء جمعي للمادة الخاصة بهذا العصر بمراجعة الكتابات الرئيسية التي كتبها أنثروبولوجيون فقط، بل حرصت على مراجعة الدوريات الأنثروبولوجية الرئيسية أيضًا، من أمثال مجلة المعهد الأنثربولوجي الملكي ***JRAI*** ، ومجلة الجمعية الأثنولوجية ***JES***، ومجلة الإنسان ***Man***، ومجلة أفريقيا ***Africa***، وذلك على فرض أن هذه الدوريات تقدم صورة واضحة للاهتمامات العامة التي سادت في العصر الخاضع للمراجعة، مقارنة بالصورة غير الواضحة التي قد يقدمها الاعتماد على أعمال بعض الكتاب المنتمين للعصر

ذاته، هذا وإن كُتبت بعض المقالات التى ظهرت في هذه الدوريات بأقلام غير أنثروبولوجية، فليس من الصعب إثبات أهمية محتوياتها للأنثروبولوجيا المعاصرة لها. وقد يكون التحديد القاطع لجنسية الكتاب أمرًا مثيرًا للجدل في بعض الأحيان، إلَّا أن تحديد النهج الذي أخذت به الأنثروبولوجيا البريطانية لا يعنى بأي حال أنها انعزلت عن الأنثروبولوجيا غير البريطانية، سواء فى أسماء الأشخاص، أو في الأفكار، لأن من الثابت أن **ماكس موللر** Max Müller، و**مالينوفسكي** (وهما يمثلان الرمزين الفكريين المهمين في دراستي التاريخية الحالية) قد بدءا بالفعل تخصصهما الأكاديمي قبل أن ينتقلا إلى بريطانيا.

لقد قسمت المادة فى هذا الكتاب إلى ثلاثة اجزاء، يمثل الجزء الأول (الذي غطى الأنثروبولوجيا النظرية في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين) عصر الأنثروبولوجيا المقارنة، التي اعتمدت على تقارير الباحثين حول الشعوب الأخرى، واهتمت في المحل الأول بالتأملات النظرية فى مسألة الأصول، وهو عصر لم تحظ فيه اللغة– كما سيتضح فيما بعد– بأي اهتمام، بحيث لم يضف أحد في نهايته أية إضافات على تلك الأفكار الضئيلة الضحلة التي ظهرت في بدايته، ولهذا السبب لم تُصنف المادة التي ظهرت في هذا الجزء من الكتاب وفقًا لتواريخ ظهورها، وإنَّما صنفتها فى ضوء الموضوعات التى دارت حولها (وهو نهج أتبعته في الجزء الثالث من الكتاب كذلك)، ولقد أضفت في نهاية الجزء الأول قسمًا بعنوان: عصر التحول، أو الانتقال، فقد حدث تحول أنثروبولوجي محض مع ظهور الأعمال الأولى للباحثين الأنثروبولوجيين ممّنْ اعتمدوا على خبراتهم الشخصية في كتابة التقارير الإثنوجرافية، وإعلان **بداية عصر الباحث الميداني**، ولئن كان هذا التحول نتاجًا للنشاطات التنصيرية والإدارية، ظهرت– آنذاك– الإرهاصات الأولية التي تبشر بإمكانية حدوث تغير ما في المواقف اللغوية داخل الأنثروبولوجيا الاجتماعية البريطانية، لولا أن اصطدمت الجهود اللغوية المتأهبة، آنذاك، بالتطورات الأنثروبولوجية التالية. لقد سبق وأن نشرت نسخة موجزة من هذا الجزء في كتاب **أردنر** E.Ardener : الأنثروبولوجيا الاجتماعية واللغة (1971)، ونظرًا لأن هذا الجزء يمثل جزءًا أساسيًا من دراستي الحالية فقد ضمنتها نسخة مطولة له، وانتهز هذه الفرصة لأتقدم بشكري العميق إلى جمعية الأنثروبولوجيين الاجتماعيين ***SAS*** ، وإلى دار تافيستوك ***Tavistock*** للنشر لسماحها لي بذلك.

أما الجزء الثاني من هذا الكتاب فقد خُصص بكامله للنظريات اللغوية عند **مالينوفسكى**، لأنه يُعَدُّ- عن حق- من أهم الرموز الفكرية في الأنثروبولوجيا الاجتماعية فى القرن العشرين، فهو يُعَدُّ- بتعبير **كازاجراند**- العالم الأنثروبولوجي الوحيد الذي أبدى اهتمامًا متعاظمًا باللغة، وقد أردفت تحليلي التفصيلي لكتاباته اللغوية الرئيسية بمعالجة وافية للعلاقة الوثيقة التي ربطت بينه وبين **جون روبرت فيرث**، ولكيفية استخدام **فيرث** وبقية علماء مدرسة لندن لعلم اللغة لأفكاره، وقد اختتمتُّا هذا الجزء بتقديم نقد- من وجهة نظرنا الأنثروبولوجية- للمعالجة اللغوية التي قدمها **لانجندون** D.T.Langendoen لهذا الموضوع .

أما الجزء الثالث من هذا الكتاب فقد ركز على المكانة التى شغلتها اللغة في أعمال معاصري **مالينوفسكي** ومْنّ بعدهم، والتأثيرات التي مارستها أفكاره اللغوية على المدرسة الوظيفية، ثم مناقشة وجهات النظر التى قدمها العلامة الأنثروبولوجي الرئيسي الثاني "**راد كليف براون**" فيما يتعلق بوضع اللغة وعلم اللغة داخل الأنثروبولوجيا الاجتماعية. وعلى حين أشرت في هذا الجزء إلى عدم اهتمام الأنثروبولوجيين في هذا العصر باللغة، أو بعلم اللغة، رصدت بعض الاستثناءات، أو بعض الأمثلة، التي تمثل الإرهاصات الأولي لحدوث التغير في هذا المجال أيضًا.

أما الخلاصة فقد تناولنا فيها باختصار التطورات المناظرة التي حدثت في أمريكا وفرنسا، مع الإشارة للتواريخ المعاصرة لتلك التطورات في بريطانيا، وفي ضوء ذلك، أوردنا بعض الاستنتاجات حول التأثيرات التي مارستها التقاليد البريطانية على الأنثروبولوجيا الاجتماعية المعاصرة لتلك التواريخ في بريطانيا.

هيلاري هنسون

الجـــزء الأول
الأنثروبولوجيون الأوائل

– اللغة والسلالة:

لقد كان للاستفسارات الخاصة بالتوزيعات السلالية وتبايناتها الإقليمية، ذات يوم، التأثير الأكبر على الأنثروبولوجيين الأوائل، الذين احتكموا في معالجتهم للموضوع، آنذاك، إلى الحلول اللغوية، ونتيجة لعدم اهتمامهم بالتوزيعات السلالية المعاصرة لهم قدر اهتمامهم بالتأريخ لها فقد افترضوا وجود تطابق دقيق بين التوزيعات اللغوية الإقليمية والعلاقات المتبادلة بينها، والتوزيعات السلالية الإقليمية والعلاقات المتبادلة بينها، وهكذا استخدم الأنثروبولوجيون الأوائل التوزيعات اللغوية بوصفها أحد البراهين اليقينية لإثبات التوزيعات السلالية التاريخية على الكرة الأرضية، ومن هنا عكفوا على أعمال علماء اللغة المقارنين، الذين قدموا المثال لهم لإعادة تركيب التاريخ، وذلك حين أعلنوا أنهم تتبعوا منشأ عناصر إحدى اللغات الحقيقية، التي كان يتحدثها ذات يوم أحد الشعوب التاريخية، ممّنْ تفرقت سلالته في وقتنا الحاضر في سائر أنحاء أوروبا وأسيا، ولذلك كتب **ماكس موللر** قائلًا: **"من الصعب أن يقوم المرء بفحص الشواهد الباقية حتى الآن دون أن ينتابه إحساس بأنها تمثل بالفعل كلمات إحدى اللغات الحقيقية التي نطقت بها ذات يوم إحدى السلالات المتوحدة، وفي عصر لم يفلح المؤرخون في فهمه إلّا حديثًا"**. **(Müller,M.,1856:351)** ولقد سلَّم الأنثروبولوجيون الأوائل بادعاء علماء اللغة بأن موضوع دراستهم موضوع تاريخي في الأساس، وأن من الممكن استخدام الأشكال السابقة المفترضة للغة الهندوأوروبية في التوصل إلى ماضي الإنسان، وهو نهج علق عليه **ماكس موللر** بقوله: **"هذا المنهج يتعلق بإجبار اللغة ذاتها علي قص تاريخ العصور القديمة"(Ibid.,:320)** ، هذا علاوة علي أن كثيرين منهم قد قبلوا الافتراض الضمني الذي أقر بإمكانية معادلة اللغة بالسلالة، ولذلك تطلع **جون كيندي** J.Kennedy إلى إثبات أن الهنود الأمريكيين لم يكونوا نتاجًا لإحدى عمليات الخلق المستقل، وإنَّما كانوا مهاجرين من قارات آخري، وقد عقد مماثلة غامضة بين أربعة عشر كلمة كاريبية Carib وبعض المرادفات الأفريقية لكي يثبت أن الكاريبيين قد جاءوا على أقل تقدير من أفريقيا**(Kennedy,J.,1956)**.

أما **هايد كلارك** H.Clarke فقد كان أكثر طموحًا في استخدامه لعلم اللغة المقارن، ولقد صنف لغات العالم في ضوء بعض السمات التي زعم أنه قد اكتشفها فيها، وقام بعزوها إلى

السلالات التي حددها في ضوء معيار تقدم الحضارة، ولقد أدمج فيها النماذج السلالية الممثلة لكل مجموعة من مجموعاتها اللغوية في كل قارة من قارات العالم، ولقد خلص إلي الربط بين لغات البوشمان Bushmen (الأفريقيين) ولغات الإسكيمو (الأمريكيين الشماليين) تحت عنوان اللغات القزمية القطبية Polar-Pygmean، وبناء على هذا التلفيق الغريب وضع جدولًا زمنيًا مفترضًا للاستعمار العالمي **(Clarke,H.,1874)** ، والمهم أنه أثناء المناقشة التي أعقبت نشر **كلارك** للبحث أبدى الدكتور **ليتنر** Leitner حماسًا بالغًا للخيال الواسع البناء الذي تجلي في تطبيق تقنيات علم اللغة المقارن، وصب جام احتقاره على كل مْنّ حاولوا تقييد الصلة الوثيقة بين نموذج علم اللغة المقارن والإثنولوجيا: **"لقد استحقت أبحاث الدكتور هايد كلارك كل تشجيع، لأنها حرصت على البحث عن الأسباب الحقيقة، ولأنها تمثل احتجاجًا على الإرهاب الأدبي الذي مارسه عدد من علماء السنسكريتية، الذين قصروا نشاطهم داخل بعض الجمعيات والدوريات الرئيسية التي كنا نعتقد أنها مخصصة للأبحاث النزيهة، وذلك لأن جمع المادة التاريخية أو الإثنولوجية كان دائمًا أمرًا أكثر أهمية من الحرص على الاحتفاظ بهذه النظرية الفيلولوجية أو تلك، ونحن لا نزال في مستهل علم اللغة"(Leitner,1874:212)**.

علاوة على ذلك، فقد اعترف بعض الأنثروبولوجيين بأن استخدامهم للبرهان اللغوي كان محاولة منهم لاستثمار الاحترام البالغ الذي قوبل به نجاح علماء اللغة في كشف النقاب عن التاريخ اللغوي، بهدف تزويد الأنثروبولوجيا اللاتاريخية، آنذاك، بأحد التواريخ المستقلة، ولقد أشار **تايلور** Tylor (1881) إلى زيف معادلة اللغة– السلالة، وذهب إلى وجود كثير من السلالات التي تشترك في لغة واحدة، وإلى جنوح بعض السلالات لاستبدال لغتها بغيرها. ولقد قدم القس **سايس** A.H.Sayce في أحد اجتماعات المعهد الأنثروبولوجي الملكي (1882) ردًا على **كلارك** قال فيه: **"علي حين يتضمن المجتمع لغة لا تتضمن السلالة أية لغة"(Sayce,1875:213)** ، ولقد كان للآراء المعتدلة التي قدمها **سايس** في هذا الاجتماع صداها عند عالم اللغة الأمريكي **ويتني** W.D.Whitney الذي كان حاضرًا للاجتماع نفسه، وعلق على تلك الآراء في الجلسة التالية من المناقشات بقوله: **"يتعلم المرء لغته ولا يخلقها، فاللغة نظام قائم بالفعل، إنَّها جزء من الثقافة التي يكتسبها الشعب الذي تُنسب إليه، وهي موروث قابل للانتقال عبر الأجيال**

مثله كأي جزء آخر من الثقافة" (Whitney,1875:216-17) ، أما الأستاذ **بوفاري بوسي** Pouverie Pussey فقد صدح بإعجابه برجاحة عقل العالمين الفيلولوجيين **سايس وويتني**، وذكر أن مدخليهما يمثل فجرًا جديدًا للأنثروبولوجيا بعد انقضاء ليلها الطويل: **"آمل ألَّا أسمع في المستقبل أحد الفيلولوجيين البارزين وهو يجزم بانحدار مستوطني الهند ذي البشرة السوداء، وأهالي أوروبا ذي الشعر الأشقر من سلالة واحدة، أو أسمع أحد الأنثروبولوجيين وهو يستفسر بطريقة تثير الحنق عن الشكل السلتي Celtic للجمجمة، أو عن النمط الآرى Aryan لشعر الرأس، وإلَّا جاز لنا أن نتحدث بالطريقة نفسها عن الجمجمة الإسلامية، وعن الشعر المسيحي"(Pusey,1875:219-20)**.

ومع ذلك، فبالرغم من وجود المناقشات التي تعارض معادلة اللغة– السلالة، استمر عدد من الأنثروبولوجيين في تأكيد الارتباط الصريح بين الصفات المميزة للغة وعقلية السلالة التي أبدعتها، وقد دافع **جوستاف أوبرت** G.Oppert أستاذ السنسكريتية عن هذه النظرية في مجلة المعهد الأنثروبولوجي الملكي في أواخر عام 1883 بقوله: "**من الواضح أن اللغة تحتفظ بتركيبها الفريد بطبيعتها، وأنها تشير– وإن لم تتطابق دائمًا مع الأمة، أو الشخص الذين يتحدثان بها– إلى سلالة المتحدثين بها أول الأمر، ومن ثم فإنَّها تستبقي دائمًا نموذج التفكير الذي كان سائدًا بين من نشأت بينهم في البداية بوصفها وسيلة طبيعية للاتصال، هذا مع أن السلالة نفسها قد لا يكون لها وجود ألبتة"(Oppert,1883:33)**.

وفي الواقع، لقد كان **أوبرت** هو عالم السنسكريتية الوحيد الذي تعهد مثل تلك المناقشات بحيوية بالغة، أما **جون كراوفورد** J.Carwfurd فقد انتقد **ماكس موللر** بسبب فكرته القائلة بإنَّ الهندو–أوروبية هي اللغة التي كانت تتحدث بها السلالة الآرية: **"تلك النظرية التي قدمها في شكلها الناضج المستشرق ماكس موللر(Müller,1861:268)**، ودون شك لقد كان **موللر** هو مْنّ قدم– وبالأخص في كتاباته الأولى– الأسس التي أدت إلى افتراض إمكانية استخدام اللغة الآرية في اكتشاف السلالة الآرية وطريقتها في الحياة: **"لننظر إذن فى الأدلة التي لا تزال تمدنا بها لغات الأمم الآرية، وسوف ندرك علي الفور أن حياة تلك الأمم لم تكن قبل**

انفصالها عن بعضها البعض سوي حياة البدو المزارعين، لقد كانت حياتها أشبه ما تكون بحياة الجيرمانيين القدماء كما وصفها المؤرخ الروماني تاسيتوس Tacitus"(Ibid.,:355) .

لقد أثبت **كراوفورد** أن اللغة ليست **مقياس معصوم للسلالة (Crawfurd,1861:271)**، ولقد شكك في وجود اللغات الآرية المشتركة، وذلك لضآلة عدد الكلمات التي يمكن أن نثبت عن طريقها ارتباطها معًا، وإمكانية تفسيرها بوصفها كلمات دخيلة، وفي الواقع لقد كان اعتراض **كراوفورد** على نظرية **موللر** أشبه بالاعتراض على أية نظرية تسلم بوجود أصول مشتركة بين الهنود والأوروبيين: "**لا يوجد أساس لتلك النظرية التي تؤكد انبثاق لغات أوروبا وأسيا– من البنغال حتى الجزر البريطانية– عن الأصل ذاته، لأنها تجعل من الشعوب التي تتحدث بها– الشعوب السوداء، وذو البشرة الداكنة، وذو الشعر الأشقر– شعبًا واحدًا، وسلالة واحدة، فتلك النظرية هي أحد أحلام رجال العلم، وربما كانت أحد أحلام أكثرهم خيالًا" (Ibid.,:285-6)** .

وبالرغم من هجوم **موللر** في كتاباته المتأخرة على معادلة اللغة والسلالة، وانتقاده العنيف لاستنتاج التصنيفات السلالية من المادة اللغوية المحضة، فقد كان لديه الاستعداد لأن يستنتج بنفسه بعض الأنماط الثقافية من الشواهد اللغوية، وقد تذكر في عام 1872 الاختلاف الواضح بين تقانات علم اللغة والأنثروبولوجيا فقال: "**من السهل أن ينسي المرء أن اللغة وحدها تمثل أساس التصنيف عند الحديث عن العائلات الآرية أو السامية، قد توجد بالفعل لغات آرية وسامية إلَّا أن الحديث دون كفاءة عن السلالة الآرية، أو عن الدم الآري، أو عن الجماجم الآرية، ثم الشروع فى التصنيف الإثنولوجي لها علي الأسس اللغوية لهو عمل يتم ضد كل قواعد المنطق، ولئن كان من الضروري عدم بقاء هذين العلمين متباعدين طويلًا، يمكن تجنب كثير من سوءات الفهم أو التناقضات لو كف العلماء عن تطبيق الاستنتاجات اللغوية على الدم، أو تطبيق استنتاجات الدم على اللغة، ذلك أنه حين ينجح كل علم منهما على نحو مستقل فى التوصل إلى تصنيف للبشر، أو للغات على حده، سوف يحين الوقت، عندئذ، للبدء فى مقارنة نتائجهما معًا" (Müller,1872:174-251)**.

لقد تبدت وجهة نظر أواخر القرن التاسع عشر في فرضية حصرت مهمة علم اللغة والأنثروبولوجيا فى التصنيف وفقًا للمبادئ التطورية، ومن الواضح أنها لم تتسق مع الاتجاه العام عند **موللر** فيما يتعلق بطبيعة العلاقة بين اللغة والسلالة، ولقد عارض منذ أعماله الأولى- كما أشار **مالكوك كريك** M.Crick- إمكانية وجود أي تماثل بين اللغة والسلالة: **"سوف يظهر تصنيف اللغات بتلك الطريقة- بصرف النظر عن الخصائص الفسيولوجية للسلالات التي تتحدث بها- للعالم الإثنولوجي بوصفه تصنيفًا خياليًا مفترضًا، هذا وأن قدم هذا التصنيف- حسب اعتقادي- الأمل الوحيد الذي يقضي علي كافة المزاعم المتضاربة لكل من الإثنولوجيا والفونولوجيا، فقد يؤرخ لـ"السلالة" ابتداء من أحد العصور اللاتاريخية السابقة على أي تقسيم لـ"اللغة"، وقد لا نشعر بتأثيرات السلالة إلَّا بعد أن أدي اختلاط الكلام إلى تشتت الجنس البشري بفترة طويلة، وفى الحالتين كلتيهما لا يمكن أن نتوقع أن يتطابق تصنيف اللغة مع تصنيف تنوع الإنسان"(Müller,1854)**.

وبالرغم مما أورده **كريك** استمر **موللر** في المقال نفسه في إعادة بناء مهاجري القبائل الطورانية Turanian والحديث عن المستعمرات التاميلية Tamilic والفنلندية Finnic ، إلَّا أنه- والحق يقال- لم يتجاوز الكتاب الآخرين في تناوله للموضوع[1] .

- فكرة اللغة البدائية:

لقد أدت النظرية القائلة بالارتباط بين اللغة والقدرة العقلية للسلالة إلى افتراض يقرر أن اللغة محددة بيولوجيا، وهو افتراض اتسق مع الاتجاه التطوري العام الذي ميز الأنثروبولوجيا في القرن التاسع عشر، التي اعتمدت بذاتها على المماثلة البيولوجية، ولقد عادل الاتجاه التطوري السائد آنذاك بين بدائية السلالة وبدائية اللغة وعدم تطورها، ولقد نصح **تايلور** بضرورة التعرف على لغات الأمم المتوحشة ruder التي تثبت نظم الحكم والعقد فيها المراحل المبكرة، أو البسيطة للتطور**(Tylor,E.B.1881:147)**، ومن ثم اهتم الأنثروبولوجيون (الذين استعانوا بالمادة اللغوية المقارنة)

---

(1) فيما يتعلق بالمدخل الحديث للمشكلات ذاتها انظر: **(E.Ardener, 1972:25-47)**

بتصنيف مراحل التطور في ضوء التماثلات البنائية العامة للغات، مفترضين إمكانية تصنيف الثقافات بالطريقة نفسها في مراحل تطورية، ويمكن العثور على أحد الأمثلة لهذا الاتجاه التطوري في مجلة المعهد الأنثروبولوجي الملكي في وقت متأخر نسبيا: **"مقارنة بأية لغة آرية تعد لغة التاجالو Tagalo لغة ناقصة الخصال مقارنة بتلك الخصال التي جعلت من اللغات الأوروبية أداة لنقل الحضارة"(Mackinlay,1901:214)**.

ومن بين الخصال التي استشهد الكاتب بها كان وجود صيغ التذكير والتأنيث gender في اللغات الآرية، إذ شاع المدخل العرقي بين الغالبية العظمى من أنثروبولوجي هذا العصر، الذين رفضوا الاعتراف بعدم وجود ما يسمى باللغات "البدائية"، واهتموا بالحكم على اللغات غير الهندو– أوروبية بحسب طبيعة اختلافها عن اللغات الأوروبية.

لقد اشتملت مناقشات اللغات البدائية في هذا العصر على افتراضين شائعين، عبرا كلاهما عن عدم كفاءتها، أو ملاءمتها، الافتراض الأول: فقد تمثل في تسليم الأنثروبولوجيين بعجز تلك اللغات، وعدم قدرة المتحدثين بها على إنجاز شيء يتجاوز أدنى الصور الشائعة حول عملية التعميم أو التجريد: **"سيكون لدى المتوحشين عشرين كلمة مفردة، وستقوم كل كلمة منها بالتعبير عن القيام بقطع أحد الأشياء، إلَّا أنه لن يكون لديهم كلمة مفردة مع ذلك للتعبير عن فعل القطع بشكل عام، وبالمثل سيكون لديهم كثير من المفردات لوصف الطيور، أو الأسماك، أو الأشجار بمختلف أنواعها، دون أن يكون لديهم في الوقت نفسه مرادفات عامة تشير إلى مصطلحات "طائر"، أو "سمكة"، أو" شجرة""(1)** .

وأما الإفتراض الثاني فقد تمثل– على العكس من الأول– في تسليم الأنثروبولوجيين بعجز اللغات البدائية عن التحديد والقياس، وهذا بسبب تواضع معاجم مفرداتها، وخشونة طرق

---

(1) لقد تتبع هيل A.A.Hill التاريخ الأدبي لإحدى الأساطير المشابهة بين الشيروكي Cherokee (إحدى القبائل الهندو أمريكية التي عرفت نوعا من الكتابة)، وقد أشار هيل إلى معرفة أهالي هذه القبيلة أربعة عشر كلمة تشير جميعها إلى الاغتسال، ليس من بينها مصطلحًا عامًا له، وقد حلل هذه الكلمات الأربعة عشر– التي اقتبست للمرة الأولى عام 1823 – ولقد اكتشف أنها اشتقت بالكامل من مقطعين متميزين. يمكن الرجوع للمناقشة العامة لهذه القضية وغيرها إلى ليفي شتراوس : العقل الوحشي (1962)، وبخاصة الفصل الأول. (Payne, 1899: 103)

النطق بها، وعدم وضوحه، إذ "**يؤلف مجتمع توجو Togo (وهو أحد المجتمعات التي تقطن جزر الأرخبيل) باستخدام الأصوات شبه الدالة، الانطباعات غير التامة نوعًا ما**" **(Marett,:139)**، والملاحظ هنا أن المثال الذي قدمه **ماريت** R.R.Marett حول بدائية اللغة قد أخذه من المجتمع ذاته الذي سبق وأن دفع **داروين** Darwin للتفكير في أصول الإنسان. أما فكرة "التعبير عن مركب الأفكار بكلمة مفردة Holophrase" (وهو الموضوع الذي سنناقشه في القسم التالي) فإنَّها تعد أحد الأمثلة الإضافية لافتراض أنثروبولوجي العصر غياب ملكة التمييز والمفاضلة بين الأشياء لدى البدائيين، وهو افتراض أطل برأسه على مناقشاتهم للمعتقدات البدائية طوال العصر الفيكتوري كله، ولقد زعم **فريزر**– على سبيل المثال– أن البدائيين عاجزون عن التمييز بين مفهوم الـ"طبيعي" ومفهوم "ما فوق الطبيعي"، وزعم أثناء مناقشة لمفهوم الـ"تابو Taboo" عدم قدرتهم على التمييز بين الـ"مقدس Sacred" والـ"مدنس Unclean".

أما الاعتقاد الآخر الذي شاع بين أنثروبولوجي القرن التاسع عشر حول اللغات البدائية فقد ارتبط بتغيرها السريع: "**وقد يقتنع الشخص المهتم بكيفية تدفق كلمات الإنجليزية أثناء الكلام بأن لغته الخاصة تخضع للتغيرات السريعة ذاتها التي تخضع اللغات البربرية لها، على حين أن الأمر ليس كذلك لمدرس اللغة وللطّباع اللذين يصران على ثبات كلمات لغتنا وانعزالها**"**(Tylor,1881:142)**، ولا يزال الشخص العادي غير المتخصص يعتنق إحدى الأفكار المماثلة لفكرتيهما فيما يتعلق بالصواب اللغوي، وهو أمر لا يمكن التوصل إليه إلَّا من خلال بذل الجهد الواعي في تدريس اللغة. أما **بينيه** E-J.Payne– الذي وصف معجم البدائيين المتغير بأنه مخادع ومتقلب كالحلم– فقد قدَّم لإثبات هذا الاعتقاد نسختين مترجمتين لأحد الكتب الدينية المسيحية Catechism، سبق ترجمته إلى لغة الموسيتانا Mosetena (وهي لغة أحد الشعوب الأرمينية التي تعيش شرقي بوليفيا) بتكليف من كلية التنصير الكاثوليكي، أُرخت النسخة الأولي بعام 1834، وأُرخت النسخة الثانية بعد ذلك بثلاثين عام، أي بعام 1864، وبالرغم من الفارق الكبير الموجود في أشكال الكلمات التي ظهرت في الترجمتين، فقد سلَّم بأن: "**الفترة المقررة للحياة القياسية لأية لغة بدائية متواضعة تتراوح فيما بين عشرين وأربعين عام**"

(Payne,1899:91-91) ، ولم يخطر على باله قط أن هذا **الفارق** هو مجرد تمثيل **لأخطاء** الكتابات الصوتية التي قام النسّاخ غير المدربين بها.

إنَّ مراجعة مناقشات اللغات غير الكتابية التي كانت في متناول الأنثروبولوجيين في سبعينيات القرن التاسع عشر تسهل علينا- دون شك- فهم سبب اعتقادهم في وجود اللغات البدائية، هذا بالرغم من عدم توافر المصادر التي أثرت البحث الأنثروبولوجي في تلك الفترة، باستثناء ما كان يتعلق بالوصف الإثنوجرافي الذي كان في متناول ملاحظات الرحالة غير المدربين، وعلى حين كان بإمكان تسجيل اللغات الغريبة وحده تجنب اتهام الأنثروبولوجيين بالنزعة العرقية، على فرض أنه سيدفعهم إلى تطوير التقنيات اللازمة لهذا التسجيل، إلَّا أن الأمر لم يتم أثناء العصر الخاضع للبحث قط.

لقد استعان مسجلوا اللغات الشفاهية في تسجيلها بالكتابة الصوتية Phonetic Notation المستخدمة في تسجيل اللغات الأوروبية التى يعرفونها، وهذا ما يفسر الحكايات المتتالية التي سردها هؤلاء حول تذبذب طرائق نطقها وعدم تحديدها. إذ لم تكن اللغة الشفاهية الخاضعة للوصف تتماثل في نسقها الفونيمي Phonemic مع نظيرة الخاص بلغة الباحث الأوروبية، وإليك مثالًا يوضح ذلك: لقد كتب المبشر الإسكوتلندي **هوجا جولدى** Hugh Goldie عن لغة الإفك Efik (وهي لغة إحدى القبائل الزنجية التي تقطن جنوب شرقي نيجيريا) ما يلي : "**كثيرًا ما يبدل متحدثوا هذه اللغة بين الصوتين B و P أو بالأحرى كثيرًا ما يحل صوت R محل الصوت D، أو بالأحرى كثيرًا ما يُعطى لصوت D صوتًا قريبًا من صوت R ، وقد يبدل بهذا الصوت الصوت F نتيجة طريقة التلفظ الناقص أحيانًا" (Goldie, H., 1868)**، وهكذا طبق مسجلوا اللغات الشفاهية بغير تردد المقولات النحوية الخاصة باللغات الأوروبية الرئيسية على مادتهم اللغوية، مفسرين عدم التطابق الجزئي بينهما بعجز اللغات البدائية، وقد انحصرت معالجاتهم لتلك اللغات في وضع قوائم المفردات التي انتزعوها من أفواه الرواة أثناء الجلسات التى كانت تعقد معهم لتحديد الأسماء، أو الاستفسار عنها، وفي تقديم بعض القواعد النحوية الموجزة المؤلفة وفقًا للمقولات التقليدية للغتين اللاتينية واليونانية، والتعقيب على التراكيب الغريبة منها، وعلى أية حال، تذخر المجلدات الأولى من "مجلة المعهد الأنثروبولوجي الملكي" بكثير

من هذه الأدبيات[1]. أما الأنثروبولوجيون أنفسهم فلم يطوروا أية تقنيات مناسبة لوصف تلك اللغات الشفاهية بمصطلحاتهم الأنثروبولوجية الخاصة- قط.

سوف أختتم عرض هذا الموضوع بعرض التأويل الجديد الذي وضعه **تايلور** لفكرة اللغة البدائية، فعلى حين اتفق مع معاصريه على تواضع لغات المجتمعات المتوحشة، أكد- خلافًا لهم- على ضآلة الفارق بين لغة الرجل المتوحش ولغته هو، وعلى أن معظم هذا الفارق الضئيل يعود إلى عدم اتاحة الفرصة لهذه المجتمعات لكسب الحضارة الحديثة: "**تتمثل اللغة بين القبائل البدائية بوصفها فنًا يمارس فى نشاطه الكامل، فهي تقدم بالفعل تكيفات الحياة الصوتية البسيطة التى تعبر عن الذات، وتكيفات الاستعارة الصوتية التى تعبر عن الأفكار التي تحتاج العقول الهمجية للتعبير عنها، وحين نأخذ بعين الاعتبار مدي اعتماد تطور المعرفة على دقة التقانات المعبرة عن الفكر وثرائها، فإنَّ أحد الاعتبارات الخصبة في هذا المضمار هو أن لغة المتمدينين- خلافًا للغة المتوحشين- تحسنت فى البُنية، وعززت من معجم مفرداتها، ودققت فى تعريفها القاموسي للكلمات، ولقد تطورت اللغة بين مرحلتيها الهمجية والمدنية فى التفصيلات، ونادرًا ما تم هذا التطور فى المبادئ. أليس من البراعة أن تقول: إنَّ "نصف" الخلل فى اللغة يرجع إلى كونها منهج للتعبير عن الفكر، أما "النصف" الآخر فيرجع إلى كون الفكر قد تحدد مقدمًا بأثر اللغة، إن الكلام (البدائي) ما هو إلَّا مخطط عقلي وجد نتيجة التطبيق الفوري للاستعارة المادية والقياس التمثيلي الناقص، وتلك تقنيات تلائم التربية البربرية، والتعبير عن فكر هؤلاء الذين التزموا بها، وليس التعبير عن فكرنا نحن"** **(Tylor,1871:425)**.

---

[1] حول اللغات الإسترالية وحدها هناك :

- G. Taplin, 1871; J. of R.A.I, 1:84-8.
- H. Barlow, 1872; J. of R.A.I., 2:166 – 75.
- A Mackenzie, 1873; J. of R.A.I., 3:247-64.

– اللغات البدائية وأصل للغة:

كان الإدعاء القائل بأن اللغات التى يتحدثها أعضاء المجتمعات البسيطة لغات بدائية وأدني تطورًا يمثل الادعاء المحوري الذي اعتمد عليه عدد من الأنثروبولوجيين في البحث عن أصل اللغة، وهو الموضوع الأثير الذي لم يشغل أحد فى هذا العصر إلَّا الأنثروبولوجيون وحدهم، وفي الواقع، لقد تناول الفلاسفة واللغويون لقرون طويلة هذا الموضوع، إلَّا أنه ارتبط على نحو مميز بأنثروبولوجيا القرن التاسع عشر، وهي الأنثروبولوجيا التى كانت تؤمن إيمانًا راسخًا بأن "**معرفة الإنسان تستوجب معرفة الحالة التي كان عليها هذا الإنسان**" **(Müller,1856:302)** ، وكما ذهب **هوراتيو هال** Horatio Hale : "**لقد اتضح للأنثروبولوجيا أن الكلام الملفوظ هو الملكة الكبرى التى تميز الإنسان مقارنة بغيره من بقية الكائنات الأرضية الأخرى، وبذلك فقد أعطت "اللغة" لنفسها الحق فى أن تدعي لنفسها دراسة أحد الأقسام المتميزة من العلم**" **(Hale,1891:413-55)**

وبالرغم من الجنسية الكندية **لهال**، فإنَّه كان على صلة بالأنثروبولوجيين البريطانيين، ولقد أسهم في مجلة المعهد الأنثربولوجي الملكي، وأهدى **تايلور** نسخة من كتاب له حول لغة الشينواك[1] Chinook Jargon (وهى النسخة التى يحتفظ بها الآن في مكتبة **تايلور** بجامعة أكسفورد)، وفي الحقيقة، فإنَّ **هال** لم يكن مهتمًا– كما أثبت في مقال له نشر عام 1886 **(Hale,1886:279-323)**– بأصل اللغة بذاته بقدر ما كان مهتما بأصل العائلات اللغوية التي لم توضح الأبحاث الفيلولوجية الدائرة، آنذاك، انحدارها من المصدر ذاته، ولقد أقام حجته لإثبات هذا الموضوع على غريزة إنتاج اللغة عند الأطفال، ودعَّمها بسرد بعض القصص حول تطوير بعض الأطفال التوائم لبعض اللغات المغايرة لما ينطق به الراشدون من حولهم[2] **(Payne,1899:89)** ، وعلى ذلك فحين هاجر الإنسان القديم في مجموعات عبر البلاد، احتفظت كل مجموعة منها–

---

[1] **الشينواك هم أحد شعوب الهنود الحمر الذين يقطنون الضفة الشمالية من نهر كولومبيا فى الشمال الغربي من الولايات المتحدة الأمريكية– المترجم.**

[2] **لقد التقط "بينيه" نظرية اللغة الخاصة بالتوائم– أيضًا، وأشار إلى حالة الإنجليزية " المعاصرة له" .**

التي لم تتعد العائلة الواحدة- بكلامها الأصلي، ولم تحد عنه، وحين مات الآباء ابتكر الأطفال الصغار- وقد تركوا بمفردهم يواجهون مصيرهم- في كل مجموعة منها إحدى اللغات الجديدة.

ولقد استخدم **هال** هذا "البرهان" في تفسير مشكلتين فيلولوجيتين، الأولى: وتتعلق بضخامة التوزيع الجغرافي لبعض العائلات اللغوية (كالعائلة الآرية على سبيل المثال)، على حين يتواجد عدد كبير من الأصول اللغوية في بعض المناطق الجغرافية المحددة (كولاية كاليفورنيا على سبيل المثال)، وقد افترض أن الظروف الجغرافية القاسية (كما نجد في أوروبا وأمريكا الشمالية) لم تكن لتمكن أية عصبة من الأطفال الأيتام من البقاء أحياء، على حين أن الظروف الجغرافية غير القاسية (كما نجد في ولايتي كاليفورنيا وأريجون) كانت تسمح ببقائهم أحياء. أما المشكلة الثانية: فتتعلق بإمكانية اشتراك اللغات ذوات الأصول المتباينة في سمات نحوية متشابهة، وقد افترض **هال** لتفسير هذا الموضوع بقاء بعض الراشدين على قيد الحياة حال ابتكار الأطفال الصغار للغاتهم الجديدة، فالراشد وإن كان بمقدوره تبني اللغة الجديدة للأطفال، إلَّا أنه كان يطبق التصريفات النحوية القديمة عند استخدامه للغة الوليدة التي كانت تفتقر إلى القواعد النحوية- عادة.

يجب التسليم بضآلة عدد الأنثروبولوجيين البريطانيين الذين أقروا تقييم **هال** لأهمية اللغة في تحديد موضوع الأنثروبولوجيا، وباستثناء هؤلاء فقد انحصر اهتمام البقية الغالبة منهم في العثور على أصل اللغة، هذا وإن اتخذ هؤلاء من اللغة الهندو- أوروبية الأصلية المفترضة لدى اللغويين المقارنين نموذجًا للغة الممعنة في القدم، فقد عُدت اللغة الهندو-أوروبية من جديد بينهم بمثابة اللغة التي تنتمي لعصر ممعن في القدم مقارنة بأي عصر انتمت إليه أية لغة تاريخية مدونة غيرها، وعلى هذا الأساس ساد اعتقاد بين الأنثروبولوجيين بإمكانية استخدام كلمات اللغة الهندو-أوروبية المبنية وفقا للمقاطع الآحادية Monosyllables (التي تُعرف بالجذور) في تدعيم إثبات تطور اللغة عن قوائم الضوضاء الحيوانية غير المتميزة، وأن تلك الجذور (آحادية المقاطع) قد تطورت ذات يوم عن الصيحات الحيوانية، وهذا في الواقع يمثل جوهر النظرية التطورية التي اقترحها **أوبرت** G.Oppert في عام 1883، التي لم يفترض فيها أي خلق مفاجئ للغة، بل افترض محل ذلك التطور التدريجي لها.

ومع ذلك، فإنَّ المثير للانتباه هو محاولة **موللر** استخدام مثل هذا البرهان (المستقى من اللغة الهندو– أوروبية) بوصفه نقيضًا لنظرية التطور عند **داروين** التي تقول بتطور الإنسان عن القردة العليا، فبالرغم من اعتراف **موللر** الصريح بالصفة التطورية للنموذج اللغوي (الهندو–أوروبي) بقوله: "**في علم اللغة كنت دارونيًا قبل دارون نفسه**" **(Müller,1873:1-24)**، فقد أدرك إدراكًا كاملًا أن اللغة الإنسانية– حتى في أشد أشكالها البدائية– تُعد حاجزًا لا يقهر بين الإنسان والحيوان، حاجز لم يكن بمقدور أية نظرية في التخلق التدريجي أن تقهره، ولقد أفاد علماء الإيثولوجيا–كما يشير **كريك** M.Crick (1972) **(Crick,,1972:1-14)**– من تحذير **موللر**، ومن الأفكار الحديثة ذات الصلة الوثيقة بهذا التحذير– ولقد صادفت قبولًا عريضًا بين علماء اللغة والأنثروبولوجيا– ثمة فكرة **ناعوم تشومسكي** N.Chomsky الخاصة بالمقدرة اللغوية الفطرية الفريدة للإنسان، ومع ذلك فإنَّ الأسلوب العملي الذي شرع به **موللر** في ذلك الحين لتهديد الدارونية، وتقويضها كان مثيرًا للغاية، وبرهان راسخ على أهمية البناءات الثقافية لـ"المعنى" :

"**إنَّ "الاعتراف" بالتدرج الجامد بين الإنسان والقرد لم يتجاهل الاختلاف القائم بينهما فقط، وإنَّما تجاهل في الوقت نفسه الاختلاف بين الأسود والأبيض، وبين الساخن والبارد، وبين النغمة الموسيقية العليا والمنخفضة، وفي الحقيقة، لقد انصرف هذا "الاعتراف" عن إمكانية تقديم المعرفة الدقيقة والمضبوطة حين أزال خطوط الطبيعة وقوانينها الرائعة التي تبدل حالة الهيولة Chaos إلى هذا النظام الكوني المتناغم، واللامحدود إلى المحدود، وتمكنا في الوقت ذاته من أن نحسب، وأن نقرر، وأن نعرف**" **(Müller,1873:65)**

ولقد تساءل **ويتني** أثناء مراجعته لنظريات **موللر**:" **أين يقع ذلك الخط الذي يفصل بين النغمة الموسيقية العليا والمنخفضة في الطبيعية، إنَّ الخطوط الوحيدة لا توجد إلَّا في مقاييسنا الموسيقية، وهي لا تعد نتاجًا للطبيعة بقدر ما هي نتاج للفن الإنساني**" **(Whitney,1874:61-8.)**، وعلى أية حال، فقد كان اهتمام العلماء بتدقيق البُنى الثقافية الاصطناعية، والرسوم التخطيطية للثقافة هو أهم ما يميز الأنثروبولوجيا الجديدة في ذلك الحين.

علاوة على ذلك فقد استخدمت الأنثروبولوجيا الأدلة اللغوية غير الهندو- أوروبية بوصفها نموذجًا للغة القديمة أيضا. ولقد اعتقد **بينيه** مع **أوبرت** في تطور اللغة عن صيحات الحيوان، وفي ذلك يقول:"**في الواقع إذا نظرنا للغة بوصفها حقيقة مادية، وأنها تمثل أحد العناصر المهمة للتقدم الإنساني، من الواجب علينا أن نفترض خضوع اللغة في الوقت ذاته للقوانين التي تنتهجها الطبيعة بفعل الحركة المستمرة التدريجية، ومن ثم يجب أن يكون بمقدور العلم اختزال الأطوار التي مرت بها اللغة ابتداء من الصيحات الحيوانية الغشيمة من ناحية، وحتى وصولها إلى الكلام المنطقي الذي يميز الحضارة الحديثة من الناحية الأخرى**"**(Payne,1899:99)**

وفي هذا المجال، اعتقد **بينيه** في أن لغات القارة الأمريكية تعد من أشد اللغات البدائية التي يمكن أن يصادفها العلماء "بدائية"، نظرًا لاختلافها الشديد في طبيعتها عن الخصائص التي حددها اللغويون للغة الهندو-أوروبية. وقد دفعه ذلك إلي شن هجوم شرس على الشرعية التاريخية التي سلم بها العلماء للجذور الآحادية المقطع للغة الهندو-أوروبية وفي ذلك يقول: "**لقد فات على النظرية الجذرية Radicarian (التي تسلم بالنتائج النهائية للتحليل الفيلولوجي، بوصفها حقائق أولية فى ميدان نشوء اللغة) أن تلك الجذور لا تعدو بذاتها كلمات، وإنَّما هي مجرد تجريديات من ابتكار العلماء، إنَّها مجرد ألقاب، أو عناوين استخدمت لتصنيف محتويات معجم المفردات، أو أنَّها وسائل ملفقة لتصنيف العلاقات القائمة بين الكلمات ووصفها، تمامًا مثلما تعد الكلمات- من ناحية ثانية- بمثابة وسائل مصطنعة لتصنيف العلاقات القائمة بين الأشياء ووصفها**" **(Ibid.,:102- 3)**

لقد اتخذ **بينيه** من الشكل اللغوي المعروف باسم Holopharse (ومعناه التعبير عن الأفكار المركبة بإحدى الكلمات المفردة)، أو المعروف باسم Portmanteau (ومعناه الكلمة المنحوتة) علامة على بدائية اللغة، وعلى ذلك، فإنَّ اللغة التي تعبر عن الأفكار المركبة بإحدى الكلمات المفردة لم تكن تقوم بتحليل الخبرات وبنائها بالأسلوب الذي تقوم اللغات الأوروبية بتحليل الخبرات وبنائها به، وإنَّما كانت تقوم- بدلًا من ذلك- بتقديم انطباعات غشيمة عامة،

لقد كانت الانطباعات التي تقدمها اللغات التي تعبر عن الأفكار المركبة بإحدى الكلمات المفردة انطباعات أكثر دقة عن الصيحات الحيوانية التي يمكن وصفها بأنها تعبر عن الأفكار المركبة بإحدى الكلمات المفردة– كذلك، هذا مع أن التعابير الحيوانية لم تصبح بعد تعبيرات مشخصة **(Ibid.,:170)**، ولذلك كانت اللغات التي تعبر عن الأفكار المركبة بإحدى الكلمات المفردة تقف– في رأي **بينيه**– في منتصف الطريق بين الصيحات الحيوانية واللغات التحليلية، وفي ذلك يقول: "**يندمج الحال، التوقيت والمزاج العقلي لهؤلاء الأشخاص في الوقت المناسب في الكلمة المفردة التي تعبر عن الأفكار المركبة، ولذلك، كان الشكل غير المتطور للكلام الإنساني يتضمن علم تراكيب a syntax، إلَّا أنه ليس علم تراكيب الكلمات أو الأدوات اللغوية، وإنَّما هو علم تراكيب للمفاهيم، علم تراكيب أصبح– بفعل الانحلال الذي يميز التعبير عن الأفكار المركبة بإحدى الكلمات المفردة– يختص بالمقومات الجديدة التي أوجدها هذا الانحلال**" **(Ibid.,:117)**

لقد أُثيرت فكرة التعبير بالكلمة المفردة عن الأفكار المركبة نتيجة ظهور الأشكال اللغوية الهندو– أمريكية المعقدة، ونتيجة ميل العلماء لإدماج العديد من اللغات الهندوأمريكية، ولقد أشار **بواس** F.Boas عام 1911 إلى أن المسئول عن ظهور هذه الفكرة هو عدم التطابق بين النسقين الدلاليين المرتبطين باللغتين المختلفتين (أي المرتبطين بلغة المُلاحِظ ولغة المُلاحَظ) وذلك بقوله: "**لقد أصطلح على تسمية نزوع اللغات للتعبير عن الأفكار المركبة بالمصطلح المفرد بمصطلح** Holopharse**، ولكن، ونظرًا لأن كل لغة تعبر عن الأفكار المركبة بإحدى الكلمات المفردة من منظور كل لغة غيرها، من الصعب التسليم بفكرة التعبير عن الأفكار المركبة بإحدى الكلمات المفردة بوصفها إحدى الخصال الأساسية للغات البدائية**" **(Boas,F., 1911:26)**

أما **تايلور** فقد قام من جانبه بمحاولة مختلفة للعثور على أصل اللغة، إذ كان مهتمًا على نحو خاص باللغة بذاتها، ولذلك تكتشف من أعماله المنشورة وكراساته المحفوظة في متحف **بيتي ريفرز** بجامعة أكسفورد أنه كان ضليعًا في اللغات الفرنسية والألمانية والأسبانية، وأنه تعلم في شتاء عام 1860وحده مقومات اللغة السنسكريتية، وقد جمع مادة تكفي لإعداد كتاب في الفيلولوجيا

العامة، ودرس قواعد لغة جزيرة جرينلاند Greenlandish ، وحصّل بعض المعرفة حولها، وقرأ أعمال كل من **بوب** F. Popp و**بورخمان** Porschmann الخاصة بلغات الملايو البولينيزيين Plynesian – Malayo ، وحصّل بعض المعرفة الأولية حول اللغة الروسية، وأنه بدأ في صيف عام 1861 في تعلم لغة ويلز Welsh . وعلى أية حال، فقد تركز اهتمامه النظري في العثور فى هذا الموضوع (أصل اللغة) على التفسير المنطقي للعلاقة العشوائية القائمة بين الكلمة والفكرة. ولقد كتب: "**بقدر ما كان اختيار الكلمات للتعبير عن الأفكار اختيارًا عشوائيًا صرفًا دائمًا، كان اختيارًا منسجمًا فى مبادئه التي تسمح بالتبديل بين أية كلمتين مثلما نبدل بين أي رمزين جبريين تمامًا، بحيث يمكننا أن نرجُ بعنف عدد من الكلمات داخل إحدى الحقائب ثم نُعيد توزيعها عشوائيًا من جديد على الأفكار التي كانت تمثلها في البداية، فإنَّ هذه الفرضية تتعارض مع معرفتنا الخاصة بتكوين اللغة**"**(Tylor,1865:57)** وهكذا لمس **تايلور** الوتر الحساس لإحدى القضايا الجوهرية التي أثارت فيما بعد جدل مكثف في علم اللغة السوسيرى (نسبة إلى **دو سوسير**)، وسواء كانت العلاقة بين الدال Siginfiant والمدلول Signifie علاقة عشوائية، أم لم تكن، فقد كانت العلاقة اللغوية تكتسب معناها من الموضع الذي تشغله في نسق العلامات، لقد كان **تايلور** يدرك هذا الأمر إدراكًا كاملًا حين ذهب إلى: "**بإمكاننا وضع الرموز الجبرية في الشكل الذي نفضله لها، ولكننا بمجرد أن نبدأ فى استخدامها لا يمكننا تغيير قيمها– قط**"، ولقد كان هذا المثال ينطبق– فى رأيه– على حال اللغات التي كان ضليعًا فيها. وقد كتب : "**تشبه الكلمات فيشات الروليت Counters، أو الرموز الجبرية فى صلاحيتها لأن تستخدم على نحو دقيق لكى تمثل القيم التي نُسبت إليها**" **(Tylor,1865:59)** . لقد اعتقد **تايلور** في إمكانية إثبات قيام اختيار العلامات اللغوية– في إحدى الفترات التاريخية– على المنطق، وهو اعتقاد اتسق تمامًا مع اعتقاده الراسخ في قدرة الأنثروبولوجيا على وضع التفسير المنطقي للظواهر الثقافية، ولذلك كتب: "**بالرغم من المرحلة الأولية التى يمر بها علم الثقافة الآن، فقد أصبحت الشواهد قوية بدرجة تكفى لإدراج الظواهر الثقافية**

العفوية والتلقائية في نطاق العلة والمعلول اللذين تندرج في نطاقيهما حقائق علم الميكانيكا"(Tylor,1871:18)

ولم يكن الشكل البدائي للغة الذي اهتم به **تايلور** سوى لغة الإيماءات التي يستخدمها الصم والبكم، وقد سجل بنفسه اللغة الإيمائية التي تستخدم في معهد برلين للصم والبكم، وقام بمقارنتها باللغة الإيمائية المستخدمة في إنجلترا، ودرس اللغة الإيمائية المماثلة في فرنسا في كتاب **سيكارد** Sicard المعنون: "نظرية الإشارات في معهد الصم والبكم (1808)"، الذي أثرت أفكاره في **تايلور** تأثيرًا بالغًا، ولقد زعم أن الإشارات التي يستخدمها الصم والبكم من خلقهم أنفسهم، وهذا هو السبب في اختيارهم لتلك الإشارات على الدوام اختيارًا واضحًا، حيث لم تكن العلاقة بين الفكرة والإشارة المستخدمة بين الصم والبكم تتمتع- في رأيه- بالدوام فقط، وإنَّما كان من النادر إغفالها بينهم ولو طرفة عين**(Tylor,1865:16)**

لقد سلم **سيكارد** بخلو لغة الإشارة لدى الصم والبكم من النحو Grammar، ومن ثم فقد كانت لغة الصم والبكم أكثر ارتباطًا- فى رأيه- بالفكر عن الكلام المعتاد، ولقد كتب: "**كان من السهل جدًا أن نضل إذا تخيلنا أن بمقدور نظام الكلمات وحده أن يُظهر قيمتها النسبية، ولقد كنا نجهل، آنذاك، أن هذه الكلمات التعسة لا تمتلك نظامًا آخرًا للبناء سوى نظام توليد الأفكار، ونتيجة لذلك كان من المحتم أن تكون وسيلتها فى التعبير عن المعنى يخالف باستمرار معناها بالنسبة لنا نحن، وهو معنى خاضع للنظام النحوى الصرف" (Sicard,1808: xxviii)**، ولقد أدى ارتباط لغة الصم والبكم بالفكر إلى جعلها لغة أكثر طبيعية Natural مقارنة باللغة الملفوظة، وجعل من عناصرها عناصر عالمية، وهذا هو في الواقع السبب الذي دفع **تايلور** إلى دراسة لغة الإيماءات بشكل شامل، ولقد كتب: "**بالمقارنة مع الكلام والكتابة الصوتية تستحق لغة الإيماءات، والكتابة التصويرية (التي درسها أيضًا) بالرغم من ضآلة شأوهما الدراسة أيضًا، ذلك أنه بإمكاننا فهمها بالفعل مثلما نفهم ما عداها، وبدراستهما يمكن أن نحقق لأنفسنا أحد شروط العقل الإنساني التي لم تكتشف حتى الآن" (Tylor,1865:15)**

لقد أثبتت مقارنة لغة الصم والبكم ولغة الإشارة المستخدمة بين الهنود الأمريكيين وجود تشابهات لافتة للنظر بينهما، ولقد دعمت تلك التشابهات بينهما الاعتقاد في احتواء لغة الإشارة (التي نستخدمها حين نعجز عن التفاهم باستخدام اللغة المنطوقة) على عناصر الإحالة العالمية، ولقد أغري ذلك **تايلور** للشعور باقترابه من اكتشاف الملكة الأصلية الخالقة للإشارات عند الإنسان، وهى الملكة التي حدث وأنتجت اللغة المنطوقة عند الإنسان ذات يوم.

وعلى أية حال، لم يدع **تايلور** أن لغة الإيماءات قد سبقت زمنيًا الكلام الملفوظ عند الإنسان، أو أنها أدت إلى ظهوره فيما بعد، هذا بالرغم من عدم معارضته لاحتمال حدوث هذا الأمر، ولقد استقصي عددًا من التقارير الخاصة باعتماد اللغات البدائية– مقارنة بلغتنا نحن– على الإيماءات، إلَّا أنه لم يقتنع بها، ولقد سبق وقامت **مدام بفيفر** Mme Pfeiffer بإحدى الزيارات لقبائل بوري Puris البرازيلية، وزعمت أن اللغة التي تتحدث بها هذه القبائل تفتقر للكلمات التي تشير إلى "الأمس"، أو "الغد"، وكتبت أن أعضاء هذه القبائل كانوا يضطرون لاستخدام الكلمة التي تشير لـ"اليوم" للتعبير عن هاتين الفكرتين، وكانوا يشيرون للوراء للتعبير عن "الأمس"، وإلى الأمام للتعبير عن "الغد"، هذا بالرغم من وجود كلمات مماثلة لهذه الكلمات في لغات القبائل المجاورة لهذه القبائل. ولقد علق **تايلور** على ما كتبته مدام **بفيفر** بحساسية مفرطة فقال: "**من المرجح أن المتوحشين الذين زارتهم مدام بفيقر قد دفعوا جزاء حرصهم على عدم وقوع اللغة في خطأ أسوأ من استخدامهم للكلمات والإشارات بغاية جعل ما يقصدونه واضحًا بقدر الإمكان لفهمها هي**" **(Ibid.,:80)**

ويمكننا العثور عنده على أحد التفسيرات المماثلة لهذا التفسير في الوصف الذي قدمه **هال** H.Hale لرطانة الشينواك Chinook Jargon، فقد كتب "**يتصف الهنود بوجه عام– وعلى النقيض من الرأي الشائع حولهم– بالاقتصاد في إيماءاتهم، بحيث لا توجد أية لغة أخري يمكن أن تضاهي لغتهم في عدم استعانتها بهذا المصدر**"**(Hale,1890:18)** ، ومع ذلك فإنَّهم لا يتورعون حين يستخدمون الرطانة المحلية في الاتصال مع أحد الأشخاص الغرباء– ممّنْ لا يفهمون رطانتهم– عن الاستعانة بالإيماءات الحية لتكملة لسانهم، إلَّا أنه بالرغم من تلك الفطرة السليمة التي يتمتع بها البدائيون، فقد أصبح اعتمادهم على الإيماءات يمثل إحدى الأساطير الراسخة في

الأنثروبولوجيا حولهم، ولقد لاحظ **أندرو لانج** A.Lang عند مناقشته للطوطمية Totemism : "**إن الأسماء الموضوعة لنوع الطوطم ملائمة جدًا للمتوحشين الذين يعكسون معظمها فى لغتهم الأساسية**" **(Lang,A.,1883:415)** وبالفعل، من السهل- افتراضًا- أن يكون الطوطم "أرنبًا" أو "غرابًا" وليس "**لانج**" إذا كنت مجبرًا علي استخدام الإشارات العينية المجسدة له.

وترجع أهمية النظريات التى وضعها **تايلور** حول اللغات الإيمائية وعلاقتها بالكلام في إدراكه الثاقب لاعتماد كل منها على قدرات الترميز والتجريد عند الإنسان، ولنقرأ تلك الفقرة : "**من المرجح وجود تشابه بين العملية التي سبق للعقل الإنساني وإن عبر عن نفسه للمرة الأولي بالكلام، وبين العملية التي يعبر بها هذا العقل ذاته عن نفسه بالإيماءات حتى الآن**" **(Tylor,1865:76)**. لقد كان من النادر بالفعل أن يحرص أحد في هذا العصر على إثبات التشابه القائم بين بُنية اللغة وأحد الموضوعات غير الثقافية الأخرى، ومع ذلك فقد أكد **تايلور** على التماثل القائم بين اللغة الإيمائية وبين الكلام، وعلى التسليم بها بوصفها نسقًا من الإشارات العرفية أو الاصطلاحية، ومن ثم الاصطناعية [1]، ولكنه ابتعد نتيجة لتطلعه إلى إثبات العلاقة الطبيعية بين الدال والمدلول، والتفسير المنطقي لها عن الطبيعة المجردة للغة الإنسانية، وقد اقتبس كل من **سبيري** J.Sibree (1883) **(Sibree,1883:74-82)** ، و**كلارك** H.Clark (1894) **(Clarke,H.,1894:60-2)** نظرياته الخاصة بلغة الإشارات وأثنوا عليها، إلَّا أن الفكرة ذاتها لم تتطور إلى ما هو أبعد من صياغة **تايلور** لها- قط.

أما علماء الأنثروبولوجيا البريطانيون الآخرون فلم يتجرأ أي منهم على المضي قدمًا إلى ما يتجاوز محاولة العثور على الكيفية التي تخلقت بها اللغة أول الأمر، ولذلك، لا يمكن الادعاء أنهم قد قدموا أي مداخل جديدة لهذا الميدان، لقد انحصرت جهودهم فى إعادة مناقشة الافتراضات التي سادت حول هذا الموضوع لسنوات طويلة، فلقد ناقش **تايلور** على سبيل المثال النظرية القديمة القائلة بأن نشأة الأصوات الكلامية عند الإنسان كانت محاكاة لأصوات الطبيعة،

---

[1] **وكما أشار كروبر A.Kroeber في معرض مناقشته لأحد الشواهد الخاصة بلغة الإيماءات بين هنود السهول: "ومع ذلك فإنَّ ما يميز لغة الإشارات، بوصفها نسقًا فعالًا للاتصال هو عدم بقائها على مستوى الطبيعية والتلقائية والوضوح التام، وإنَّما هو اختلاق التعهدات الاصطناعية والاختيارات الاعتباطية بين التعبيرات المحتملة والمعنى".**

ولقد قدم قائمة طويلة من الكلمات التي تتفق مع عناصر مثل "pu" و "puf" و "bu" ... الخ، وهى عناصر يجمع بينها جميعًا فعل "النفخ"، أما الأمثلة التي اختيرت لإعداد هذه القوائم فقد اختيرت بعناية من لغات ليس بينها أية صلات تاريخية، ولكن هذا النمط من تشكيل الكلمة– بالرغم من شيوعه في كثير من اللغات–لم يؤد إلى تفسير إلَّا أقل القليل من المفردات التي تحتويها أية لغة، ولذلك كان استنتاج **تايلور** لنشأة اللغة يمثل إحدي الحالات بعيدة الاحتمال، ولنقرأ: "**لقد نشأت سائر لغات العالم بتقليد أصوات الطبيعة، ومع ذلك، فقد انحرفت الكلمات عن المقاصد والأغراض التي اختيرت عشوائيًا لها أول الأمر**(Tylor,1871:229) . وعلى أية حال لم يكن غريبًا في عصر اهتمت فيه الأنثروبولوجيا، بشكل رئيسي، بتركيب التعاقبات التاريخية لتطور الإنسان أن يكون لأصول اللغة مثل هذه الأهمية، ومن سخرية الأقدار أن الأبحاث الأنثروبولوجية التالية قد نظرت بعين الشك إلى الشرعية التاريخية التي أضفاها علماء الأنثروبولوجيا على النموذجين القياسيين اللذين أُستخدما في تدعيم النظريات التطورية على أوسع نطاق، وهما نموذج اللغة الهندو–أوروبية القديمة الخاص بعلماء اللغة، ونموذج اللغة البدائية المعاصرة الخاص بعلماء الأنثروبولوجيا(1)

– البُنى المعرفية واللغة:

بشكل عام لم يدرس الأنثروبولوجيون البريطانيون مشكلة العلاقة بين اللغة والفكر، هذا بالرغم من اعتماد نظرياتهم في بعض الأحيان على بعض الافتراضات الضمنية حولها، فالمعروف– على سبيل المثال– أن فكرة انعكاس السلالة في اللغة قد اعتمدت على افتراض مبدئي مؤداه أن اللغة وسيلة غير فعالة لنقل الفكر، وأن الفكر يتأثر– من الناحية الجسمانية– بالسلالة، والمعروف أيضًا أنه حين أطلق على بعض اللغات صفة "بدائية"، أو أنها "تعبر عن الأفكار المركبة بالكلمات المفردات" سادت فكرة تقول إنَّ اللغة تؤثر تأثيرًا محدودًا على الفكر، وهي فكرة تنطبق– كما هو واضح– على فرضية **ماريت** Marett القائلة بالتماثل بين سائر لغات الشعوب البدائية واللغة

---

(1) **حول "تاريخية" علم اللغة المقارن، انظر: (Ardener, E., 1974.)**

وفيما يتعلق برفض إطلاق صفة "بدائية" على اللغة بالمعنى الذي يشير لنعتها بـ"التخلف"، أو أسبقيتها من الناحية التاريخية، انظر أعمال علماء اللغة والأنثروبولوجيا الأمريكيين.

(الإنجليزية) التي يتلفظ بها، وفي ذلك يقول: **"إنَّ التفكير– كما ذهب أفلاطون– هو ذلك الحديث الصامت الدائر بين المرء ونفسه، ولذلك فإنَّ امتلاكنا (نحن الأوروبيين) لإحدى اللغات التحليلية لا يعني شيئًا سوي أننا قطعنا نصف الطريق المؤدي إلى النموذج التحليلي للذكاء، أو المؤدي إلى نموذج التفكير في ضوء المفاهيم الواضحة"(Marett,1912:151)**

ومع ذلك لم يكتشف فكرة تأثير اللغة على البُنى المعرفية سوى **ماكس موللر** M.Müller ، أعظم الكتاب في هذا العصر، وفي ذلك يقول: "بالرغم من توكيدنا على استحالة وجود الفكر مستقلًا عن اللغة، وعلى استحالة وجود اللغة دون وجود الفكر الذي تعبر عنه، فإنَّنا حريصون أشد الحرص على التمييز بين الفكر واللغة، وبين المنطق الداخلي والمنطق الخارجي، وبين الجوهر والشكل، بل إنَّنا نذهب إلي ما هو أبعد من ذلك إذ سلمنا بأن للغة تأثيرها الحتمي علي الفكر، ونحن نري في هذا التأثير، أو في انكسار أشعة اللغة على الفكر- الحل الحقيقي للغز علم الأساطير القديم" **(Müller,1871:577-623)**

وعلى حين لم يكن بمقدور اللغة أن تمثل الفكر– وفقًا لـ**موللر**– دون تشويهه، وتلك نتيجة ترتبت على الأسلوب الذي تطورت به اللغة، فقد اعتمدت روايته لكيفية تطور اللغة علي مجموعة اللغات الهندوأوروبية وأساطيرها (ولقد كان **موللر** أحد علماء السنكريتية العظماء، ولم تمتد معرفته باللغة إلى غير اللغات الهندوأوروبية على الإطلاق)، ففي عصر تطور اللغة (وهو العصر الأسطوري الشعري Mythopoetic) كانت اللغة حية، وكانت الأشياء تسمي وفقًا للصفات المنسوبة لها، ونتيجة لذلك سميت الأشياء بأكثر من صفة تنسب لها (وهكذا ظهر **الترادف** Synonyms)، واشتركت بعض الأشياء في الصفات ذاتها (وهكذا ظهر **الجناس** Homonyms)، وفي هذا العصر لم تفهم العلاقة بين الاسم والشيء، ولذلك أُثقلت الكلمات بكثير من المعاني، التي تفوق ما تحمله في وقتنا الحاضر، وفي ذلك يقول: **"أثناء العصر الأسطوري الشعري كانت الكلمات– أسماء وأفعال– في عنفوان قوتها الأصلية المبدعة، ففي هذا العصر كانت الكلمات ضخمة وغير عملية، وكانت تقوم بالتعبير عما هو أكبر مما كان عليها أن تعبر عنه– عادة، ومن هنا جاءت الغرابة التي تميز اللغة الأسطورية" (Müller,1856:369)**

ففي المرحلة المبكرة من تكوين اللغة كانت الظواهر الطبيعية تسمى بالأسماء ذاتها التي استخدمها الإنسان في تسمية أفعاله الخاصة، وهكذا أطلق علي الشمس: "المضيء"، وأطلق على القمر: "القيَّاس"، وأطلق على النهر: "الجاري" أو "الجراف"، وهو نهج أثبتته الإيتمولوجيا السنسكريتية: "**لقد قام الإنسان بتسمية الظواهر الطبيعية وفقا لما أدركه فيها من نماذج النشاط المألوف لديه، مثل الإقدام والمغامرة والغضب والتزاوج، وفي النهاية تلازمت هذه الأسماء مع بعض الأصوات اللاإرادية لديه، ثم تغيرت تدريجيًا إلى ما يعرف فى علم اللغة بمصطلح الـ"جذور roots**" **(Müller,1878:183)** ، لقد كان البشر ينظرون إلى الظواهر الطبيعية– في المرحلة المبكرة– نظرتهم للأفعال الإنسانية القوية، ومن ثم كان من المحتم عليهم أن يقوموا **بتشخيصها**، وفي الأصل لم تكن الظواهر الطبيعية– من وجهة نظرهم– ظواهر متخالفة، إلَّا أنه وكنتيجة لظهور بعض الظواهر الجديدة قام البشر بإعادة تقسيمها من جديد لتعيين المؤنث منها، هذا مع أنهم لم يقوموا بتعيين الاسم، أو الفعل اللازم neuter إلَّا بعد أن ماتت اللغة، وهكذا لم تنحصر المشكلة (عند **موللر**) فى كيفية توصل اللغة إلى التشخيص، وإنَّما انحصرت في **كيفية** نجاح اللغة **في التوصل إلى اللاتشخيص** **(Ibid.,:189)**

ومع انقضاء هذه المرحلة المبكرة (مرحلة التشخيص) ماتت اللغة، ومن ثم فقدت "وعيها الإيتمولوجي" الخاص، وتوارت الأثقال القديمة التي كانت تحملها من المعاني، وتعرضت لسوء التأويل– كذلك، وعندئذ لم يعد بإمكان البشر فهم الخواص الجوهرية للأساطير في ضوء اللغة المنطوقة **(Müller,1859:376)** ، وبمجرد أن ماتت اللغة وتحللت، بدأت الأطلال المتبقية من مرحلتها الأسطورية المبكرة في وضع العراقيل في طريق الفكر المحض، ولقد أعتقد **موللر** أن العملية الأسطورية الشعرية الفائتة تماثل نظيرتها الحاضرة في مختلف أعمال الإيتمولوجيات الشعبية الحالية، فحين لم يعد بإمكان البشر فهم سبب تسمية الظواهر الطبيعية على غرار المسند إليه الذكري والأنثوي، اضطروا لتحويلها إلى كائنات حية، وهكذا ظهرت الفنون الدرامية المختلفة التي ميزت عالم الأساطير، وهذا هو ما يفسر سبب إرجاع **موللر** أبطال الرواية التى يدرسها– بصرف النظر عن الأسطورة ذاتها– إلى الطبيعة.

لقد كان من المستحيل– وفقًا لـ**موللر**– النظر للغة بوصفها الأداة الصالحة لنقل الفكر، حيث لم يكن بمقدورها– في رأيه– التحرر من مظهرها الأسطوري الشعري إلَّا إذا تناسبت مع الفكر، وهو أمر كان من المستحيل أن يتحقق **(Müller,1871:590)**، وهكذا لم يعد ضروريًا أن يتصور الأنثروبولوجيون وجود عصر من الجنون المؤقت مر به العقل الإنساني لكي يقوموا بتفسير أساطير العالم**(Müller,1856:309)** ، لأن الأساطير ذاتها ليست سوى هذا الظل القاتم الذي تلقيه اللغة على الفكر**(Müller,1871:590)** ، ويمكن حل تلك المشكلة برمتها باللجوء إلى "**علم**" **اللغة**، وسرعان ما صادفت أفكار **موللر** (وعلى الأخص فكرته الخاصة بأن الأساطير مرض للغة) قبولًا عريضًا بين المعاصرين له، وبدأوا في تناول علم الأساطير، وقد ذكر **سايس** في كتاب له بعنوان "مقدمة لعلم اللغة– 1880" : **"يمثل علم الأساطير المقارن فرعًا من فروع الفيلولوجيا المقارنة، ولذلك لم يكن عليه قيادتها، وإنَّما التبعية لها" (Sayce,1880,Vol.2:272)**، وهو قول يعبر عن موقف ذي صلة وثيقة بموقف **موللر**، أما **ماريت** فقد اعترف صراحة بتفوق **موللر** على مُنّ سبقوه حين قال: "**سرعان ما أثارت أفكار موللر حماسًا بالغًا في البلد الذي هام به، وذلك بسبب الموضوعات التي تطرق إليها، والتي لم يسبق أن تطرق إليها أحد قبله، وعلي الأخص في الفيلولوجيا المقارنة التي ارتبطت بالمدرسة الألمانية، وعلم الأساطير المقارن الذي كان يُدرس حتى ذلك الحين بوصفه موضوعًا زائدًا على دراسة اللغة (Marett, 1963:45)**، ولقد علق **أندرو لانج** (وهو أحد نقاد **موللر** الرئيسيين) على الهيمنة المتفردة التي مارستها أفكار **موللر** بقوله: "**بشكل رئيس لقد قبل القراء في إنجلترا– حيث سادت أفكاره بوصفها قانونًا للإيمان– آراء مدرسة إيتمولوجية واحدة، وهكذا تملص القراء من مشكلة ترتيب عقولهم حين يختلف العلماء"(Lang,1884:4)**

وفي الحقيقة، لم تكن نظرية **موللر**– في رأي **لانج**– مقنعة ألبتة، إذ قامت برمتها على أدلة استمدها من اللغات الهندوأوروبية وحدها، ومن أساطير أوروبا وأسيا، ولم تكن صيغ التذكير والتأنيث Gender بذاتها– في رأيه – تمثل إحدي السمات المميزة لغالبية العائلات اللغوية، ولقد كان هناك حيز– حتى في نطاق الإيتمولوجيات الهندوأوروبية، وهي تمثل الحجر الأساسي في

نظريته بكاملها- لاستيعاب كثير من الحلول المناهضة للحلول التي قدمها، إلَّا أنه بالرغم من الانتقادات التى وجهها **لانج** إلى **موللر** فقد تميزت نظريته بدقة الفرضيات، وبفهم صحيح للطريقة التي تعمل بها اللغة، بوصفها نسقًا رمزيًا، ولقد أدرك مدى اتساع العملية التي تستحضرها الايتمولوجيات الشعبية، والتى تعيد بها باستمرار تنظيم بُناها الرمزية وفهمها، وأن تعبير الكلمات عن المعاني، بقدر يزيد عما عليها أن تعبر عنه، يرتبط باسترداد الاستعارات القديمة المبهمة حياتها من جديد، وإعادة استخدامها فى سياقات ارتبطت بمعناها الحرفي أيضًا، وهي نظرية تماثل نظرية **فيكتور تيرنر** V.Turner في تعدد معاني Polysemy الرموز الشعائرية**(Turner,1967)**، ولقد سبق لـ**موللر** أن صادق على مفهوم **ليفى شتراوس** المعروف بـ**الطلصقة** "Bricolage"، وقد استخدمه لتوضيح مدى تأثر البُنى الرمزية بحقيقة سابق استخدام عناصرها فيما مضى، وقابلية استخدامها مرة أخري فيما بعد[1]، لقد استخدم **موللر** اللغة- وخلافًا لكل جيله في بريطانيا- بوصفها أساس كل البُنى الرمزية الأخرى المهمة للأنثروبولوجيا .

والمجال الآخر الذي تم فيه تضمين اللغة في البُنى المعرفية هو مصطلحات القرابة، وهو مجال قد يتوقع المرء من أنثروبولوجي العصر أن يبحثوه، وعلى حين سبق أن كتب البريطانيون كتابين مؤثرين حول القرابة (الأول كتاب **مين** [1861]، والثانى كتاب **ماكلينان** [1865])، وقد انحصر اهتمامهما بالمتضمات القانونية والسياسية لتطور مصطلحات القرابة، ولقد كان **مورجان** Morgan (الأمريكي الجنسية) هو أول مَنْ أكدوا على أهمية دراسة مصطلحات النظم القرابية **(Morgan,1870)**، ومن الواضح أن البريطانيين لم يدركوا- فى هذا التاريخ المبكر- أهمية هذه المصطلحات، وصلتها الوثيقة بتصورات السلوك السائد بين الأقارب.

---

(1) **يمكن العثور على أحد التوازيات المهمة الأخرى بين ليفى شتراوس وموللر في ملاحظة موللر التالية: "من الواضح أن اللغات التي ليس لها آداب، أو معارف، أو أي صنف من صنوف العمل الذهني تشع بالابتهاج، حين تستخدم لغاتها إلى أقصي الحدود التى يمكن أن يصل النحو grammar إليها، وخير مثال لذلك هو اللهجات الأمريكية، وعلى أية حال، من الصعب فى الوقت الحالي تشكيل فكرة صحيحة عن ذلك الإحساس الذي ينظر به الشعب البدائي إلى لغته، سواء عدها لعبة، أو نوعًا من التسلية، أو متاهة، يفضل العقل داخلها فقدان نفسه عن العثور عليها" (Müller،1856،:483)**

وفي السنوات المتأخرة من هذا العصر أصبح المدخل الذي استخدمه **ريفرز** Rivers لتجميع أشجار النسب (الذي ابتكره في مضايق توريس Straits Torres- [1904]) المدخل القياسي الملائم لدراسة موضوعات القرابة بين الأنثروبولوجيين البريطانيين، ويتضح من توصيته المثيرة بهذا الخصوص عدم أهمية الأنساق اللغوية، سواء عنده، أو عند غيره من البريطانيين ممّنْ استعانوا بالمنهج،: **"يمكن عن طريق المنهج الجينيولوجي– دون أية معرفة باللغة، وبالاستعانة بالإخباريين وحدهم– التوصل إلى أنساق القرابة المعقدة، بقدر من الوضوح لم يسبق لمْنّ قضوا حياتهم من الأوروبيين بين الشعب أن حققوه" (Rivers,1910:10)**، ولهذا السبب استخدمه الأنثروبولوجيون الحكوميون في بداية القرن العشرين **(Thomas,1910: 141)** .

لقد استعان **ريفرز** بالمعلومات التي جمعها لأشجار النسب في تدعيم الفرضيات السابقة المتعلقة بالتأويلات الاجتماعية المتباينة لحقائق الجيل، وقد كانت مكانة "الخال" في مضايق توريس (وهي مجتمعات أبوية) تؤَّول بوصفها راسبًا لأحد الأوضاع الماضية التي كان نظام النسب فيها نظامًا أموميًا، وكان فيه أشقاء الأم، أقرب لـ"الأنا" مقارنة باقرباء الأب**(Rivers,1910:136-172)**، ولقد استخدم مصطلحات القرابة مستقلة عن السلوك (المفترض) المرتبط بها لإثبات تطور نسق القرابة في المنطقة الماليزية. لقد درس **ريفرز** نظام " النسب" لهذه المنطقة **"غير مكترث للطبيعة اللغوية لمصطلحات القرابة" (Rivers,1911:125)**، وانطلاقًا من هذا الموقف استنبط الخطة التي تطور بها نسق القرابة من المرحلة الأمومية الأقدم إلى المرحلة الأبوية المعاصرة، وقد زعم أنه اكتشف وجود نمطين متميزين لمصطلحات القرابة، الأول اشتمل على المصطلحات التي تماثلت بشكل وثيق وانتشرت في المنطقة الماليزية كلها، والثاني فهو المصطلحات التي تباينت فيما بينها (ومن ثم لم تنتشر في الإقليم كله)، ولقد أحل هذه المجموعة الثانية من المصطلحات إلى الأنساب المتبقية من إحدى المراحل التاريخية السابقة التي مرت بها المنطقة وفي ذلك يقول:

" من الحقائق السابقة نستدل على أنه خلال المراحل الأشد بدائية التي مر بها المجتمع الماليزى (والتي بين أيدينا الشواهد عليها) كان يسود فيها تشعب لغوي عظيم، ثم تحول إلى التجانس النسبي بفعل قدوم أحد الشعوب إلى هذه المنطقة، وبتأثير هذا التجانس القادم من الخارج حدث التغير الذي تتبعته (فى نظام النسب) ومن لغته أُستعيرت

مصطلحات النسب التي انتشرت في الإقليم كله، فمن خلال دراستي للأشكال الاجتماعية للنسب وللغة المحلية اهتديت إلى أن التغير الذي حدث لنسق القرابة لم يكن بذاته تطورًا تلقائيًا، وإنَّما حدث بفعل تأثير الامتزاج بين الشعوب" (Ibid.,:126)

ويقدم **ريفرز** في هذا المضمار المثال الممتاز لحرص هذا العصر علي دراسة أي نسق ثقافي بوصفه نتاجًا عرضيًا للتحورات المستقلة، ورفضه– في الوقت نفسه– معالجة الأنساق الثقافية بوصفها كلا مترابطًا ومحددًا ذاتيًا.

وعلى حين كان الأنثروبولوجيون البريطانيون على دراية، آنذاك، بالأبحاث الدائرة في القارة الأمريكية، وهي أبحاث كانت أحرص على دراسة مصطلحات القرابة، بوصفها أنساقًا لغوية كلية مكتفية بذاتها ومستقلة، فقد افترضوا أن المصطلحات التقنية، ليست إلَّا طرق مختلفة لتسمية الأنساب الفيزيائية الفعلية، وبإمكاننا العثور– عند **توماس** Thomas– على أحد الأمثلة القياسية التي تبين مدى وعيهم في هذا المجال: "**ثمة نسقان لتسمية القرابة، يقومان كلاهما بتحديد معاني الأنساب التي يمكن تتبعها في أشجار النسب، الأول هو: النسق الوصفي المستخدم– بشكل رئيس– بين السلالات البيضاء، والثاني: النسق التصنيفي الذي يقتصر استخدامه بين السلالات الملونة من البشر**".**(Thomas,1911:112)**

ويمكن اكتشاف مدى تباعد العلماء البريطانيين والأمريكيين في هذا الميدان عند مقارنة الفقرة السابقة، والمقطع المثير الذي كتبه **كروبر** في مقال نشر في مجلة معهد الأنثربولوجيا الملكي، وهي مجلة الأنثروبولوجيين البريطانيين أنفسهم: "**منذ القدم لم تكن الشعوب البدائية وحدها هي الشعوب الوحيدة التي تقوم بتصنيف الأنساب، أو لا تقوم حتى بتمييزها، ويبرر هذا الشك أن الاختلاف الحالي بين أية طائفتين، أو أي نسقين لتسمية الأنساب يعد اختلافًا ذاتيًا، له أصل من وجهة نظر الباحثين أنفسهم الذين يتأثرون، عند معالجة اللغات الأجنبية، بفشلهم "هم" فى تمييز الأنساب الثابتة التى تميز بينها لغات أوروبا المتمدينة، لقد نسي الباحثون (نتيجة حماسهم البالغ صياغة نظريات عامة انطلاقًا من هذه الحقائق) أن لغاتهم "هم" مملوءة بمجموعات، أو تصنيفات مماثلة تمامًا للتصنيفات (البدائية)، ولكن العرف قد جعل منها**

تصنيفات مألوفة وطبيعية هكذا لهم، بحيث لم يعدو يشعرون أنها كذلك" (Kroeber,1909:77)، ولقد شرع **كروبر** في تحليل الاختلافات القائمة بين الأنساب الفيزيائية لأنساق القرابية، والتنميط اللغوي الخاص بها، ولقد كان من المنتظر أن يتطلع الأنثروبولوجيون الاجتماعيون المعاصرون إلى هذا النمط من البحث، إلَّا أن ذلك لم يحدث.

– استخدام المقولات الوطنية:

حين استخدم الأنثروبولوجيون البريطانيون الأوائل بعضًا من المقولات اللغوية السائدة في المجتمعات البدائية كمصطلحات تقانية عامة، لم يميزوا بين الصلاحيات التصنيفية للبُنى اللغوية، أو مدى اعتماد عناصر النسق المعرفي (اللغوية وغير اللغوية) على بعضها البعض، ومن أشهر الميادين التي استخدموا فيها هذه المقولات: "الدين المقارن"، ففي هذا الميدان حاول الأنثروبولوجيون تحديد أنماط التطور الديني التي يمكن إثباتها في المجتمعات السابقة عليهم والمعاصرة لهم، ولقد فتشوا عن المقولات اللغوية التي تساعدهم في تأسيس البرهان، وكما شرح **ماريت** المشكلة: **"كنت أبحث طوال حياتي عن المقولات التصنيفية التي يمكن تطبيقها على الدين الأثري البدائي بصفة عامة. بتعبير آخر، لقد افترضت إمكانية معالجة هذا الموضوع كما لو كان يمثل مستوى وحيدًا من الخبرة (الدينية)، وإمكانية قصر معالجة هذا الموضوع على مهمة التصنيف، أي ترتيب الوقائع تحت عناوين إجمالية"(Marett,1909:120)**

وأول هذه المقولات اللغوية التي استخدمها البريطانيون كمصطلح تقاني كان مصطلح "مانا Mana" ، وقد أُخذ من اللغات المالينيزية، وظهر منشورًا للمرة الأولى في خطاب كتبه المبشر واللغوي **كودرينجتون** R.H.Codrington في عام 1877، ولقد اقتبسه **موللر** بوصفه مثالًا يشير إلى احتمال وجود فكرة "المطلق غير المحددة"، وفكرة "غير المرئي" (أو فكرة "الشيطان" كما أطلقنا عليها فيما بعد) بين أحط القبائل البدائية **(Müller,1878:53)** .

أما تصوير **كودرينجتون** لمقولة "المانا" كما صادفها بين الشعوب المالينيزية، فقد كان كما يلي: "**يسود بين الشعوب المالينيزية اعتقاد في إحدي القوي الفاعلة، وهي تتمايز عن القوة الفيزيائية، وتعمل بكل الأساليب بما تتميز بها من خصائص التوجيه والسيطرة بغية**

تحقيق الخير والشر، وتلك القوة الفاعلة هي "مانا"، ومع أنها قوة لا مادية، أو خارقة للطبيعة، فإنَّها تظهر ذاتها دائمًا فى شكل القوة المادية الفيزيائية، أو فى أحد أشكال التأثير، أو التفوق الذي يتميز به الإنسان"(Ibid.,:53-54)، ويمكن العثور في كتاب **كودرينجتون** (1891) على صور إضافية لمقولة "مانا" في السياق المالينيزي **(Codrington,1891:191)** .

ولقد اقترح **ماريت** في أحد الأبحاث التي نُشرت في عام 1909 ضرورة إدراج هذا المصطلح في اللغة التقنية للأنثروبولوجيا المقارنة، نظرًا لما يتمتع به من قابلية للتطبيق العريض الذي يفوق استخدام اللفظة اللغوية ذاتها فى السياق المالينيزى: "**لم يكن فى خطتى الحالية أن أحدد كيف تم فهم مفهوم "مانا"، أو كيف يستخدم هذا المفهوم فى منطقة انتشاره، وبالتحديد فى الإقليم الباسيفكي، لأن تلك المهمة تخص الإثنولوجيا الوصفية، إلَّا أنه وفى ضوء الشواهد الموجودة فى الإثنولوجيا المقارنة سوف أغامر بلفت الانتباه إلى أهمية مناقشة قيمة مفهوم "مانا" هذا، وقيمة مفهوم "أورينداOrenda" (وهو أحد المفاهيم المرادفة)، وذلك لبيان مدى ملائمتها حين يقوم علم الدين المقارن باختيارهما بوصفهما اثنين من مقولاته التقانية، أو من مصطلحاته التصنيفية التي تتمتع بانتشار عريض(Marett,1909:151)**

لقد رأى **ماريت** ضرورة استبدال بمصطلح **تايلور** "أنيميزم Animism" مصطلح "مانا"، على فرض أن مصطلح "أنيميزم" مصطلح محدد للغاية، وعام في الآن ذاته، فى حين كان مصطلح "مانا" (بوصفه مصطلحًا تقانيًا ملائمًا لوصف الحالة اللامنطقية للتفكير البدائي) مصطلحًا غير تفاضلي، وهو يجعله ملائمًا لوصف حالة الدين المبكر: "**لقد كان على "علم" الدين المقارن أن يعمل جاهدًا لتوضيح المعاني المتأصلة فى أي طور محدد من أطوار الخبرة الدينية فى العالم أجمع، وبالتحديد توضيح تلك المصطلحات التي قد تقترح ذاتها تلقائيًا، وأن يفترض أن الطور الذي نحن بصدده قد تم إحياؤه، بكيفية ما، داخل وعي الإنسان، والتعبير عنه، وبإمكاني تسمية مثل هذه المصطلحات "مصطلحات وجدانية"، وبإمكاني المجازفة، فى الوقت نفسه، وأصدر حكمًا يقرر أن استخدم العلوم المماثلة للمصطلحات الوجدانية يعد معيارًا لرؤاها الوجدانية"(Ibid.,:104)**

ولئن سلم **ماريت** بصعوبة استخدم الكلمات المقيدة ثقافيًا كمصطلحات تقانية عامة، وذلك للتعارض القائم بين الفكرة المحلية (التي تشير إليها الكلمة المقيدة ثقافيًا) والفكرة العامة (التي يشير المصطلح التقاني إليها- عادة)، أقر بأن قيمة استخدام مصطلح "مانا" (الذي يعبر بذاته عن الدين البدائي) يتجاوز هذا الظرف المعوق تمامًا.

ولقد أثبت استخدامه لمصطلح "مانا"- من الناحية الإيجابية- وعيه العميق بإحالة التفاصيل الإثنوجرافية إلى المقولات الثقافية، وأثبت- من الناحية السلبية- افتراضه الخاطئ فيما يتعلق باختلاف الثقافات الأوروبية عن الثقافات غير الأوروبية، وتسليمه بإمكانية تصنيف الثقافات غير الأوروبية معًا، وهو مذهب ذهب إليه **فرانز ستاينر** F.Steiner حين ناقش مغزى كلمة "طوطمية Totemism"بوصفها مقولة عامة، إذ يقول: "**تتمتع هذه الكلمة بمغزى ثنائيًا، فهي تمثل مضمون إحدي المراحل المفترضة فى التطور الإنساني، وتعين في الوقت نفسه حدود الطوطمية ذاتها، بوصفها قالبًا مجسمًا للغيرية Otherness، ولقد ظل هذا المغزى الثنائي للكلمة حتى بعد أن تخلي العلماء عن التفكير فى تعبيرات المراحل التطورية بشكل جدي** **(Steiner,1956,18)** ، لقد أضفى الأنثروبولوجيون على المصطلحات المبهمة- المستعارة من المجتمعات التي جمعوا منها المادة الإثنوجرافية- مكانة أنطولوجية ضخمة، لم تتلائم مع فكرة الـ"أنيميزم"، أو التمييز بين "السحر" و"الدين" قط، وعلى حين قاموا بتحليل مصطلح "أنيميزم"، فقد كانت قيمته العامة- كما أشار **ماريت**- محلًا للتشكيك، ومع أنهم نظروا إلى المصطلحات المقتبسة من الثقافات الأخري بعين الاحترام، بوصفها مقولات حقيقية، فإنَّهم كثيرًا ما حرفوها عن استخداماتها الأصلية، لكي تتلائم مع الأعراف غير المتجانسة التى يتم تصنيفها تحتها.

أما المقولتان الأخريتان المتصلتان بهذا الميدان فهما مصطلحي "طوطم Totem"، و"تابو Toboo" (Tabu، و Tapu)، وقد أُستعير المصطلح الأول من لغة الأودجيكاوا Odjikewa، وهي إحدى اللغات الإلكونية Algonquin، وأُستعير المصطلح الثاني من اللغات المالينيزية، ولقد استعير المصطلحان قبل مصطلح "مانا"، ولا يعرف مْنّ المسئول عن استعارتهما، وعلى حين أُدرجت الكلمتان في اللغة الإنجليزية، لم تنتشر كلمة "مانا" خارج نطاق الأنثروبولوجيا قط، هذا علاوة على أنه قد تم توثيق هاتين الكلمتين في قاموس أكسفورد الإنجليزي عامي 1919

و 1926، ولقد كان على كلمة "مانا" أن تنتظر حتى يتم إضافتها في ملحق هذا القاموس عام 1936، هذا بالرغم من أن المجلد الذي يحمل حرف **M** من القاموس طبع عام 1908، ولقد أشار **كابتن كوك** Captain Cook في عام 1777 للمرة الأولى إلى "التابو" بوصفه أحد الأعراف المستقرة بين المالينيزيين البولينيزيين، ولقد استقرت الكلمة في اللغة الإنجليزية مع مطلع القرن التاسع عشر، ولقد عُثر عليها في مجموعة من المقالات كتبتها **ميرى ميتفورد** M.R.Mitford في عام 1826، وعنها ننقل الفقرة التالي: "**لقد كان مجرد ذكرها جيرانها يُعد "تابو" بالفعل، ومع أن النسبة كانت عشرين إلى واحد، فقد كانت في حالة تحدى للتسعة عشرة منهم، وللسبب نفسه كانت عائلتها تُعد "تابو" أيضًا**"**(Mitford,1826:62-63)**، ويمكن العثور في كتاب **شارلوت برونتى** CH.Bronte: "**شارلى** Shirley- 1849" على مثال آخر، فيه تصف إحدى مربيات الأطفال خبرتها مستخدميها السابقين: "**لقد اكتشفت أن سيد البيت يُعدَّيْ امرأة محرمة Tabooed، محرمة على كل من حرّموا على أنفسهم التمتع بكل الامتيازات المعتادة للجنس**"**(Bronte,1849:22)**

وعلى حين تضمنت الطبعة السابعة من الموسوعة البريطانية (1842) ملاحظة مختصرة حول كلمة "تابو"، وأشارت إلى استخدامها في السياق البولينيزي، وأغفلت الطبعة الثامنة من الموسوعة نفسها الإشارة للكلمة تمامًا، احتوت الطبعة التاسعة من الموسوعة نفسها (1888) على مقال طويل كتبه السير **جيمس فريزر** Sir J.Frazer، استخدام فيه الكلمة بوصفها مصطلحًا تقانيًا عامًا يشير إلى إحدى الظواهر العامة المنتشرة في سائر أنحاء العالم، وفي المجلد الذي خصصه **فريزر** في كتابه الضخم "الغصن الذهبي Golden Bough" لـ"Taboo" (1911) اعترف بأنه لم يكن يعرف حين كتب مقاله للموسوعة البريطانية أنه يمثل أحد الأعراف العامة المنتشرة في سائر أنحاء العالم إلى هذا الحد، وعلى ذلك فقد كان السير **جيمس فريزر** هو الأنثروبولوجي المسئول بشكل رئيس عن تبني هذه الكلمة بوصفها مصطلحًا تقانيًا[1]، هذا بالرغم من إمكانية العثور

---

[1] **ولقد أشار فريزر في "الغصن الذهبي" إلى "حين طلب مني صديقي وليام روبرتسون سميث W.Robertson Smith في عام 1986 كتابة مقال حول التابو Taboo للموسوعة البريطانية كنت أعتقد أنه نظام مقصور على السلالات البُنية والسوداء التي تقطن المحيط الباسفيكي، ولكن**

على بعض الاستخدامات المماثلة للكلمة في بعض الكتابات التي ظهرت في الفترة نفسها، وبالأخص في مؤلفات **أندرو لانج** التي نشرت عامي 1883 و 1884 على التوالي**(Lang,1883)** ، وقد وضح **فريزر** في مقاله هذا ملامح التطبيق اللغوي الذي تداوله زملاؤه لسنوات طويلة.

وإذا كان الأمر مع كلمة "تابو" كذلك، فإنَّ من الصعب إذًا أن نتعرف على أول مَنْ استخدم كلمة "طوطم Totem" بوصفها مصطلحًا تقانيًا في الأنثروبولوجيا، فقد ظهرت هذه الكلمة للمرة الأولي في أوائل القرن السابع عشر في أحد السياقات الهندية الأمريكية، ومنذ ذلك الحين تكرر ظهورها في الكتابات كثيرًا، وفي عام 1871، اعترف **تايلور** بالكلمة بوصفها مصطلحًا تقانيًا عامًا، ولقد كتب: **"لقد انتقل المصطلح الألكونيكي Algonquin المحلى الذي يشير إلي اسم العشيرة (وهو دائمًا اسم حيوان) إلي اللغة الإنجليزية في شكل Totem، وهكذا أصبح مصطلحًا مقبولًا بين الإثنولوجيين لوصف أسماء العشائر المماثلة في سائر انحاء العالم، أما مصطلح "طوطمية Totemism" فقد أطلقه الإثنولوجيون على نظام تقسيم القبائل في هذا النطاق"(Tylor,1871:235)** ، ومرة أخرى كان السير **جيمس فريزر** أول مَنْ استخدم الكلمة المستعارة بمعناها العام في الطبعة التاسعة من الموسوعة البريطانية:"**يشير الطوطم إلى صنف من الموضوعات المادية التي ينظر إليها الرجل المتوحش باحترام وهمي، معتمدًا على أن بينه وبين كل موضوع من الموضوعات التى تندرج فى هذا الصنف علاقة نسب حميمة، وخصوصية تامة"(Frazer,1888b)**، وقبل نهاية القرن استخدم **أندرو لانج** المصطلح بوصفه

مراجعتي للتقارير التى كتبها الملاحظون حول هذا النظام حين كان مزدهرًا في بولينيزيا دفعتني إلى تعديل وجهة نظري، وقد قادتني الدراسة اليقظة لتلك التقارير إلى اكتشاف أن الـ"تابو" يمثل نسقًا واحدًا من بين مجموعة أنساق الخرافات السائدة بين المتوحشين، وبين السلالات المتمدينة في العصور القديمة على حد سواء، ولقد انتهيت إلى استنتاج أن هذا النسق قد أسهم بطريقة استثنائية بين سائر السلالات البشرية (وإن كان تحت أسماء أخري، وتباين في التفاصيل) في بناء هذا الطراز المعقد من المجتمع بما يحتويه من جوانب دينية واجتماعية وسياسية وخُلُقية واقتصادية، ولقد أشرت إلى هذا الاستنتاج باختصار في المقال الذي نُشر في الطبعة التاسعة من الموسوعة، ولقد قبل روبرتسون سميث وجهة نظري في هذا الموضوع، وطبقها في سلسلة محاضراته المشهورة لاستنباط بعض مظاهر الدين السامي **Semitic**، ومنذ ذلك الحين، ساد الاعتراف بأهمية الدور الذي يقوم به نسق الـ"تابو"، والانساق المشابهة له في تطور الدين والأخلاق ونظم الحكم والملكية، وأصبح هذا الموضوع بالفعل موضوعًا مألوفًا في الأنثروبولوجيا " . انظر: .**Frazer,J.G.,1911: V- VI** ، ولقد اقتبس شتاينر **F.Steiner** هذه الفقرة المهمة كاملة فى كتابة "التابو **Taboo**" (**1956**) السابق الإشارة إليه (صفحة **97**).

مصطلحًا قابلًا للتطبيق العالمي على إحدى مراحل التطور الإنساني: "**لقد ركزنا في الوقت الحالي على الأسلوب الذي نشأت به الطوطمية عن أحد الأوضاع الاجتماعية غير الطوطمية السابقة، وركزنا كذلك على تطور مختلف مراحل المجتمع الطوطمي في استراليا**" **(Lang,1905:6)**، وفي عام 1881 زعم أحد أصدقاء **أندرو لانج** (لم يعرف اسمه) أن العشائر الإنجليزية القديمة كانت نموذجًا للطوطمية التي ظهرت في قلب أوروبا ذاتها، أما اتباع **ماكس موللر** التقليديين فقد زعموا ما هو أغرب من ذلك: "**بين التسمانيين Tasmanians العراة (أحد الشعوب الاسترالية) وبين الأفريقيين الجنوبيين المتوحشين من السهل الاعتقاد في مثل هذه الأشياء وممارستها، على فرض أنهم يتخيلون ملكتهم الخيالية، أو يمارسونها، وقد يثنون على أنفسهم مقارنة بالعقل الساذج للهنود المساكين، ولكنهم لن يسلموا بشكل جدي بانحدارهم عن هذا البربري الممجد، سلفنا الآري المحبوب المدلل عند البروفسير ماكس موللر، وعلاوة على ذلك، فقد كان سلفنا الآري (كما أثبت الأستاذ ماكلينان Mclennan والأستاذ لانج) سلفًا طوطميًا دون شك، أما جدنا الأنجلو ساكسوني المتأخر فقد كان– حين هبط للمرة الأولى على الجزيرة البريطانية– نموذجًا أمينًا لهذا البربري الذي لا يرتدي القنصوة حقًا**"**(G.A.(?);1881:29-44)**

وعلى حين اعتقد الأنثروبولوجيون البريطانيون الذين استخلصوا هذه المصطلحات من اللغات الأجنبية أنهم يسهلون بذلك مهمة الأنثروبولوجيا، فقد جلب توارث الأنثروبولوجيين لتلك المصطلحات– في هذا القرن– للأنثروبولوجيا ذاتها من المشكلات، ما لم يكن بإمكانهم التغلب عليه إلَّا بعد اعترافهم بعدم آصالتها في الأصل.

– الحس المشترك وعصر التحول:

في أواخر القرن التاسع عشر بدأ عدد من الأنثروبولوجيين البريطانيين في التشكيك في مدى كفاية استخدام التقارير اللغوية في إثبات النظريات الأنثروبولوجية، وبدأوا في التشكيك في النظريات الأنثروبولوجية ذاتها، فلقد هاجم **كوست** R.N.Cust عام 1883 الاعتقاد السائد، آنذاك، أن اللغة التي تفتقر لا**لأعرف**، أو لا**لتعاليم** التنويرية المكتوبة فيها، يعني أيضًا أنها تفتقر إلى

النحو Grammar، وكتب في ذلك: "**إنَّ تمسك النحاة بشكليات اللغة، لا يعدو زعمًا لا معنى له تمامًا، إذ أن المظاهر النحوية للغة لم تتطور إلَّا وفقًا للروح المميزة للشعب الذي يتحدث بها، ونظرًا لأن من المستحيل تحديد أسباب حدوث هذا التطور، أو كيفية حدوثه فإنَّ من المستحيل أن توقف أحكام rules النحاة سير تلك العملية، أو تعجل بها ألبتة**" **(Cust,1883:667)**، أما **ماكس موللر** فقد كان واحدًا من المعترضين القلائل علي الاستعارة غير المدروسة للمصطلحات اللغوية، واستخدامها كمقولات عالمية مشكوك فيها، وكما سبق أن ذكرت، لقد كان ذلك- في رأيه- عمل لا يتسم بالعلمية: "**إنَّ تبني الكلمة الأجنبية دون تمحيص دقيق لها، وإضافة اللاحقة السحرية ism عليها بغية تجنب سوء الفهم لا يعد بذاته تفكيرًا صحيحًا، بل إنَّ ما نسميه سوء فهم هنا هو ما يمثل فى الواقع التفكير الصحيح**" **(Müller,1892: 409)**

أما **هوراتيو هال** H.Hale فقد كانت أبحاثه مزيجًا غريبًا من الحس المتبلد، والخيال الجامح الغريب، ولقد حاول أن يثبت أن النقائض التي عانت منها مناهج تسجيل اللغات هي التي أدت لظهور فكرة اللغات البدائية المحدودة والمجسدة وأساليبها التعبيرية، وقد كتب يقول: "**لقد جمع كثيرون معاجم مفردات أثبتت فائدتها في تحديد أصول السلالات، وبالرغم من ذلك فقد أدت تلك المعاجم- ولسوء الحظ (نتيجة لنقائصها الجوهرية)- إلى الوقوع في أخطاء فادحة، وظهرت آراء معاصرة تردد أن لغات الشعوب البربرية لغات فقيرة في أساليب التعبير، ولا تحتوي من المصطلحات العامة، أو من المصطلحات المجردة إلَّا أقل القليل**" **(Hale,1891:418)**

لقد رفض **هال** التسليم بوجود أية لغة يمكن وصفها بـ"أنها بربرية"، ولقد وضع- لتدعيم رأيه- نظرية في الفونيم Phoneme، وأورد في إحدى المقالات قائمة من الكلمات التي احتوتها لغة الداكوتا Dakota (وهي لغة إحدى القبائل الهندية في أمريكا الشمالية) شارحًا المقابلات التى تضمنتها الفونيمات فيها، ومن أجل تفسير عدم تحديد الصفات المميزة لبعض الأصوات الأساسية في بعض اللغات، أكد على أن بعض الأصوات تطفو بين صوتين صحيحين مختلفين أحيانًا، وبين ثلاثة أصوات صحيحة، أو بين أربعة منها أحيانًا أخري**(Hale,1884:233)**، ومع أنه كاد أن يثبت أهمية اعتبار اللغة المحدد الوحيد للسلالة، بالرغم من تقدم بعض اللغات على بعضها

الآخر، فإنَّ استنتاجاته الخاصة بـ"الأصوات الصحيحة غير المحددة" تبين أنه لم يثمن أهمية براهينه حقًا، ومن المهم في هذا المقام أن نقارن بين سوء الفهم الذي أظهره **هال** في هذا المقال، والمعالجة القيمة التي قدمها **بواس** للقضية نفسها في مقال له بعنوان "حول الأصوات المبدلة"، ظهر بعد ظهور مقال **هال** بخمس سنوات فقط، أثبت فيه عدم وجود ظاهرة الأصوات التوليفية، أو المبدلة، ورفض التسليم بأن ظهور مثل هذه الأصوات هو بذاته علامة على بدائية الكلام الذي ظهرت فيها، على فرض أنها لم تكن في الواقع سوى استنباطات متباينة لأحد الأصوات، أو للصوت ذاته **(Boas,1889:52)**

وبشكل عام، فإنَّ الانتقادات للأفكار السائدة، آنذاك، حول طبيعة اللغات البدائية لم توجه إلَّا بعد انقضاء العقود الأولى من القرن العشرين، ولقد اضطلع بها- التي صاحبها تحسن مؤكد في تقنيات كتابة التقارير الخاصة باللغات البدائية- عددٌ من الكتاب ممّنْ تمتعوا بخبرات عملية عميقة، ولقد كان تقديم عدد منهم لبعض الملاحظات، أو التعليقات الخاصة بالفهم البرجماتي للغة هو العلامة المميزة لتلك الفترة التي أطلقت عليها "**عصر التحول**"، وهو العصر الذي شهد التغيرات الطارئة على التقانات الأنثروبولوجية التي صاحبت ظهور **فكرة البحث الميداني** للمرة الأولى، وفي الواقع، فإنَّ التغير لم يحدث- آنذاك- في المناخ اللغوي فقط، وإنَّما حدث في المناخ الأنثروبولوجي السائد أيضًا، ولقد امتدت تأثيراته إليها بين الحين والآخر.

كان المُنصرون من بين مْنّ أتاحت لهم الخبرة العملية تفوقًا كبيرًا علي الأنثروبولوجيين الذين اكتفوا بصياغة أفكارهم حول اللغات البدائية، ولم يفارقوا مكاتبهم- قط، هذا بالرغم من أن الخبرة العملية وحدها لم تكن كافية بذاتها لكي تحمي كثيرين منهم من الانزلاق إلى الأفكار الخاطئة، كتلك التي وقع فيها **الأب دورمان** S.S.Dorman، فقد روىَّ **الأب دورمان** أن جده رجل الكنيسة عاش بين قبيلة المازروي Masarwas الأفريقية ما يزيد عن عشرين عامٍ معتقدًا أن مفردات لغتهم لا تزيد عن ثلاثمائة كلمة، وبالرغم من ذلك فقد كان بمقدوره "هو" أن يقرر عكس ذلك: " **لقد استطعت أن أجمع أكثر من ألفي كلمة، وأنا على يقين بأنني لم أستنفذ بعد مفردات لغتهم- قط" (Dorman,1917:61)**

أما المُنصر **كوردينجتون** (الذي سبقت الإشارة إليه) فإنَّه يمثل نموذجًا آخر لمُنصري هذا العصر، الذين قادتهم خبراتهم العملية إلى تطوير مداخل مستنيرة نسبيًا لجمع المواد الإثنوجرافية، وبالتحديد فيما يتعلق بلغات المحيط الهاديء، لقد ظلَّ **كوردينجتون** يتمتع حتى يومنا هذا بسمعة طيبة، بوصفه أحد علماء لغات المحيط الهاديء، ولقد قدم- في عام 1903- أحد الأدلة المقنعة لتقويض الآراء السائدة، آنذاك، حول سرعة حدوث التغير في اللغات الشفاهية (غير المكتوبة)، فمن المعروف أن الأسباني الذي اكتشف جزر سليمان Soloman في عام 1567 قد سجل حوالي أربعين كلمة للغة المحلية السائدة بين سكان هذه الجزر، وهي الكلمات التي أمكن للأسبان تمييز معظمها، آنذاك، وبالرغم من صعوبة التمييز الصحيح للكلمات الغريبة وتذكرها، وكتابتها، فإنَّ الأسبان لم يسجلوا إلَّا الكلمات المحلية التي كان من السهل عليهم تمييزها **(Codrington,1903:25)**، والأهم من ذلك هو عدم تغير التوزيع الجغرافي للهجات فوق هذه الجزر على مدار ما يقرب من ثلثمائة عام.

أما **سيدنى راي** S.H.Ray فهو يُعد أحد علماء لغات المحيط الهاديء المحترمين، وقد امتلأت مجلدات مجلة "المعهد الأنثروبولوجي الملكي" ومجلة "الإنسان" في العقود الأولى من هذا القرن (وبالأخص في أعوام 1911، 1923، 1929) بكثير من المقالات والمراجعات التي وضعها حول هذه اللغات، وعلى أية حال، فإنَّ سيرة حياته المهنية في تاريخ الأنثروبولوجيا كله لم تنتم إلَّا إلى هذا العصر، لقد عمل **راى** مدرسًا ابتدائيًا بمدرسة Bethnal Green بلندن، ولقد استطاع في أوقات فراغه أن يُعلم نفسه كثيرًا من لغات المحيط الهاديء، مستعينًا في ذلك بعدد من الترجمات التي ظهرت في تلك اللغات للإنجيل، ولقد لفتت موهبته في هذا المجال انظار الأنثروبولوجيين المتخصصين المعاصرين له، آنذاك، مما أدي لدعوته للانضمام إلى البعثة التي قام بها **هادون** إلى مضايق توريس بين عامي 1898 و 1899، وهي البعثة التي دشنت بها الأنثروبولوجيا الاجتماعية عهدًا جديدًا من البحث الميداني الهادف، ومن أجل الانضمام للبعثة حصل **راى** على اجازة دون أجر لمدة عام، وحين عادت البعثة، عاد إلى مدرسته الابتدائية، وظل يعمل بها بقية حياته، وقد ظلت سيرة حياته المهنية من بدايتها حتى نهايتها بين طورين، الطور الأول هو طور ذلك الهاوي الموهوب حسن الاطلاع، والطور الثاني هو طور هذا الأنثروبولوجي المحترف الذي لم

تعترف الأوساط الأنثروبولوجية به، بوصفه أحد ممتهني الأنثروبولوجيا، لأنه لم يتأهل التأهل الأكاديمي المطلوب لامتهان هذا الميدان.

وإلى جانب المُنصرين كان هناك جيل جديد من الإداريين الاستعماريين والأنثروبولوجيين الحكوميين ممّنْ تمتعوا بخبرات عملية في اللغات الشفاهية (غير المكتوبة)، وبالنسبة لهذه المجموعة الثانية كان تسجيل اللغات الشفاهية يمثل إحدى الضرورات العملية اللازمة لنجاح نظم الحكم والإدارة داخل المستعمرات البريطانية، ولقد كان تسجيل هذه اللغات يفوق في أهميته تسجيل هؤلاء للأعراف المحلية ذاتها. لقد قدم **توماس** Thomas (وهو أحد الأنثروبولوجيين الحكوميين) في كتابه: "تقرير أنثروبولوجي عن الشعوب النيجيرية المتحدثة بالإيدو- 1910" **(Thomas,1910)** قسمًا لغويًا احتوى على بعض النصائح المتعلقة بكيفية تصنيف المواد اللغوية المماثلة، وقائمة مطولة بالمفردات القياسية، هذا بالإضافة إلى أحد الاستبيانات النحوية، ولقد ظهر هذا القسم من جديد كتاب **ميك** Meek: "دراسات قبلية في شمالي نيجيريا- 1931" **(Meek,1931)**، ولقد وضع **توماس** أيضًا كتابًا بعنوان: "تقرير حول الشعوب النيجيرية المتحدثة بالإيبو- 1913" **(Thomas,1913)**، وإليك العناوين التي احتواها التقرير، وهي تبين بشكل عام إلى أي حد ارتبطت المشكلات اللغوية العملية بمشكلات الحكم والإدارة الاستعمارية:

1- القانون والعرف ومنطقة أوكا المجاورة .

2- المعجم.

3- الأمثال والحكايات الشعبية والمفردات والقواعد.

4- القانون والعرف- إقليم أسابا.

5- إضافات إلي المعجم .

6- الأمثال والقصص والأساليب في الإيبو .

ولقد صارت أدلة القانون المحلي عند هؤلاء الأنثروبولوجيين من أهم جوانب المواد الإثنوجرافية التي يجب جمعها، ولقد أدت الاهتمامات العملية بالمسائل اللغوية إلى تسهيل مهمة الإداريين فيما يتصل اكتساب المعارف العملية باللغات المحلية، وأدت في الوقت نفسه إلي اقصاء كافة الاعتبارات اللغوية النظرية الأخرى.

لقد أسهم **توماس** أيضًا بالمقالات اللغوية في مجلة "الإنسان" **(Thomas,1921)**، ونشر مقالًا مهمًا للغاية في مجلة "المعهد الأنثروبولوجي الملكي" في عام 1924 بعنوان: "الأسبوع في غربي أفريقيا"**(Thomas,1924)**، حاول فيه رصد الأسباب التي أدت للتقسيمات الفرعية لـ"الشهر" في هذه المنطقة، ولتعيين مختلف الأسماء التي تطلق على "الأيام"، وذلك في ضوء العلاقات المتبادلة بين الأدلة اللغوية والاجتماعية لهذا الإقليم، أما **ميك** (الذي كان أحد المبعوثين الإداريين من قبل الحكومة البريطانية)، وقد كان كتابه الذي سبقت الإشارة إليه عبارة عن تجميع للتقارير المستندة أي نتائج بعض الأبحاث المختصرة التي أجريت بالمنطقة: "**لا يمكن الحصول على أية مادة لغوية مماثلة للمادة التي يحتويها هذا الكتاب إلَّا في ضوء أحد المسوحات الثقافية**" **(Meek,1931:v)**.

ويقدم **راتراي** Rattray و**تالبوت** Talbot، نموذجين آخرين من نماذج الإداريين الحكوميين الذين أظهروا اهتمامًا متعاظمًا باللغة المحلية في المنطقة التي عملا فيها **(Rattra,1916; Vol.4)**، ومع ذلك لم يتطلع أحد من هؤلاء الأنثروبولوجيين الحكوميين إلى ما هو أبعد من الضرورات اللغوية العملية للحكم الاستعماري، ولقد أغفلت جهودهم- التي بذلت في ضوء هذا الهدف المحدد- كثيرًا مما كان عليهم الاهتمام به، ولم يكن لها أي تأثير يذكر في المسار الرئيسي للأنثروبولوجيا الاجتماعية البريطانية التي استخفت من جانبها بها، ولقد اكتست معظم هذه الجهود بشكل مصغر بمسحة من جهود الإثنولوجيين **(Ardener,1971:xix)** ، ولقد شهد عصر التحول استهلال الأبحاث الميدانية المنظمة، وشهد معها إلحاحًا شديدًا من الأنثروبولوجيين المتخصصين على الاستخدام التقاني لعلم اللغة، بوصفه وسيلة تقانية لجمع المعلومات الإثنوجرافية، وهكذا حرص **سليجمان** Seligman في عام 1910 على جمع مادته الإثنوجرافية من غينيا الجديدة مستعينًا بالاخباريين والرطانة الإنجليزية والاستبيانات **(Seligman,1910)**، وبالرغم من ذلك فقد رصد **ماريت** في عام 1912 تغير الموقف اللغوي داخل الأنثروبولوجيا، على فرض أن الأنثروبولوجيين قد اهتموا باللغة لالقاء الضوء علي تاريخ الإنسان، هذا في الوقت، الذي لم تعد فيه الدراسات اللغوية، آنذاك، دراسات تاريخية، وإنَّما أصبحت دراسات شكلية (أو بُنيوية)، وهو ما أدي بعلماء الأنثروبولوجيا إلى التخلي عن الاهتمام باللغة.

ومن ثم، لو كان على اللغة أن تستعيد المكانة الرفيعة التي سبق وأن تمتعت بها في الدراسات الأنثروبولوجية، فقد كان على الأنثروبولوجيا ذاتها أن تفرض توجهًا جديدًا على أبحاثها، وذلك على فرض أنه من غير تلقي الأنثروبولوجيا المساعدة المتواصلة من الفيلولوجيا، فإنَّها تصبح عرضة للضعف، حيث كان الفهم العميق للغة الشعب الخاضع للبحث الأنثروبولوجي يمثل بذاته المفتاح الرئيس للباحث الميداني **(Marett,1912)**، لقد ارتبط ترقب ظهور النظرية المالينوفسكية بالمدخل التطوري، أما النظريات والأمثلة التي احتوتها الفصول المخصصة للغة (في التقارير الأنثروبولوجية) فقد أُخذت من **بينيه** Payne مباشرة[1]

من وجهة النظر اللغوية يعد **هوكارت** Hocart من أهم علماء الأنثروبولوجيا الذين شهدهم عصر التحول[2]، وتقدم أعماله نموذجًا رائعًا للأعمال الممتازة التي ارتبطت بهذا العصر، لقد عمل **هوكارت** لسنوات طويلة في منطقة الباسفيكي باحثًا ومدرسًا، وقد أهلته خبرته العملية للهجوم المستمر على الأفكار المنتشرة، آنذاك، حول طبيعة اللغات البدائية، من تفنيد الاعتقاد في عدم قابلية هذه اللغات للتجريد وللتعميم، مما بشر بظهور فجرٍ جديدٍ للأنثروبولوجيا: "**قد تبدو مثل هذه النظرة غير خلاقة لأي عقل داخل هذا الوطن (بريطانيا)، ولكونها بدت لي ذات يوم كذلك، فلا يمكنني الآن ألوم قطعًا من لم يمر يقينهم قط بتلك الخبرة القوية المثيرة بالحياة المتوحشة**"**(Hocart,1912:267)**، لقد تحدث **هوكارت** بقسوة لفضح زيف النظريات اللغوية الطائشة: "**إذا اقتنع الباحث بأن للكلمات أشكالًا مختلفة، واقتنع بأن كل شكل منها يجب أن يخضع لأحكام محدودة كذلك، سوف تصبح اللغة، كما هي في الواقع، آنذاك، سلسة تمامًا، ولكن حين يميل المقيمون في روتوما Rotuma الذين سمعوا شكل Pure أحيانًا، وشكل Puerer أحيانًا أخر إلى إدراج هذين الشكلين ضمن أساليب الحديث الضعيفة**

---

[1] من وضعنا الحالي مقارنة بالوضع الذي كان فيه ماريت لا يمكننا أن نوجه اللوم على ذلك. فلقد استشهد السير رصل براين **Sir R.Brain** في عام **1961** بـ بينيه أيضًا، بوصفه المصدر المستشهد به حول اللغات البدائية، هذا بالرغم من تشككه في المعادلة بين اللغة البدائية واللغة الأصلية، انظر: **R. Brain,1961**

[2] لقد بذل رودني نيدام **R.Needham** جهودًا ضخمة لتحرير هوكارت من معتقل النسيان والاهمال الذي لحق به من الأنثروبولوجيين البريطانيين.

عند الرجل الوطني، فإنَّهم لن يواصلوا البحث عن أحكام استخدام مثل هذه الأشكال، لأنهم قد افترضوا بنهجهم هذا عدم وجودها أصلًا" (Hocart, 1919:525) .

لقد ناقش **هوكارت** استخدام ضمائر الملكية في اللغة الفيجية Fijian، وهى ضمائر تم الاستشهاد بها كثيرًا بوصفها أمثلة تشير إلى عدم قدرة اللغة (البدائية) على الفصل بين ضمير الملكية، والصفات المميزة للمالك، والموضوع المملوك، وأثبت، على النقيض من ذلك، إلى أى حد تقوم اللغة (البدائية) بوصف قائمة المقتنيات في ارتباطها بالتحليل الدقيق للخبرة، ووضح في الوقت نفسه إمكانية انطباق هذا البرهان على اللغة الإنجليزية ذاتها، وأضاف: "**تخبرنا الملاحظة المباشرة للمتوحشين– كما يُطلق عليهم– أن بإمكانهم التعبير بشكل صحيح عن مختلف الأفكار المجردة، بقدر لا يقل عن قدرتهم على التعبير بشكل صحيح عن الملكية العامة– أيضًا**"(Hocart,1918:267)، ولقد استشهد بالكاتب الذي ذهب– دون تقديم الأدلة– إلى أن اللغة الفيجية تحتوى على أربع عشرة كلمة تشير إلى فعل "القطع"، وزعم عدم عثوره في هذه المنطقة سوى على عشر كلمات فقط تشير إلى فعل "القطع"، ولقد كانت هذه الكلمات تتماثل مع ما لا يقل عن إحدى وعشرين كلمة في اللغة الإنجليزية(Hocart,1912)، وقد كان ذلك يعد شيئًا رائعًا لأنه يمثل نسمة هواء منعشة تهب على ميدان الأنثروبولوجيا.

ومن وجهة النظر الأنثروبولوجية يعد **هوكارت** من أهم ممثلي الجيل الأنثروبولوجي الجديد الذين شهدهم عصر التحول، وذلك لتوصياته الخاصة بأهمية استخدام اللغة الوطنية في انجاز البحث الميداني: إذ يقول "**إنَّ نتحدث عن ماليزيا دون معرفة اللغة الوطنية لهو أمر غير مأمون يماثل تمامًا الحديث عن الآثار اليونانية دون معرفة شيئًا عن اللغة اليونانية" (Hocart,1925:229)**، ولقد عجج أعماله بالاحالات المكثفة إلى التعبيرات والمفاهيم الوطنية، ووضع عددًا من المقالات حول اللغة الفيجية(Hocart,1915;1913;1912)، ووصف رد فعل الفيجيين على الكلمتين الجديدتين اللتين جلبهما المُنصرون (وهما كلمتي Tevoro، أو الشيطان، وكلمة Timoni، أو العفريت)، وكيف عاشت معتقداتهم الأقدم رغمًا عن أنف المُنصرين، وأبدى احترامًا بالغًا للمقولات الوطنية كمقولات متميزة عن تلك المقولات التى يفرضها الباحثون الأنثروبولوجيون

المتحاملون على الأدلة الإثنوجرافية حين رفضوا نظرية "امتدادات" مصطلحات القرابة [1937] التي سنناقشها في الجزء الثالث من هذا الكتاب.

ولكن، بالرغم من الإعجاب الذي أثارته الأعمال اللغوية عند **هوكارت**، فقد عانت من كونها نتاجًا لاهتمامات العصر، وللإرث النظري الذي ورثه هذا العصر من القرن التاسع عشر، ومن ثم فقد تحولت المقالات اللغوية التي كتبها حول معاني بعض الكلمات إلى مجرد سرديات تاريخية ظنية تدور حول الهجرات المحتملة لها، ولنقارن نهج **هوكارت** هذا مع التحالف الذي عقده **ريفرز** بين "الإيتمولوجيا" و"الانتشار" الذي سبقت الإشارة إليه**(Rivers,1911)**. وعلاوة على ذلك، فقد توصل **هوكارت**– في أحد الأبحاث التي قام بها حول الأصول اللغوية– إلى أحد الاستنتاجات المضحكة التي سبق أن توصل إليها **فريزر**: "**سوف نعثر على صيغة جمع التأدب Polite Plural بين الشعوب التي كان حكامها ملوكًا مقدسين، أو التي تأثرت بشعوب كان حكامها كذلك**" **(Hocart,1924)** ، وعلى أية حال، فإنَّ من حق **هوكارت** علينا أن نقول إنَّ إيتمولوجياته كانت معتدلة إلى حد كبير، هذا علاوة على أنه لم يكن، مألوفًا، بين الأنثروبولوجيين في هذا العصر طرح قضية أصل صيغ جمع التأدب، أو أخذها بعين الاعتبار.

أما العلامة البارزة الأخرى التي تميز بها عصر التحول فقد تمثلت في اهتمام **هوكارت** المتواصل بالبحث عن الخطة التطورية، واعتقاده في إمكانية اقتفاء أثر الأعراف والمعتقدات حتى نصل إلى أصلها الواحد المشترك، وكان هذا الأصل الواحد المشترك (المفترض) قد انحدر بفعل عملية التوالد المادي، وفي ذلك يقول: "**في الوقت الحالي قد يختلف إلهُنا عن الإله الفيجي "Vu"، ومع ذلك فإنَّني علي ثقة من نشأتهما كلاهما عن النموذج الأصلي النائي ذاته، وبالطريقة نفسها قد يختلف– الآن– تمييزنا بين "الطبيعي" و"الخارق للطبيعة" عن تمييز الفيجيين بين "tamata" و"Kalou"، أو تمييزهم بين "wala" و"mana"، ومع ذلك، ليس ثمة سبب واحد يدفعنى إلى الشك فى أن هذه التمييزات غير متماثلة تطوريًا، إذ أن تماثلها التطوري يقدم لنا إحدى الفرضيات الصالحة للعمل**"**(Hocart,1932)** .

لقد اعترف **هوكارت** صراحة في مقال له خصصه لمناقشة فكرة الـ"مانا" بأن مدخله التطوري كان تقليدًا أمينًا للنموذج التطوري الناجح الخاص بعلماء اللغة المقارنين: "**لو سلَّمنا بتطور هذه**

المعتقدات عن المصدر ذاته، فإنَّ علينا أن نستثمر فورًا فكرة "مانا" بشكل جديد، إنَّ الأمل الوحيد الباقي للدين المقارن يتعلق بنجاحه فى انتهاج نهج الفيلولوجيا المقارنة، أي أن يقوم الدين المقارن بجمع المفاهيم (الدينية) ذات الأصول المشتركة من سائر انحاء العالم، والمقارنة بينهـا، بهـدف التوصـل إلى الأصـل المشتـرك الـذي نشـأت عنـه جميـع هـذه المفاهيم"(Hocart,1922:140) .

واقتبس مثالي الأخير لأفكار عصر التحول من الخطاب الرئاسي الذي ألقاه **ريفرز** أمام المعهد الأنثروبولوجي الملكي بعنوان "وحدة الأنثروبولوجيا"، وهو الخطاب الذي نُشر بعد وفاته في عام 1922، ولقد تناول فيه علاقة الأنثروبولوجيا بغيرها من العلوم الاجتماعية الأخرى بما فيها علم اللغة، وأكد على قدرة الباحث الفيلولوجي على مد يد العون للأنثروبولوجيا، وإمكانية استخدام الأدلة اللغوية في التوصل إلى انتشار الأشياء، ومع ذلك، فإنَّ الباحث الفيلولوجى لم يدرك- في رأيه- أن بمقدور الأنثروبولوجيا أن تمد يد العون له أيضًا، حيث يستطيع في ماليزيا- على سبيل المثال- أن يعثر على التغيرات الصوتية الحادثة بالفعل، وهنا يردد **ريفرز** النظرية الخاصة بالأصوات غير المشتقرة في اللغة البدائية: "**هكذا لن يعثر الباحث الفيلولوجى في ماليزيا على حروف صحيحة (مثل p و t و k ، أو b و f ، أو p و f أو g و k) فقط، وهي حروف يستخدمها الرجل البدائي في كلامه- عادة، وإنَّما سيسمع أيضًا تلك الأصوات الواقعة بينها، وهي أصوات تجعل من الصعب جدًا على المرء أن يعين الأصوات الصحيحة حين تنطق"** **(Rivers,1922)**

لقد اعتقد **ريفرز** أن اقتران دراسة اللغة بالدراسة الأنثروبولوجية يمكن أن يساعد في تفسير أصول الظواهر اللغوية المميزة (مثل صيغ التذكير والتأنيث) داخل العائلة الهندوأوروبية، واللغات السامية Semitic واللغات الحامية Hamitic، وفي تفسير الزوائد التصنيفية في عائلة لغات البانتو Bantu، وهي قضايا لم يكن لها وجود في أنثروبولوجيا القرن التاسع عشر، وعلي أية حال يجب أن نلاحظ أن **ريفرز** كان الوحيد الذي افترض- في هذا العصر وجود ارتباط وثيق بين أحد أشكال علم اللغة والأنثروبولوجيا، وبالرغم من ذلك لم يبدو لهذه الفكرة أي أثر في الخطاب الذي ألقاه **داريـل فـورد** D.Forde في عـام 1948 أمـام الجمعيـة الأنثروبولوجيـة الملكيـة حـول أحـد

الموضوعات المماثلة: "التكامل بين الدراسات الأنثروبولوجية"، بل أن **فورد** لم يشر في هذا الخطاب إلى اللغة على الإطلاق، وقد أشار **ريفرز** في خطابه الرئاسي إلى مقال **مالينوفسكي**: "الأدوات التصنيفية في لغة كيرونيا"**(Malinowski,B.;1920)** ، ولعل تلك الإشارة تمثل بذاتها أوضح العلامات المبكرة لحدوث التحول في ذلك الحين: "**لقد أثبت مالينوفسكي فى أحد أبحاثه مدى ارتباط دراسة اللغة بدراسة مختلف مظاهر الموروث الاجتماعي الأخرى، ولقد أدي فشل الأنثروبولوجيين في إدراك العلاقة الوثيقة القائمة بين الفيلولوجيا وبقية فروع الإثنولوجيا إلي عدم وجود نظرية لغوية ملائمة يمكن استخدامها بوصفها مرشدًا في جمع المادة الإثنوجرافية" (Rivers,1922:21)**

– اللغة والأنثروبولوجيون الأوائل:

ولعل السبب الوحيد الذي دفع الأنثروبولوجيين البريطانيين الأوائل للنظر للغة بوصفها مجالًا من الدراسة يقع خارج نطاق تخصصهم كان علم اللغة ذاته، ففي الوقت الذي كانت الأنثروبولوجيا البريطانية لا تزال تبحث فيها بخطي حثيثة عن قواعد نهجها الأنثروبولوجي الخاص، كان علم اللغة قد أصبح بالفعل علمًا مستقلًا راسخًا، ولذلك لم يهتم الأنثروبولوجيون البريطانيون بتطوير مدخل أنثروبولوجي لدراسة اللغة، وذلك لأنهم سلموا بأنه مدخل قائم بالفعل، ومن ثم، فإنَّهم اعتمدوا– حين كانوا يقحمون علم اللغة في الدرس الأنثروبولوجي– على المقولات والنظريات الهندوأوروبية، ولم تتعد معرفتهم في هذا الميدان معرفة الأفكار التي طرحتها أعمال علماء الهندوأوروبية الأوائل. وكما يشير **أردنر** Ardener إلي أن المدخل الدقيق الذي ارتبط بعلماء علم اللغة المقارن المتأخرين كان مجهولًا بين الأنثروبولوجيين البريطانيين الأوائل، على فرض أنه كان مدخلًا متخصصًا وتقنيًا: "**لم تترك الحركة الفيلولوجية التي ظهرت فى سبعينات القرن الماضي بقيادة بروجمان وزملائه أي أثر، وعاش النحاة الجدد وماتوا دون أن تشعر الأنثروبولوجيا الاجتماعية البريطانية بهم"(Ardener,1971:x)**، والمفارقة هنا هو أن **موللر**– الكاتب الوحيد في العصر الذي أفاد من النظرة الأنثروبولوجية للغة– لم يكن عالمًا أنثروبولوجيًا أصلًا، وإنَّما كان أحد

المتخصصين في مجال علم اللغة الهندوأوروبي، ولا تزال لأفكاره الخاصة بالعلاقة بين اللغة والأنثروبولوجيا صلة وثيقة بالأنثروبولوجيا الاجتماعية في وقتنا الحاضر.

وبالرغم من ذلك، فقد أصبح للغة- قبيل نهاية هذا العصر- أهمية عملية لدي بعض الأنثروبولوجيين، ولدي غيرهم ممن اهتموا بالأنثروبولوجيا، ولقد بشرت الأعمال المنشورة- في ذلك الحين- بظهور إحدى التوجهات الجديدة في علم اللغة الأنثروبولوجي، ومن المؤكد أنه لو قدر وشغلت "اللغة" في الأنثروبولوجيا البريطانية الموضع نفسه الذي شغلته في الأنثروبولوجيا الأمريكية فى العصر نفسه، أو في العصر الذي تلاه، لأصبح هذا العصر "العصر الأمثل" في تاريخ الأنثروبولوجيا البريطانية لحدوث التطور، إذ لم تكن الأنثروبولوجيا البريطانية قد انفصلت بعد عن النظريات اللغوية (التطورية) القديمة، ومن ثم، فقد كانت أكثر عرضة للتأثر- كما هو مفترض- بالنظريات اللغوية (البُنيوية) الجديدة، ولذلك لم يتحقق الوعد المبشر بالتوجه الجديد قط، وعلى أية حال، إذا نظرنا إلى الأنثروبولوجيا الاجتماعية البريطانية بصفة عامة- بدلًا من التركيز على مْنّ اهتم من الأنثروبولوجيين باللغة فقط- سندرك فورًا أن النفوذ الذي مارسته التقاليد البريطانية ذاتها- في هذا العصر- كان يمنع من حدوث مثل هذا التطور .

لقد تجاهل الأنثروبولوجيون الأوائل ابتداء من **تايلور** قضية اللغة، والمكانة الأنثروبولوجية التي تتمتع بها تمامًا، وفي السنوات الأخيرة من العصر علق **فريزر**- على استحياء- علي المستوي العملي لاستخدامها في الأنثروبولوجيا، بأنه قد فضل الأدلة الإثنوجرافية التي قدمها المُنصرون عن مثيلها التي تُنسب للرحالة، حيث واتت المُنصرون- كما ذهب- فرصة لمعرفة اللغات الوطنية علي نحو أفضل مقارنة بالرحالة**(Frazer,1921:244)**، ولم ينس أن يثني علي استخدام **مالينوفسكي** للغة الوطنية في إنجاز بحثه الإثنوجرافي**(Frazer,1922)**، ودافع عن استخدام بعض الكلمات الوطنية (كلمتي "طوطم" و"تابو") بوصفهما مصطلحين وصفيين، أما **روبرتسون سميث** فقد قام عام 1889 بتحليل المصطلحات اللغوية وأهميتها للأنثروبولوجيا، إلَّا أنه التزم مع ذلك في هذا التحليل بالتقاليد الخاصة بتفسير الإنجيل**(Robertson-Smith,1989)** .

وهكذا لم تقدم الأنثروبولوجيا الاجتماعية البريطانية المبكرة بسبب افتقارها إلى البراهين اللغوية الموثقة وتقنيات إثباتها أي شئ يماثل- ولو من بعيد-أية نظرية سوسيولوجية في اللغة، ولم

يكن الأنثروبولوجيون الأوائل يدركون إمكانية عقد المقارنة بين اللغة والظواهر الثقافية والاجتماعية الأخري، أو أن بناءها يمثل نسقًا مستقلًا بذاته، ومن المعلوم أنهم قد شنوا غارات متقطعة على النظريات اللغوية التي ظهرت في هذا العصر، إلَّا أن النتائج لم تكن مثمرة، ولقد تأكد في السنوات الأخيرة من العصر انعزال الأنثروبولوجيين البريطانيين عن النظرية اللغوية المتطورة في الأنثروبولوجيا الأمريكية، وتأكد بقاء التقاليد الأنثروبولوجية البريطانية علي حالها لا يعكر صفوها شيء، فقد ساد الأنثروبولوجيا الاجتماعية البريطانية طوال هذا العصر تجاهل عام للغة، ومحتوياتها الأعمق فيما يتعلق بدراسة المجتمع والثقافة علي حد سواء.

الجزء الثاني

مالينوفسكي: النظرية الإثنوجرافية واللغة

– تأثير مالينوفسكي فى علم اللغة:

لم يكن **مالينوفسكي**، كما تبين في الفصل السابق، أول مْنّ أقام من الأنثروبولوجيين نظرياتهم بناءً علي البحوث الإثنوجرافية الميدانية التي أجروها بأنفسهم، أو أول مْنّ استخدم منهم اللغة المحلية في إجراء بحوثه الميدانية، وإنَّما كان واحدًا من أوائل مْنّ قام من العلماء بتنفيذ خطة الإقامة المطولة بغية إنجاز البحث الميداني المكثف (وقد سبقه في هذا المجال **رادكليف براون**، وهو العلامة الثاني المهم في هذا العصر)، ولقد زعم أنه ابتكر المناهج الميدانية التى استخدمها أثناء الفترات التي أقامها بين أهالي جزر التروبرياند Trobriands.

لقد قام **مالينوفسكي** بثلاث بعثات ميدانية إلي منطقة غينيا الجديدة، استغرقت البعثة الأولي الفترة من أغسطس 1913 إلي مارس 1915 (وهو لم يقم خلال هذه الفترة بزيارة جزيرة كيروينا Kiriwina قط)، وامتدت البعثة الثانية من مايو 1915 إلي مايو 1916، أما البعثة الثالثة فقد امتدت من أكتوبر 1917 إلي أكتوبر 1918، وخلال تلك الفترات: "**عاش الدكتور مالينوفسكي بين الأهالي بلا انقطاع، ملاحظًا لهم أثناء عملهم، ولهوهم، ومتحدثًا معهم في لسانهم المحلي، ومستخلصًا معلوماته الإثنوجرافية من المصادر الوثقي، كالملاحظات الشخصية، والإفادات الفورية التي يقدمها له الأهالي مباشرة بلغتهم الخاصة دون تدخل من المترجمين**"**(Frazer,1922:vii-viii)**

لقد استهل **مالينوفسكي** بحثه الميداني فوق جزيرة كيروينا باحصاء للسكان، ولقد قام بجمع بعض من أشجار النسب المحلية، مستعينًا فى ذلك برطانة إنجليزية، إلَّا أن ذلك كله قد ظل، في رأيه، مادة ميتة**(Malinowski,1922:5)**، ومع ذلك، فقد "**اكتسب بشكل عفوي**، مع تقدمه في بحثه الميداني، **معرفة عميقة باللغة المحلية**(Ibid.,:xvi)"، ولقد **فطن**، آنذاك، إلى **عدم قدرة الباحث الإثنوجرافي** على إدارة بحثه الميداني **إلَّا من خلال اللغة الوطنية**، ويتضح لنا (سواء في كتاباته الإثنوجرافية، أو من تصريحه في مقال "سكان جزر الملايو": "**اعتذر عن التصريح باعتزاز عن مهاراتي في اكتساب براعة التحدث باللغات الأجنبية**")، أنه كان يتمتع بموهبة كسب اللغات الأجنبية، وهو ما يفسر سبب تمسكه الشديد بأهمية اللغة الوطنية للباحث الإثنوجرافي.

ولكن فعلي الرغم من افتخاره الصريح بقدرته علي تعلم اللغات والتحدث بها، وفهمها في فترة قصيرة نسبيًا، فقد اعترف بنقص مؤهلاته اللغوية **النظرية** أيضًا، إذ قال: "**خلال إقامتي الأولي في كيروينا 1915–1916 كنت أعاني من غياب الاعداد اللغوي، ولئن نجحت في التقاط اللغة المحلية بسهولة تامة، أخفقت في كتابة قواعدها النحوية**"**(Ibid.,:xvi)**، ولذلك حرص قبل استهلاله للبعثة الميدانية الثانية علي القراءة بعض الشيء في علم اللغة، ولقد علق على ذلك بقوله: "**أثناء زيارتي الثانية لأهالي التروبرياند استطعت مشاهدة الحقائق اللغوية التي لم تكن تمثل لي أي شيء، من قبل، إلَّا الغموض، وأصبح بمقدوري، حينذاك، الكتابة في علم اللغة، هذا وإن اخفقت في ذلك من قبل**"**(Malinowski,1915;501)**، لقد زعم في الوقت الذي وضع فيه كتاب "حدائق المرجان" (1935) أنه **قرأ في علم اللغة** أكثر مما قرأ في أي فرع آخر من فروع الأنثروبولوجيا، وذلك بهدف وضع نظرية إثنوجرافية في اللغة.

لقد كان **مالينوفسكي** في نظر **هايمز** D.Hymes بمثابة "**الأب الذي أوجد الاهتمام باللغة داخل الأنثروبولوجيا الاجتماعية البريطانية المعاصرة**"**(Hymes,1964:4)** ، ولقد أعلن **تامبيه** S.T.Tambiah منذ فترة في محاضرة له ألقاها لإحياء ذكراه ما يلي: "**لقد أصبحت الأنثروبولوجيا الاجتماعية في السنوات الأخيرة علي وعي تام بالصلة الوثيقة بينها وبين علم اللغة، والتقدم النظري الذي يمكن أن تحققه في هذا المضمار**"**(Tambiah,1968:175)**، ومن المؤكد أن **مالينوفسكي** قد فَطِنَ للصلة الوثيقة القائمة بين العلمين بقدر أعمق من معظم خلفائه، ولقد نجح في وضع نظرية إثنوجرافية للغة، قد انبثقت عن بحثه الميداني، وبالأخص عن اهتمامه بالسحر عند أهالي جزر التروبرياند. والآن يحق لنا أن نتسأل عن القيمة الحقيقية لنظريته اللغوية، وعن التأثير الفعلي الذي مارسته علي مسار الأنثروبولوجيا الاجتماعية البريطانية، وفي ظهور الأفكار الجديدة المتصلة بموضع علم اللغة داخل الأنثروبولوجيا البريطانية. إذا أخذنا مثل هذه الأسئلة في الاعتبار يجب أن نتذكر الصلة الوثيقة التي جمعته و**فيرث** J.R.Firth منذ بداية الثلاثينيات من القرن العشرين. فقد أصبح **فيرث**، في عام 1944، أول أستاذ لعلم اللغة العام بجامعة لندن، وفي بريطانيا، ولقد أسس إحدى المدارس المهمة في علم اللغة، وهي مدرسة لندن في علم اللغة، وتتلمذ علي يديه هناك معظم أساتذة علم اللغة البريطانيون المعاصرون، ولقد حضر

فيرث السيمنارات التي كان يعقدها **مالينوفسكي** حول علم اللغة في أوائل الثلاثينيات، ومنذ ذلك الحين بدأ كل منهما في التأثير في أفكار الآخر، والمهم في هذا المقام أن تلك السيمنارات التي شهدت الاحتكاكات الأولية بينهما، أو بين أفكارهما حول مبحث اللغة والمعنى، قد قامت بالدور الأكبر في جذب المريدين وإلهامهم، بقدر يتجاوز الدور المفترض لأي عمل من أعمالهما المكتوبة في هذا الشأن[1].

ويجب علينا أن نأخذ بعين الاعتبار- أيضًا- تلك الأفكار التي قدمها **لانجندون** T.D.Langendoen (التلميذ السابق لـ**نوعام تشومسكي**) حول العلاقة بين **مالينوفسكي** و**فيرث**، لأنه قدم في أطروحة الدكتوراة (التي نشرت عام في 1968 بعنوان "مدرسة لندن في علم اللغة") أولى الاعترافات الخارجية (غير البريطانية) بالتطور البريطاني المتميز في هذا المجال، وسوف ألخص في بداية هذا القسم نظريات اللغة عند **مالينوفسكي**، كما تمثلت في أربعة من أعماله المنشورة المرتبطة بالموضوع، وهي على التوالي: "الأدوات التصنيفية في لغة كيرونيا" (1920)، و"الأرجونوتس في المحيط الباسفيكي" (1922)، و"مشكلة المعنى في اللغات البدائية" (1923)، وأخيرًا "حدائق المرجان والسحر" (1935). وهو نهج سبق وأن تبناه **لانجندون** نفسه في أطروحته المنشورة، لأننا نري أن من المهم عرض النظريات اللغوية عند **مالينوفسكي** بالتفصيل، وذلك من أجل التصدي لمناقشة **لانجندون** لها.

- "الأدوات التصنيفية" (1920):

ويمثل هذا المقال العمل الوحيد من بين كافة الأعمال المنشورة لـ**مالينوفسكي** الذي تناول فيه بشكل شامل إحدى قضايا الوصف اللغوي، ولقد فضح المقال نقص مؤهلاته اللغوية النظرية- في ذلك الحين- مقارنة بالفصل الذي خصصه للغة كيروينا- أيضًا- في كتاب "حدائق المرجان"، وهو فصل تميز بعمومية تجاوزت خصوصية هذا المقال، لقد شرع **مالينوفسكي** في هذا المقال في رصد الأدوات التصنيفية لتركيب الأعداد، وصيغ الملكية، والنعوت كما وجدها في لغة

---

[1] **انظرعلى سبيل المثال: جون روبرت فيرث (1957)، وف.ر.بالمر (1968).**

كيروينا، ووصفها، وتفسيرها، لقد وجد أنها تتباين وفقًا للأسماء التي تتقيد بها وتتكيف معها، ولقد وضع قائمة طويلة لهذه الأدوات والأسماء، زاعمًا أنها تمثل قائمة كاملة للأدوات التصنيفية، وأنماط الأسماء التي ارتبطت بكل أداة منها في تلك اللغة، ولقد قدم لتلك القائمة من الأدوات التصنيفية والأسماء بالفقرة التالية: "**التزامًا لمبدأ خطأ تقديم الأمثلة فحسب فيما يتعلق بظواهر اللغة، والتزامًا لتقديم احصاء كامل لظواهر اللغة بصرف النظر عن أهميتها، حرصت علي تسجيل الأدوات جميعها، هذا مع الاعتراف باحتمال غياب عددٍ ضئيلٍ من الأدوات القديمة عن إدراكي، ومع هذا الاحتياط، يمكن التسليم بأن هذه القائمة تمثل احصاءً كاملًا لهذه الأدوات، وليس مجرد تمثيل جزئي لها وحسب**"(Malinowski,1920:44)

وعلى أية حال لم يتواصل هذا النهج الذي ادعاه **مالينوفسكي** فى معالجته للأدوات حتى الإنجاز، على فرض أنه قام بتجميعها بحسب تمثيلات غامضة للمعاني، ولم يحاول- في الوقت نفسه- تقديم أي تعريفات بنائية لها، وإذ توهم أن تلك الأدوات غير حصرية بالتبادل، لم يحاول بحثها خارج هذا النطاق، ولقد اكتفى بأن يشرح للقارئ كيفية عملها ب**ترجمتها** إلى شكل عديم المعنى من اللغة الإنجليزية مثل: Khuman-one soldier walks in the street (Ibid.,:44)، ولقد لجأ للمادة الإثنوجرافية من أجل تفسير المعاني التي توهمها في مختلف التصنيفات التي حددتها تلك الأدوات، وزعم أن عدم استخدام التروبرياندين للأدوات في "عدَّ" ثمار اليام Yams (نوع من البطاطا) يعود إلى أن إنتاج هذه الثمار وفرزها، يُعدُ بذاته من أكثر النشاطات الثقافية السائدة بينهم أهميةً وتبجيلًا، ومن ثم كان "**عدُّ ثمار اليام وفرزه يمثل بين التروبرياندين العدَّ الأهم بلا منازع**"(Ibid.,:43) ، ولقد تواصلت تلك المعالجة الإثنوجرافية في تناوله لاستخدام الأدوات في عدِّ عناقيد الجوز المعلق، والفواكه الأخري.

إنَّه بالرغم من اهتمامه بإحدى التفاصيل الخاصة بلغة كيروينا، فقد استغل هذه التفاصيل للتوصل إلى بعض الإيضاحات العملية العامة، كشف بها عن أحد الإيضاحات الخاصة لاعتقاد الباحث الوظيفي، وهو ما تظهره الفقرة التالية: "**تخدم مختلف مظاهر الحياة القبلية بعضها البعض، بحيث يؤدى الفصل بينها إلى تشويهها بالكامل، وليست اللغة استثناء من ذلك ألبتة**"(Ibid.,:53) ، ولقد اعتقد أن المظهر البارز في أية دراسة للغة ينحصر فيما تلقيه من

ضوء على علم النفس الاجتماعي الخاص بالمتحدثين بها، واستنادًا إلى ذلك، اعتقد أن اللغة **تمثل الانعكاس "المنظور" للفكر**، ولكنه لم يكن متأكدًا من ذلك، لأنه كتب: "**علاوة على ذلك، فإننا لم نفهم تمامًا حتى الآن طبيعة الارتباط القائم بين بناء اللغة وعلم النفس الاجتماعي، أو الكيفية التي يمكن للغة أن تلقي بها الضوء على العقلية البدائية**"(Ibid.,:33)

وعلى حين أخبرنا بأنه قرأ **فون همبولت** Von Humboldt (1836)، وأنه انجذب لوجهات نظره فيما يتعلق بالعلاقة بين اللغة والمتحدثين بها، لم يقرر بشكل واضح مدى تسليمه بتلك القضية، ولقد علق أثناء مناقشته لبعض الأدوات على تلك القضية بقوله: "**من الواضح أن هذا التصنيف المباشر للأدوات لا يعتمد على أي معيار منطقي، ولهذا يمكن لنا أن نقرر بكل اطمئنان أنه لم يتضمن أية نظرية ميتافيزيقية كلية تعادل نظرة البدائيين للأدوات ذاتها، وعلاوة على ذلك، فإنَّ الانتقال الفجائي من هذه النتيجة إلى أي استنتاج يناقضها، بغاية تأكيد عدم جدوى ما يلقيه نسق التصنيف من ضوء على علم النفس البدائي، يعدُ بذاته انتقالًا طائشًا تمامًا**" (Ibid.,:48) ، ويعكس هذا اللبث في الواقع القضية العامة عنده، إذ أن: "**ثمة حاجة ملحة لوجود نظرية لغوية– عرقية، نظرية تعمل على إرشاد البحث اللغوي الذي يتم بين الوطنيين مقترنًا بالدراسة الإثنوجرافية لهم**"(Ibid.,:69)

ويوضح مقال "الأدوات التصنيفية" بصفة عامة شعور كاتبه بأنه يعمل في خواء نظري، ولقد أشرنا إلى أنه حين ذهب للمرة الأولى إلى الميدان، لم يكن لديه أية نظرية لغوي تؤازره، ولم يتخلص– حتى بعد أن قرأ في علم اللغة (قبل أن يعود إلى كيروينا مستهلًا بعثته الميدانية الثانية)– من إحساسه بعدم وجود أية صلة وثيقة للأعمال اللغوية التي قرأها بالموقف اللغوي الذي اختبره في كيروينا.

لقد وصف لغة كيروينا بـ"**وطنية** native"، مبررًا استخدامه لهذا النعت في أحد الهوامش بقوله: "**لقد استخدمت كلمة "وطني" على أمل استخدام كلمة أفضل منها، ولعلي اقصد باستخدام تعبير "اللغات الوطنية" الإشارة إلى اللغات التي تتحدثها السلالات غير المتحضرة، وبالرغم من أن كلمة "متوحشة"، و"بدائية" كلمتان مرادفتان لكلمة "وطنية"، فإنهما لا تزالان**

غامضتين وغير ملائمتين، على الخلاف من كلمة "وطنية"(Ibid.,:34n.3) ، واستنادًا لهذا التسويغ، قد نفترض أنه اعتقد في إمكانية تصنيف لغة كيروينا ضمن اللغات المنطوقة في المناطق غير المتحضرة من العالم، أو عدَّها لغة مختلفة عن اللغات التي يطلق عليها اللغات الحديثة، لأنه بالرغم من **رفضه المعتاد لـالتأمل التاريخي**، فقد اقترح في المقال ذاته، أن اللغات "الوطنية" تمثل بذاتها مرحلة أكثر قِدْمًا في سلم التطور العالمي للغة، وأنها تمثل "**أثرًا من الآثار الحية الباقية عن اللغات الموغلة في البدائية التي لا تزال توجد حتى الآن في المجتمعات الوطنية الشبيهة"** **(Ibid.,:71)**

وهكذا لم تقدم النظريات اللغوية المعاصرة (بسبب اختلاف اللغات "الوطنية" عن نظائرها "الحديثة") مصدر العون الحقيقي له في وصف لغة كيروينا، على فرض أن إثبات علماء اللغة لوجود الهندوأوروبية الأصلية لم يكن يرتبط بوصف اللغة الكيروينية، وهو أمر كان ينطبق على الشروح التي قدمها علماء الفيلولوجيا للنصوص الكلاسيكية، أو للغات الحديثة، بل ولم تقدم الأبحاث العامة في علم اللغة أي عون حقيقي له كذلك، على فرض أنها اهتمت بـ**التصانيف النحوية الكلية**، دون التفاصيل النحوية للغات المستقلة، هذا علاوة على أن **مالينوفسكي** قد أثار إحدى القضايا المهمة، وهي أن كتاب من أمثال **فون همبولت**: "**قد تلقوا مادتهم اللغوية من يد ثانية"(Ibid.,:36)** ، وأكد على عدم ملائمة معظم التسجيلات السابقة للغات الوطنية، وفي ذلك يقول: "**كقاعدة عامة، علينا الاعتماد على الهواة أصحاب العزم الذين لم يخضعوا للتدريب اللغوي سواء كانوا من المبشرين، أم من الرحالة، أو من غيرهم"(Ibid.,:71)** ، وقد يثير موقفه التساؤل حول ما إذا كانت معالجته للتفصيلات النوعية لـ**لغة كيروينا** قد استوفت مراد بعض النماذج المقدمة من قبل هؤلاء الهواة، أو لم تستوفيها.

ومن المهم أن نذكر أن **مالينوفسكي** لم يطلع، في ذلك الحين، على الأبحاث الدائرة في القارة الأمريكية، حيث كان علماء اللغة الأمريكيون قد بدءوا بالفعل في وضع الإطار المناسب لـ**النظرية اللغوية العرقية**، ولقد اعترف **مالينوفسكي** بذلك في أحد الهوامش بقوله: "**ثمة كثير من الأبحاث الرائعة التي تجرى حاليًا على اللغات الوطنية الأمريكية، إلَّا أنني لم أطلع عليها"** **(Malinowski,1920:72n.1)** ، ومن ثم فقد تطورت أفكاره بالكامل عن تقاليد علم اللغة

الأنثروبولوجي البريطاني كما وصفته في الجزء السابق، وعلى أية حال لم يكن **مالينوفسكي** عالمًا لغويًا، ولم تُتح له إلَّا قراءة المصادر اللغوية ذاتها التي قرأها الجيل السابق من الأنثروبولوجيين البريطانيين، ولذلك إذا كنا نود فهم نظرياته اللغوية وتقويمها، من الواجب علينا أن نفهم أولًا إلى أي حد استطاعت تلك النظريات أن تلتزم الفكر اللغوي التقليدي.

لقد ظهر الصراع بين الفكر التقليدي والفكر المبتكر في مقال "الأدوات التصنيفية"، الذي عبر **مالينوفسكي** فيه بشكل واضح عن شكوكه في العلاقات القائمة بين المقولات النحوية التقليدية كالاسم والفعل والنعت ... إلخ، ونمط اللغة "الوطنية" التي يقوم بوصفها، وبالرغم من ابدائه هذه الشكوك، تواصل وصفه للغة الوطنية، وكأنه يصف اللغة اللاتينية، وذلك على أمل التوصل إلى مدخل ملائم لوصفها، ولقد حرص في وصفه للأدوات التصنيفية على إضافة إحدى الإيتمولوجيات الخاصة بها على كل أداة منها.

لقد اصطدم **مالينوفسكى** بمشكلة تفسير الأدوات التصنيفية، نظرًا لافتقاره إلى المهارات اللغوية اللازمة لتفسيرها، وقد اضطر إلى ربط تفسيرها بالمعنى، ورأى أن تطوير أية نظرية إنَّما يعتمد على المعنى، إذ يقول: "**عند تطوير علم الدلالة فقط يستطيع الباحث الإثنوجرافى أن يلتمس العون الحقيقي منه**"، ولقد وازن في هذا التصريح بين **النظرية اللغوية الدلالية** ومدخل **الحس المشترك**، وتطلع إلى علماء اللغة ملتمسًا للعون منهم، وقرر: "**على علماء اللغة إثبات إلى أي حد يرتبط المعني بالأشكال النحوية**"**(Ibid.,:35)** ، على فرض أن النظرية الدلالية سوف تجيب على التساؤل حول ما إذا كانت بعض المقولات النحوية مقولات عالمية أو لا ؟، وفي ذلك يقول: "**إذا ثبت أن لأقسام الكلام وما عداها من الحالات النحوية دلالات أعمق ترتبط بالتمييزات الفعلية للتفكير الإنساني، والنظرة الإنسانية الكلية، فإنَّ علينا أن نكتشف هذا الارتباط من الآن وإلى الأبد، وحين ننجح فى الكشف عن الأشكال اللغوية الجديدة، سيكون بمقدورنا أن نقرر معانيها فى علاقتها بعلم النفس، أو علم النفس الاجتماعي الخاص بهذه الأمة، أو تلك**"**(Ibid.,:66)** ، ولقد اعتقد- فيما يبدو- في وجود "**مقولات ثابتة**" للفكر، واعتقد في أنها **مقولات عالمية** كذلك، ولقد تطلع إلى فهم كيفية انعكاس هذه المقولات في اللغة**(Ibid.,:77)** .

لقد أثبت **مالينوفسكي** في استنتاجه الختامي إلى أي حد اعتمد في تطويره لبرهانه على بحث المعنى، إذ قرر: **"لقد كنا نعود دائمًا فى وصفنا النحوي بأكمله إلى المعنى"، (Malinowski,1920:78)** ، ومع ذلك فقد كان المعنى في سياق اللغة "الوطنية" يقضي باللجوء إلى الوصف الإثنوجرافي دائمًا، وهكذا **"يُعد علم اللغة دون الإثنوجرافيا علمًا رديئًا مثلما تُعد الإثنوجرافيا بدورها بعيدًا عن ما تلقيه اللغة من ضوء عليها علمًا رديئًا كذلك"(Ibid.,:78)** وفي إشارة موجزة يقول: **"يمكنني أن أقرر فورًا أن لدى نظرية دلالية مستقلة، والشيء الوحيد الذي أدين به لهذه النظرية الدلالية هو أنها أشعرتني بمقدرتي على أن أمنح قدرًا من الاتساق لاستنتاجاتي النحوية"(Ibid.,:74)**، هل كان **مالينوفسكي** يقصد بـ"النظرية الدلالية" نظريته المتعلقة سياق الحال.؟. من الثابت أنه، وإن أكد على أهمية القرينة السياقية الإثنوجرافية، من الصعب علينا فهم كيف ساعدته نظريته في سياق الحال (حتى في شكلها المتطور) في التوصل إلى أي استنتاجات نحوية بالمعنى الدقيق.

على أية حال، لقد ظهر اهتمامه بالمعنى- وهو الاهتمام الذي كان يمثل إحدى العلامات المميزة له في كافة كتاباته المتأخرة- في هذا البحث المبكر، ولقد رأي في "المعنى" الحل الأمثل لجميع المشكلات التي يصادفها الباحث الأنثروبولوجي غير المدرب في علم اللغة، ونتيجة لذلك حاول إدراج "اللغة" في دراسته الإثنوجرافية، على أمل التوصل إلى نظرية لغوية جديدة تلائم معالجة تلك القضايا اللغوية الجديدة بالتحديد.

- "الأرجونوتس في المحيط الباسفيكى" (1922):

ويمثل هذا الكتاب البحث التمهيدي من سلسلة الأبحاث التي وضعها **مالينوفسكي** مستعينًا بالمادة الإثنوجرافية التي جمعها بنفسه من جزر التروبرياند، ويهتم الكتاب- في الأساس- بنظام الـ**كولا Kula**، إلَّا أنه يقدم في الوقت نفسه مقدارًا كبيرًا من المادة الإثنوجرافية التي اشتملت على بعض الملاحظات المهمة حول "اللغة"، ويحتوي فصلًا خصصه لـ"قوة الكلمات في السحر: بعض المعطيات اللغوية"، ويتضمن على كثير من الإشارات اللغوية الأخرى التي تناثرت فى ثنايا الكتاب- كذلك.

في الفصل التمهيدي من هذا الكتاب يؤكد **مالينوفسكي** على أهمية التسجيل الفوري للإيضاحات، أو للإفادات التي يقدمها الوطنيون للباحث الإثنوجرافي، ويذكر أن الأنثروبولوجيين العظماء (**هادون** Haddon، و**ريفرز** Rivers، و**سليجمان** Seligman) قد حاولوا اقتباس الإفادات اللغوية، وتسجيل المصطلحات الوطنية، وبإمكان الباحث الإثنوجرافي أن يخطو خطوة إضافية في هذا المجال إذا حرص على "**كسب اللغة الوطنية، واستخدامها بوصفها أداة لإجراء البحث الميداني**"(Malinowski,1922:23) ، ولقد كان تعلم الباحث الإثنوجرافي للغة الوطنية، وحرصه علي استخدامها كأداة للبحث يمثل- في رأيه- **الاختلاف الرئيسي بين نمط** الأبحاث الميدانية التي قام بها الإثنوجرافيون السابقون، **ونمط** البحث الميداني الخاص به، ولقد كان لتأكيده على تلك الفكرة نتائج مهمة بين الجيل التالي من الأنثروبولوجيين البريطانيين، فقد وصف **مالينوفسكي** فى هذا الفصل التمهيدي كيف كتب ملاحظاته الإثنوجرافية بـ**اللغة الكيروينية الوطنية**، وكيف تنامت تلك الكتابة لديه شيئًا فشيئًا كلما تزايدت معرفته بهذه اللغة، ولقد رأي أن أهمية النصوص التى جمعها من اللغة الكيروينية (سواء له، أو لغيره ممن يهتمون باستخدامها) لا تقل بأية حال عن أهمية النصوص المتبقية من مختلف اللغات القديمة التي يعكف على بحثها علماء الأركيولوجيا والمهتمون بالكلاسيكيات، ولقد أطلق على النصوص الإثنوجرافية التى جمعها تعبير "حصيلة النقوش الكيروينية"، وتعهد بنشرها منفصلة في وقت لاحق [1]

وفى أسلوب معبر قرر **مالينوفسكي** أن النصوص الكيروينية تمثل وثائق مهمة للعقلية البدائية(Ibid.,:24) ، وهو ما يوحى بأنه كان يعتنق وجهة النظر التقليدية للغة التي تقر بأن اللغة ليست إلَّا التمثيل الظاهر للفكر، ولقد أثبت ذلك بالفعل في بعض صفحات الكتاب، فقد ذهب- على سبيل المثال- إلى وجود ثلاثة مظاهر رئيسية تميز المادة الإثنوجرافية التي يقوم الباحث الإثنوجرافي بجمعها، وأن على الباحث الإثنوجرافي أن يعمل جاهدًا لتحقيق الالتحام اللازم بينها، وتقديمها في كل متناسق، على فرض أنه في تلك المادة يوجد **أولًا**: العرف والتقاليد الملزمة، ويوجد **ثانيًا**: الطريقة التى يتصرف بها الأهالي الوطنيون بالفعل، أو عدم التوازن في الحياة الفعلية للوطنيين

---

[1] **وبالفعل، لقد نشرت هذه النصوص في المجلد الثاني من كتاب "حدائق المرجان" عام 1935.**

(Ibid.,:24) ، ويوجد **أخيرًا** التفسيرات التي يضمرها "**عقل**" الوطنيين(Ibid.:22)، ولنلاحظ استخدامه لكلمة "**عقل**" **بصيغة المفرد** للدلالة على الجمع، فلكي يحصل الباحث الإثنوجرافي على التفسيرات الوطنية، عليه التسجيل الفوري لكل ما يقوله الوطنيون.

وعلاوة على ذلك، فإنَّه لم يكن متأكدًا في هذا الكتاب من طبيعة العلاقة بين الفكر واللغة– أيضًا، وقد زعم في بعض الصفحات أن مهمة الباحث الإثنوجرافي تنحصر في البحث عن قوالب الاتجاهات العقلية الوطنية، وأن تلك القوالب قد تكيفت مع النظم الاجتماعية التي يعيش بها الشعب من ناحية، ومع الأداة الحقيقية الناقلة للفكر الوطني– أي اللغة– من الناحية الأخرى (Ibid.:23)، وهو زعم يثبت اعترافه بأن اللغة تمثل إحدى الظواهر الثقافية المستقلة، هذا مع أنه أنكر– في الفصل الذي خصصه للسحر– اعترافه السابق باللغة بوصفها ظاهرة ثقافية مستقلة، ولم يحاول تحديد العلاقة بين اللغة والفكر، ولقد أظهر تأرجحًا واضحًا بين اعترافه بوجود هذه العلاقة وإنكاره لها، وهو ما توضحه الفقرة التالية: "**مثلما يمكننا اختزال القوانين، والأعراف السائدة من السلوك الممارس، ومثلما يمكن لنا التوصل إلى المعتقدات عن طريق الطقوس، هكذا الأمر عند تحليل التعبيرات اللفظية الفورية، حيث يمكننا التوصل عن طريقها إلى بعض نماذج التفكير الوطني. إنَّ لدينا المسوغ الكافي لافتراض قيام نماذج التفكير هذه بتوجيه تفكير مَنْ قاموا بصياغة الصيغ السحرية، إنَّ الطريقة التي يجب علينا أن نتصور بها العلاقة بين طريقة التفكير النمطية في المجتمع، والنتائج المتبلرة المرتبة عليها تمثل في الواقع إحدي المشكلات في علم النفس الاجتماعي، وفيما يتعلق بهذا الفرع من العلم فنحن ملتزمون بالمادة الإثنوجرافية المجمعة، ولسنا في حاجة إلى تخطي ميدان الدراسة الخاص بها" (Ibid.,:428) .**

لقد اكتشف **مالينوفسكي** أن "السحر" يمثل بذاته موضوعًا مثيرًا للجدل، ولقد دفعته المجموعة الضخمة التي جمعها من نصوص التعاويذ السحرية إلى التفكير في مشكلة المعنى، واقتبس هنا إحدي الفقرات الطويلة للوقوف على الملاحظات المهمة التي أبداها حول هذا الموضوع:

"لا يُبنى السحر بالأسلوب السردي، ولا يستخدم بهدف إيصال الأفكار، ونقلها من شخص لآخر، ولا يتم فهمه على أنه يحتوى على معان متدفقة ومتناسقة فيما بينها، إنَّما السحر أداة تستخدم لخدمة أغراض خاصة، القصد منه ممارسة قوة الإنسان علي الأشياء،

وعلي ذلك، لم يكن بالامكان فهم "معناه"– بالمعنى العريض لتلك الكلمة– إلَّا فى ضوء هذا القصد، على فرض أن معناه لا يرتبط بأية أفكار مترابطة منطقيًا، ولا يرتبط بأي أحداث جارية وقت ممارسته كذلك، وإنَّما يرتبط بمعنى التعبيرات الملائمة بذاتها فيما بينها من ناحية، والملائمة بينها وبين الوطنيين ككل من ناحية أخري، التزامًا لما يمكن أن نطلق عليه نظامًا سحريًا للتفكير، أو بالأحرى نظامًا سحريًا للتعبير، أو لإطلاق الكلمات نحو أهدافها، ويجب أن يكون هذا النظام السحري للمتتاليات اللفظية الوطنية (ولنلاحظ أنني أتجنب عن عمد استخدام تعبير "منطق سحري" إذ لا يوجد أي منطق في هذه الحالة على الإطلاق، مألوفًا لمْنّ يرغب بالفعل فى فهم التعاويذ السحرية، وقد يتعثر المرء، فى البداية، عند قراءته لتلك الوثائق، إلَّا أن مداومته للاطلاع عليها يجعله أكثر ثقة، وأكثر كفاءة في آن واحد"(Ibid.,:432)

لم يكن "السحر"– وفقًا لـ**مالينوفسكي**– يمثل أحد الموضوعات العقلانية المنطقية، ومن ثم لم تكن التعاويذ السحرية هي المحاكاة المرئية للفكر، ولذلك لم يقم بتفسيرها في ضوء "مدخل الحس العام" الذي سبق وأن استخدمه في تفسير "الأدوات التصنيفية"، وعلاوة على ذلك، فإنَّ كلمات التعاويذ السحرية، وتعبيراتها لم تكن تتواجد في الكلام اليومي المألوف، وفي الواقع لقد تطورت نظريته في السحر عن عقبات الترجمة، على فرض أن من المستحيل– في رأيه– فهم معنى التعويذة بترجمتها إلى الإنجليزية، إذ أن المعنى الوطني للتعويذة يختلف تمامًا عن معاني المرادفات الإنجليزية الحرفية المترجمة لها.

وهنا يصادفنا أولى الإفتراضات المهمة عند **مالينوفسكي**، ذلك أن معنى أي نص هو المعني المعادل للوظيفة، فهذا هو ما يمثل "المعنى" عنده، هذا على الرغم من تسليمه– كما يتضح من الفقرة السابقة– باستخدام الكلام اليومي المألوف في ايصال الأفكار.

لقد تطورت أفكاره حول السحر عن العقبات التي اختبرها بنفسه أثناء عكوفه على ترجمة النصوص السحرية الكيروينية إلى اللغة الإنجليزية، ولقد حرص في الأرجونوتس– كما حرص فى سائر أعماله الإثنوجرافية المنشورة الأخرى– على التأكيد على أهمية الترجمة، وعلى أهمية جعل الأساليب الوطنية الغربية عند التروبرياندبين تبدو أساليبًا متسقة مع وجهات النظر المنطقية التي

تميز قراءه (الغربيين). وهكذا عادل **مالينوفسكي** بين "المعنى"، وما يفهمه القارئ الإنجليزي من ترجمته له، وذلك حين يقوم بترجمة "المعنى" إلى المصطلحات الإنجليزية، مما ترتب عليه أن أصبحت تعليقاته حول ترجماته للمعنى الوطني تعليقات عنصرية إلى حد بعيد، على فرض أنه كان يتناول المعنى الوطني من منظور أجنبي (غير وطني) على الدوام.

وإليك المثال الذي يوضح ما أرمي إليه: "**من الأفضل تكرار كل جملة وطنية بشكل متتابع، ولسوف يتضح لنا فى الحال أن من المحتم أن نضيف إلى هذه الجمل كثيرًا من المخزون العام للمعرفة السوسيولوجية والإثنوجرافية لكي نجعل منها جملًا مفهومة بالفعل**" **(Ibid.,:458)** ، وهو ما يعنى أن تكون مفهومة ليس للمتحدث التروبرياندي، وإنَّما للقارئ "البريطاني"، وفي الواقع، فإنَّه لم يلق بالًا للتمييز بين الاثنين (القارئ البريطاني والمتحدث الوطني)، وإليك الفقرة التالية التي تمثل أحد النماذج القياسية للنظرة العنصرية عنده، إذ يقول:

"**بصرف النظر عن الأهمية اللغوية لهذه النصوص سوف نستخدم بعضها بوصفها وثائقً تجسد الأفكار الوطنية الخام بعيدًا عن أي تشويه أجنبي لها، وسوف تبين هذه النصوص الفجوة الهائلة الواقعة بين الإفادات الوطنية الخام والتمثيل الإثنوجرافي الواضح لها. إنَّ ما يصدمنا بقوة فى مثل هذه النصوص هو هزالها التام، أو ضآلة المعلومات التى تحتويها، حيث صيغت فى أسلوب مكثف غير مترابط يماثل بشكل ما الأسلوب التلغرافي (الذي يعتمد على الترددات العالية والمنخفضة فى نقل الرسائل)، لقد خلت هذه النصوص من أي شيء يمكن أن يلقي الضوء على موضوع دراستنا، ومن أي تسلسل للأفكار، ولم تحتو على أي تفاصيل عينية، أو أية تعميمات ملائمة بالفعل**"**(Ibid.,:453)** .

على أية حال، لم يختلف الأسلوب الذي استخدمه **مالينوفسكي** في ترجمته لبعض التعاويذ وأحد النصوص الخاصة بأولويات الإبحار فى هذا الكتاب عن أسلوبه في الترجمة في كتاب "حدائق المرجان"، فقد التزم نهج الترجمة الخطية: الكلمة مقابل الكلمة، وأردف الترجمة الخطية بترجمة حرة للنص، وباسهاب في التفسير متى استطاع ذلك مشيرًا إلى المادة الإثنوجرافية. وبالرغم من تأكيده المستمر على أهمية القرائن السياقية الإثنوجرافية، فإنَّه لم يشر مطلقًا في هذا الكتاب إلى نظرية "سياق الحال"، ولقد ذكر في القفرة التالية للفقرة التي اقتبسناها ما يلى: "**علاوة على ذلك**

علينا أن نتذكر دائمًا أنه مهما كانت الأهمية الفعلية لمثل هذه النصوص فإنَّها لا تعدو بذاتها المصدر الوحيد للمعلومات، بل أنها لا تعد بذاتها أكثر مصادر المعلومات أهمية، ولذلك فإنَّ على الملاحظ الإثنوجرافي أن يقرأها داخل سياق الحياة القبلية الوطنية" (Ibid.,:454) ، ثم يذكر في مناسبة أخري: "**لفهم أية كلمة يجب عدم الاكتفاء بمناظرتها فى سياق عبارتها اللغوية فقط، وإنَّما يقتضي ذلك الوقوف على سياق الحياة الوطنية– بأكمله"(Ibid.,:459)**

ويختتم **مالينوفسكي** الفصل المخصص في هذا الكتاب للكلمات السحرية بإيضاح مهم يشرح فيه الحكمة الكامنة في ضرورة تحقيق التكامل بين التفاصيل اللغوية والبحث الإثنوجرافي، فيقول: "**تكفى هذه النصوص الثلاثة (يقصد التعويذتين، ونص الإبحار التنافسي) لاعطاء فكرة واضحة عن منهج الأدلة اللغوية، وحول القيمة الوثائقية للآراء الوطنية التي تم تسجيلها بشكل فوري، وسوف توضح تلك النصوص ما سبق أن قلته قبلًا، إذ أن المعرفة العلمية الصحيحة للغة الوطنية من ناحية، والاعتياد على التنظيم الاجتماعية الحياة القبلية الوطنية من ناحية أخري يسمحان بقراءة الدلالات الكاملة لتلك النصوص"(Ibid.,:463)**

ولذلك فبالرغم من عدم اهتمامه في هذا الكتاب باللغة بحد ذاتها، فإنَّه لم يدخر جهدًا في أن يجعل من تجميع النصوص الوطنية أحد المعتقدات الأساسية في الأنثروبولوجيا الاجتماعية، ولم يتوان لحظة في استخدامها في شرح العقلية الوطنية، أو تفسيرها في ضوء التكامل القائم بينها والتفاصيل الإثنوجرافية الوطنية، هذا مع أنه لم يكن متيقنًا فى هذا الكتاب من طبيعة العلاقة بين اللغة والفكر، أو المدى الذي يمكن أن ينظر به للغة بوصفها إنعكاسًا مرئيًا للفكر، ذلك لأن نظرياته قد تغيرت تمامًا بمجرد اعترافه بمشكلة المعنى، وقد جنح إلى الموازنة بين المعنى والوظيفة.

– "مشكلة المعنى فى اللغات البدائية"(1923):

ولقد نشر هذا المقال ملحقًا بكتاب **أوجدن وريتشاردز** : "**معنى المعنى**" بعد عام من نشر كتاب "الأرجونوتس" في عام 1922، وفيه ظهرت أفكاره حول "المعنى" أكثر تفصيلًا وتطورًا، مقارنة بأفكاره المماثلة التي ظهرت فى عمليه السابقين، ومع ذلك لم يدر بخلده قط– كما تدل الشواهد– أنه يقدم فى هذا المجال أي ابتكارات نظرية شاملة، لقد عاد **مالينوفسكي** إلى

إنجلترا، وكتاب "معنى المعنى" في المطبعة**(Authors'Preface:ix)**، ولقد تطورت نظرياته عن خبراته الإثنوجرافية **المستقلة** عن هذا الكتاب، وعلى حين تحقق من التماثل القائم بين **نظريته في "السياق"**، وموقف العلامة Sign Situation كما قدمه مؤلفا الكتاب، أشار في أحد المواضع: **"لقد وضعت نظريتي في السياق بتعبيراتي الخاصة بغاية تتبع خطوات البرهان الخاصة بها، كما لو أنني لم أطلع على الكتاب الحالي" (Malinowski,1923)**، أي قبيل عودته إلى إنجلترا قادمًا من جزيرة تنريف Tnenrife (إحدى جزر الكناري بأسبانيا، ولقد أقام بها فى طريق عودته إلى إنجلترا قادمًا من التروبرياند بسبب مرضه، وقد أنهى خلال اقامته هناك كتاب "الأرجونوتس" بمساعدة تحريرية من زوجته– المترجم)، وفي موضع آخر يقرر: أن بحثه المستقل حول اللغات البدائية **"يقدم تدعيمًا قاطعًا لنظرية الأستاذين أوجدن وريتشاردز"(Ibid.,:308)**، ويحيل القارئ إلى مقال "الأدوات التصنيفية" وكتاب "الأرجونوتس"[1] معلنًا عدم تبرئه من أفكاره السابقة.

وفي هذا المقال، يؤكد **مالينوفسكي**، للمرة الأولي، على أهمية علم اللغة للأنثروبولوجيا بقوله: **"يجب أن يكون علم اللغة جزءًا من علم الثقافة العام، لأنه يعد فى الواقع جزءًا مهمًا من هذا العلم"(Ibid.,:326)**، ويشير إلى أنه **"أنجز بحثه الميدانى بكامله بواسطة اللغة الوطنية المحلية"(Ibid.,:229)** ، ويعترف للمرة الأولي بأن اهتمامه بمشكلات اللغة (ومن ثم بمشكلات المعنى) قد نتج عن اصطدامه بمشكلات الترجمة إذ يقول: **"حين حاولت ترجمة ما جمعته من نصوص وطنية إلى اللغة الإنجليزية وكتابة معجم للغة ونحوُها– أثناء ترتيبي للتفاصيل اللغوية– جابهتني بعض المشكلات الأساسية"، ولقد وجدت أن الكتابات السابقة حول لغات المنطقة التى كتبها المُنصرون غير المدربين لم تهتم إلَّا بالمشكلات العملية للاتصال، إلَّا أن الترجمة "العلمية" للكلمة المحلية لم تكن تتمثل فى تقديم المرادف التقريبي لها في اللغة الإنجليزية، لأن هذا النهج قد يلائم بعض الأغراض العملية، وإنَّما كانت تتمثل في التحقق الدقيق من مدي ارتباط الكلمة المحلية مع إحدى الأفكار التى توجد– بشكل جزئي على أقل تقدير– لدي متحدثي الإنجليزية، أو من مدى اشتمالها على تصور أجنبي غريب عنهم"(Ibid.,:299)**، ثم

---

(1) على سبيل المثال الهامش رقم 3 من صفحة 298 في المقال نفسه.

يفسر في وضوح وبراعة نقص التداخل بين النسقين اللغويين بغياب التداخل الثقافي بينهما، وكيف يمكن ترجمة الكلمات في مثل هذه الأحوال عن طريق **"تفسير معنى كل كلمة فى ضوء المعالجة الإثنوجرافية الدقيقة لسوسيولوجيا المجتمع الوطني، وثقافته وأعرافه الخاصة" (Ibid.,:300)**

ودون شك فإنَّ المدخل القائم بشكل راسخ على الخبرة الحية بالترجمة الثقافية للغة يعد بذاته مدخلًا بارعًا لمعالجة "المعنى"، ومع ذلك، فقد كان لهذا المدخل "الخارجي"- في الوقت نفسه- مردوداته الأخرى، نتيجة النزعة العرقية تجاه الموضوعات اللغوية، ولقد أوقعته هذه النزعة في الخطأ، حين وازن بين لغة كيروينا واللغات البدائية (وهو خطأ انزلق فيه- بشكل ما- في معظم كتاباته الإثنوجرافية)، فهو لئن اعترف بوجود تمييز قاطع بين الوظائف النحوية للكلمات ووظائفها المعجمية في اللغات الهندوأوروبية المتطورة، أقر بعدم وجود التمييز ذاته في اللغات الوطنية، أو بعدم وضوحه فيها الوضوح الذي نعثر عليه في اللغات المتطورة على أقل تقدير، ولقد ذكر: **"لم يكن التمييز الذي نجده بين الوظائف النحوية للكلمات ووظائفها المعجمية في اللغات الوطنية بالوضوح نفسه الذي نجده عليه فى اللغات الهندوأوروبية المتطورة، وكثيرًا ما تتشابك وظائف القواعد النحوية في تلك اللغات، ووظائف المعنى الأصلي للكلمات على التوالي وبشكل ملحوظ" (Ibid.,:303)** ، ثم يقول في موضع آخر: "**يفتقر البناء النحوي بأكمله فى اللسان البدائي إلى الإحكام والتحديد اللذين يميزان ألسنتنا الأوروبية، ومع ذلك كانت بعض الأدوات النحوية- التى لا يمكن ترجمتها إلى اللغة الإنجليزية- تضيف نكهة خاصة إلى علم العبارة الوطني، وكثيرًا ما كانت البساطة الشديدة فى البُنية النحوية للجمل، تخفي قدرًا كبيرًا من القدرة التعبيرية لها، فى ضوء المكانة الاجتماعية والسياق الذي تنطق فيه" (Ibid.,:300)** ، ولكن حتى وإن كان لمثل هذه المفاهيم صلة وثيقة بوضع اللغة الكيروينية التى اختبرها **مالينوفسكي**، فإن ذلك لا يجعل منها مفاهيم شرعية يمكن تطبيقها على سائر اللغات البدائية، وقد زعم- في القسم الذي خصصه للمقولات اللغوية العالمية من المقال- **"عدم تطور البُنية النحوية للأفعال verbs فى الألسن المتوحشة" (Ibid.,:332)**، ومن ذلك يتضح أنه لم يطلع على الأبحاث الخاصة باللغات الهندية في القارة الأمريكية، التي أثبتت أن لبعضها أنساقًا معقدة من الأفعال اللغوية.

لقد حاول **مالينوفسكى**- مستخدمًا نصًا وطنيًا يتعلق بتنافس القوارب البحرية في جزر التروبرياند- أن يشرح عدم كفاية الترجمة الحرفية لبلوغ المعنى الحقيقي للنص الوطني، وتقديمه للقارئ الإنجليزي، لكي يستنتج من هذا الشرح "**اختلاف الطريقة التي تستخدم بها اللغة الوطنية عن طريقة استخدامنا للغتنا الأوروبية**"(Ibid.,:300)، ويوحي هذا الشرح بأن نظرية "التبعية للسياق" كانت نتاجًا لتقييمه العرقي الساذج للغة الإنسانية، وأنها لا تمثل إلَّا إحدى النظريات المحدودة غير الملائمة لتفسير اللغة، فلقد كان من المحتم على المترجم- في رأيه- الاعتماد على القرينة السياقية بقدر قصور اللغة ذاتها عن القيام بالتميزات النحوية والمعجمية المناسبة، وهكذا اضطر إلي توسيع ترجماته للنصوص الوطنية بغاية تفسيرها، مشيرًا إلي أن: "**التحليل اللغوي يقودنا حتمًا إلي دراسة كافة الموضوعات التي يعالجها البحث الإثنوجرافي الميداني**"(Ibid.,:332) .

لقد أورد **مالينوفسكي** في القسم التالي من المقال لل**مرة الأولى** عبارته الغريبة: "**سياق الحال** context of situation": "**لو سُمح لي بصكِّ تعبير يشير إلي وجوب توسع مفهوم السياق من ناحية، وإلي أهمية عدم الاستخفاف بالموقف الذي تنطق فيه الكلمات، وذلك لصلتها الوثيقة بالتعبيرات اللغوية المنطوقة من ناحية أخري، فإنَّ استخدامنا لفكرة سياق الحال سوف يوضح اختلاف المدخل المطلوب لمعالجة اللغة المنطوقة مقارنة باللغة الميتة التي توجد مادتها بالكامل في الوثائق المكتوبة، تلك الوثائق التي تم تدوينها بوصفها وثائق مكتفية بذاتها وتفسر ذاتها بذاتها**"(Ibid.,:306)، **(دون الحاجة إلي السياق الثقافي الذي تنطق فيه)**.

وعلى حين كان الأمر ينطبق علي حالة النص العلمي الحديث كذلك، كان في حالة اللغة المنطوقة مختلفًا، وعلى الأخص حين تكون تلك اللغة المنطوقة لغة بدائية ليس لها أي شكل مكتوب: "**حيث لم تكن الإفادة اللغوية المنطوقة في الحياة الفعلية لتنفصل بأية حال عن الموقف الحي الذي تنطق فيه ... وحيث كانت الإفادة المنطوقة والموقف يرتبطان معًا بشكل وثيق للغاية، وحيث لم يكن ثمة غنى عن سياق الحال لفهم الكلمات**"(Ibid.,:307)، وهكذا، لم يكن بالإمكان فهم المعني إلَّا من خلال السياق، على فرض أن "**أي تصور للمعني بوصفه متضمنًا داخل التعبير، يُعد بذاته تصورًا زائفًا وعبثيًا**" (Ibid.,:307)

وتعبر الفقرتان السابقتان عن رفضه القاطع للنظر إلى الكلام المنطوق بوصفه الصورة المطابقة للفكر، وأنه لم يسلم بالكلام بوصفه صورة مطابقة للفكر إلَّا "**فى بعض الاستخدامات اللغوية بين أعضاء المجتمع المتحضر**"(Ibid.,:306)، أما بين أعضاء المجتمعات البدائية، **فمن المحتم التسليم بأسبقية الكلام المقترن بالسياق علي الفكر**.

ولكي يشرح هذه الفكرة قدم لنا وصفًا لإحدى رحلات الصيد التي يقوم بها سكان جزر التروبرياند عادة، عرض فيه الكيفية التى تتكامل بها اللغة المستخدمة بين المشاركين وسلوكهم الفعلي أثناء رحلة الصيد، وللكيفية التي تحقق بها تلك اللغة التعاون بينهم، والمصطلحات التقانية التى تمتلئ بها (Ibid.,:312)، ولقد استنتج في ضوء وصفه هذا: **أن اللغة فى استخداماتها البدائية تُعد حلقة وصل للنشاط الإنساني العيني، وجزءًا من السلوك الممارس، وأنها لا تعد أداة للتفكير العقلي، بقدر ما أنَّها نموذج من نماذج الفعل الإنساني الفوري**"(Ibid.,:312)، ويقرر من جديد، وفي أسلوب أشد تطرفًا عما قرره في كتاب "الأرجونوتس": "**إنَّ معنى التعبير المنطوق هو ما يؤديه– أو ما يقوم به– من عمل، ومن هنا يجب اكتشاف معنى اللغة، أو إيضاحه فى ضوء النظريات والتقنيات التي تستخدم في تحديد وظائف الظواهر الإثنوجرافية الأخرى**"(Ibid.,:312)، وهكذا فقد كان من نتيجة إنشغال باله بالوظيفة أن صبغ وجهة نظره في المعنى بها، وعادل بين المعنى والوظيفة، ولم يمنحه أية مكانة مستقلة عنها.

ودون شك لقد كان لنظريته السياقية بعض الميزات عند تطبيقها على اللغة التقانية التي تقوم بدور تكاملي في الأعمال التعاونية، ولقد كان يدرك ذلك بالتأكيد، ويدرك في الوقت نفسه أن تلك النظرية قد تثير المشكلات عند تطبيقها في حالة الثرثرة الكلامية العرضية التي لا ترتبط بالأعمال البدنية التعاونية، ولقد كتب: "**فى حالة الثرثرة الكلامية لا تعتمد اللغة، عادة، على ما يحدث في التو واللحظة، ومن الواضح أنها لم تجرد من أي سياق للحال، يعتمد فيه معنى المنطوق على سلوك المتحدث أو المستمع، ولا يرتبط بأغراض الأعمال التي يقومون بتنفيذها عادة**" (Ibid.,:313)، ويقترح تسميته بـ"المشاركة الكلامية Phatic communion"، وهو "**نمط من استخدام اللغة تتخلق به روابط الألفة بين المشاركين فيه بمجرد تبادل**

الكلمات"(Ibid.,:315)، ويتكون الموقف في مثل هذه الحالات مما يحدث لغويًا(Ibid.,:315)، ونظرًا لأن وظيفة المشاركة الكلامية العرضية هي العمل على خلق جو من المودة والألفة والمؤانسة، من الممكن عدها نموذج من نماذج الفعل الاجتماعي كذلك.

وتمثل **الحكاية** narrative عائقًا إضافيًا أمام **مالينوفسكي**، ولقد وصفها كما لو أنها قد ارتبطت بموقفين، الأول: هو موقف الحكي المباشر، والآخر: هو موقف الحادث الأصلي الذي ارتبط بها، أثناء الموقف الأول (أي موقف الحكي)، لقد كانت الحكاية تخلق الروابط والوجدانات الجديدة، وذلك بفعل "**الإعجاب الفوري الذي يبديه المستمعون بالكلمات المروية**" (Ibid.,:313)، وعلى هذا الأساس، كانت الحكاية- في رأي **مالينوفسكي**- نموذجًا من نماذج الفعل الاجتماعي(Ibid.,:313)، أما الموقف الثاني (أي موقف الحادث الأصلي العرضي الذي ارتبط بالحكاية) فقد شرحه بوصفه نموذجًا من نماذج الفعل الاجتماعي شرحًا محرفًا، قال فيه: **"بمعزل عن العلاقة غير المباشرة بين الحكاية وموقف الحادث الأصلي العرضي الذي ارتبط بها، يمكن القول إنَّ كلماتها تعد بذاتها كلمات دالة بالنسبة للمستمعين، وذلك بسبب خبرتهم السابقة بموقف الحادث الأصلي الذي تحكيه، حيث اعتمد معنى كلماتها على سياق الحال الأصلي الذي تشير إليه، وإن لم تشر إليه بالدرجة نفسها، الذي استخدمت به أثناء الفعل، فإنَّها تشير إليه بالكيفية نفسها، وللاختلاف فى الدرجة أهميته هنا، لأن الكلمات المحكية في الحكاية قد اشتقت بوظيفتها، وهى تشير فيها إلى الفعل الأصلي بطريقة غير مباشرة، ولا يمكن فهم الطريقة التى يكتسب بها الكلام المحكي معناه الفوري إلَّا فى ضوء الوظيفية المباشرة لهذا الكلام حين يستخدم أثناء الفعل"**(Ibid.,:313)، وبهذه الطريقة يؤكد اعتماد المعنى على السياق تمامًا.

ولكن هل يعتمد المعنى على السياق كما يذهب **مالينوفسكي**.؟. والإجابة هي أنه لو كان المعني كذلك ما كان للتعبيرات اللغوية بُنى مشتركة، وما تقاسمت أي مظاهر، أو أية سمات شائعة بينها، ولتباينت- نتيجة لذلك- لغة الصيد عن لغة الطبخ على سبيل المثال، لقد أنكر **مالينوفسكي** الطبيعة الرمزية الغالبة للغة، ومن ثم، كان من المحتم أن يخفق في تطبيق نظريته القائلة بأن المعنى يعادل الوظيفة، وأن الموقف ماثل بينهما، فقد تحدث كثيرًا عن المعنى، بوصفه إحدى

الصفات المميزة للغة، وعن اللغة التي تعبر عن الفكر، ولكنه لم يثبت على المبدأ قط، وهكذا بعد أن يقرر في أحد المواضع: **"إنَّ الإفادة اللفظية التي نطقت فى الحياة الفعلية لا تنفصل عن الموقف الفوري الذي نطقت فيه مطلقًا"(Ibid.,:307)**، يقرر في موضع آخر: **"إنَّ لكل إفادة لفظية يصدرها الكائن الإنساني هدف، وأن وظيفتها تنحصر فى التعبير عن إحدي الأفكار، أو عن أحد الأحاسيس" (Ibid.,:307)**

وتظهر مناقشة **مالينوفسكي** لنمط الكلام فى الثرثرة، أو القيل والقال، وهو النمط الذي أطلق عليه "المعايشة الكلامية" عدم ثباته على المبدأ بشكل واضح، ولقد كشف بنفسه عن وجود فجوة حقيقية بين الوظيفة والمعني، إذ يقول: **"إنَّ عبارات المجاملة والتأدب، سواء استخدمت بين القبائل الهمجية، أو بين الأوروبيين في إحدى قاعات الاستقبال الأوروبية، تقوم بوظائف مستقلة، ليس لها صلة وثيقة بمعاني الكلمات المكونة لها" (Ibid.,:313)** ، ثم يقول في موضع آخر: **"هل تستخدم الكلمات المتبادلة أثناء المشاركة الكلامية العرضية لنقل المعني في الأساس، أم لنقل المعني الرمزي الذي تتضمنه هذه الكلمات– حصريًا.؟، من المؤكد أن الإجابة ستكون بالنفي، لأن هذه الكلمات تؤدي، عادة، إحدى الوظائف الاجتماعية، وأن أداءها لتلك الوظيفة الاجتماعية هو ما يشكل الهدف الأساسي من تبادلها، وعلاوة على ذلك، ونظرًا لأنها لم تكن نتاجًا للتفكير العقلاني، ولم تكن تثير أي تفكير في المستمع بالضرورة، يمكننا القول إنَّ اللغة لا تستخدم، حينذاك، بوصفها وسيلة لإرسال الأفكار، أو لنقلها"(Ibid.,:318)**

ومن دون شك لقد كان تعيين **مالينوفسكي** لهوية الاستخدام اللغوي الذي أطلق عليه "المعايشة الكلامية" على هذا النحو بذاته تعيينًا خصبًا، ولكنه بالرغم من تفوقه البالغ في الوصف الإثنوجرافي، فإنَّ هذا التفوق نفسه يكشف عن زيف فرضياته النظرية الرئيسية، على فرض أنه– **مالينوفسكي**– قد هزم نفسه بنفسه، بمجرد أن اعتقد أن بعض استخدامات اللغة– بصرف النظر عن ضآلتها– تعكس استخدام اللغة بوصفها أداة للتفكير.

وبغية تعزيز نظرية عملية للمعني فقد شرع في تحليل تشكيل المعني بقوله: "**سيكون من الأفضل القيام بذلك فى ضوء اعتبارات ارتقائية، أو تطورية genetic، وفي ضوء تحليل الاستخدامات الطفولية للكلمات، وتحليل الأشكال اللغوية البدائية، وتحليل الدلالة، وتحليل اللغة الخرافية الغيبية (قبل العلمية) بين أنفسنا كذلك**"(Ibid.,:320)، وهكذا شرع في تحديد الطريقة التى يصبح بها الطفل مدركًا للمعنى، على فرض أن "**الطفل الصغير (الذي يبدو جسمانيًا لا حول له ولا قوة، ويعتمد على والديه، وعلي البالغين من حوله فى إشباع حاجاته الأساسية) يستخدم، عادة، الكلمات محل الأفعال الجسمانية، فإذا نطق اسمًا لشخص بالذات، ظهر عليه، وهكذا لم تكن كلمات الطفل وسيلة للتعبير عن المعنى فقط، وإنَّما هي بالنسبة إليه نماذج فعالة من الفعل أيضًا**" (Ibid.,:321)

ثم يعادل– بعد ذلك– بين استخدام الطفل للغة، وتقديره للمعنى وإدراكه له واستخدام الرجل البدائي للغة وتقديره للمعنى، ويزعم أنه لم يتورط بذلك في أي تصورات خيالية عقيمة تتعلق ببدايات الكلام الإنساني(Ibid.,:321)، وبعد عرضه لتصوره للاستخدام العملي للغة عند الرجل الهمجي يصرح بـ"**لهذا السبب تمتلك الكلمة بالنسبة للرجل المتوحش قوة بذاتها، على فرض أنها لا تمثل له التعريف العقلي المجرد للأشياء والأفعال، وإنَّما هي الوسيلة الفعالة لتسببها، والقبض عليها**"(Ibid.:322)، ويري في هذا الاستخدام العملي للغة أصل الاتجاه السحري تجاه الكلمات، الذي وصفه الأستاذان **أوجدن** و**ريتشاردز**، وبأسلوب مماثل يقرر: "**فى السحر يصبح الاتجاه الطبيعي للإنسان نحو الكلمات اتجاهًا راسخًا وثابتًا بفعل المحاكاة والتجربة الخاصة**" (Ibid.,:323)، ويحيل القارئ للفصل الذي خصصه للسحر من كتاب "الأرجونوتس".

ويتبنى في هذا المقال المثلث الدلالي لـ**أوجدن** و**ريتشاردز**، ويتصرف فيه وفقًا لهوى نظريته، فيقوم بحذف رأس المثلث (وهو العنصر الذي أُطلق عليه الفكر، أو الإحالة) لصالح فكرة "الكلام في الفعل"، منتجًا خطًا مستقيمًا رابطًا ربطًا مباشرًا بين "الرمز" و"المرجع الماثل" (وهما العنصران المتبقيان من المثلث)، ثم يسترد هذا العنصر المحذوف من المثلث الدلالي عند مناقشة

كلام الحكاية التي أثارت المشكلات أمام نظرية السياق عنده، ولقد وجد في "لغة السحر الشعائري" عناصر ثلاثة يحتاج شرحها إلى الاستعانة بالمثلث الدلالي من جديد.

ويختتم **مالينوفسكي** المقال بعرض نظريته لتطور عموميات اللغة، ولقد اقتنع بوجود **"مبادئ عامة للغة الإنسانية أو نزعات مستقلة لها، فبصرف النظر عن التشعبات العظيمة التي توجد عليها اللغات البشرية، كانت تتفق فيما بينها اتفاقًا جوهريًا راسخًا سواء في البنية، أو في وسائل التعبير"** **(Ibid.,:327)**، لقد اخفق النحاة القدماء في تفسير المنطق الكامن في المقولات اللغوية، ولقد مال كثيرون منهم إلي تجنبها، على فرض أنها تمثل- في رأيهم- المنطق المستقل بذاته، ومع ذلك، فقد كانت الأسباب الحقيقية لقوة هذه المقولات ولضعفها تكمن- في رأيه- في المصادر الفعلية لاستخداماتها، إذ صرح : **"تعكس اللغة في بنيتها، عادة، المقولات، أو التصنيفات الحقيقية التي تنشأ عن الاتجاهات العملية عند الطفل، أو عند الرجل البدائي، أو عند الإنسان بالسليقة نحو العالم المحيط به"**(Ibid.,: 327) .

وعلى هذا الأساس، كانت **مقولة الاسم** تنشأ- في رأيه- عن إدراك الطفل لفائدة الأشياء التي يقوم بتمييزها، وكان الرجل المتوحش يسمى الأشياء في العالم المحيط به بقدر ما تكون مفيدة له**(Ibid.,:333)**، وانطلاقًا من العوالم، أو الخلفيات غير المتميزة كانت النظرة العملية الكلية للإنسان البدائي تقوم بتعيين تصنيف الأشخاص، والأشياء المشخصة**(Ibid.,:332)** ، أما الأفعال **verbs** فقد كانت تمثل- في رأيه- إحدى التطورات المتأخرة في إدراك الطفل، ومن ثم فهي عند الإنسان البدائي غير متطورة كذلك، أما الضمائر فقد ارتبطت بالاستخدام العملي للغة كذلك.

ودون شك، على حين تعد فكرة تفسير المقولات اللغوية بالرجوع إلى السلوك غير اللغوي فكره مهمة وخلاقة حقًا، لم تتواصل حتى النهاية، فقد انطلق **مالينوفسكي** من المعنى الصريح للمقولات اللغوية ذاتها، ثم فتش عن السلوك الممارس ذي الصلة الوثيقة به لكي يقوم بالربط بينهما، وهكذا أصبح البرهان المستدل عليه في موضع الشك، ولقد انهار التأييد الذي أبداه لنظرية العموميات اللغوية، بسبب عدم معرفته لأي اختيارات لغوية فعلية، فقد استعان في معالجته لأقسام الكلام بالأمثلة الهندوأوروبية، هذا مع أنه كان بإمكانه إثبات عموميات اللغة بالجهد نفسه الذي بذله في إثبات صيغ التذكير والتأنيث gender التي كانت- من المنظور

العالمي- محددة في التوزيع، وقد ذهب في كلامه عن مقولة الجوهر القديمة إلى أنه بسبب أهمية الأشخاص الذي تضمنتهم هذه المقولة (كالأم) امتدت صفاتهم إلى كل المخلوقات والموضوعات التي تضمنتها المقولة، وهكذا وهبتهم هذه العملية صفة الجنس.

وعلى أية حال بالرغم من إمكانية تعقب بشائر مقولة "سياق الحال"- التي ظهرت في هذا المقال للمرة الأولى- في العملين السابقين، فقد بقيت في هذا المقال بالذات مقولة غامضة غير قابلة للتحديد، والجديد في هذا المقال بالفعل هو تأكيد **مالينوفسكي** على ضرورة النظر للغة بوصفها نموذجًا من نماذج الفعل الاجتماعي، وعلى حين أبدى استعداده- في هذا المقال أكثر من أي وقت مضي- لإنكار أن غاية اللغة التعبير عن الفكر، راوغ كثيرًا، ولقد اكتسب الاتجاه السحري نحو اللغة- عنده- موضعًا مهمًا بوصفه نتيجة مباشرة للخبرة المبكرة عند الطفل باللغة، واصطبغ تفكيره بنزعة صريحة لمعادلة اللغة عند الطفل واللغة عند الإنسان البدائي، ولمعادلة اللغتين كلتيهما، واللغة الأصلية التي حفلت بها الكتابات الأنثروبولوجية القديمة، وقد كانت مناقشته للمقولات النحوية العالمية مناقشة تقليدية غير منتجة، وباختصار، فإنَّ هذا المقال لم يحقق أي انتصار حقيقي على الأفكار التي تضمنها مقال "الأدوات التصنيفية".

- "حدائق المرجان والسحر" (1935):

في رأي **مالينوفسكي** يُعد هذا الكتاب من **"أفضل الكتب التي قدمها للقراء، أو من أفضل الكتب التي كان بمقدوره وضعها، أو تقديمها لهم"(Malinowski,1935;Vol.I:xii)**، وهو فخور على نحو أخص بالمجلد الثاني من هذا الكتاب، وهو المجلد الخاص بـ"لغة السحر والزراعة"، لأنه استطاع للمرة الأولى **"توثيق مادته الإثنوجرافية من وجهة النظر اللغوية" (Ibid.,:xii)**، أما عن سبب عدم قيامه بتوثيق بقية أعماله الإثنوجرافية من وجهة النظر اللغوية (مثلما حدث مع كتاب "الأرجونوتس" على سبيل المثال) فإنَّه لم يكن يعود إلى نقص التفاصيل اللغوية التي لها صلة وثيقة بها، أو إلى عدم وعيه هو نفسه وقت نشر هذه الأعمال بقيمة التوثيق اللغوي لها، وإنَّما كان يعود إلى أنه: **"في بداية حياتي المهنية لم تكن توجد إمكانية لنشر التوثيق اللغوي مثلما هو متاح في وقتنا الحاضر، ولقد عظم الآن الاهتمام بالتروبرياندين وبالمعالجات الإثنوجرافية لهم"(Ibid.,:xi)**

ولتعليقات **مالينوفسكي** السابقة أهميتها التي لا يمكن اغفالها بأية حال، مادمنا قد أخذنا في الاعتبار طبيعية وجهات النظر اللغوية التي عبر هذا الكتاب عنها، وهي وجهات نظر أكثر نضوجًا عن وجهات النظر التي صادفناها في كافة الكتابات الإثنوجرافية السابقة له، وذلك بسبب رغبته الشديدة في إثارة الاعجاب بوجهات نظره اللغوية، وتقديمها من جديد في هذا الكتاب، وفي الحقيقة، لقد أنكر في تقديمه للمجلد الثاني من الكتاب إمكانية أن يكون لأي من أعماله الإثنوجرافية السابقة الأهمية النظرية التي يتمتع بها هذا الكتاب، وهذا لا يعود- في رأيه- إلى اهتمامه المباشر باللغة، أو لأنه يقدم فيه بحثًا وصفيًا للغة سكان جزر التروبرياند، وإنَّما يعود إلى شروحاته اللغوية للبحث الإثنوجرافي للزراعة**(Ibid.,:xi)**، وهذا تواضع غير مألوف لنا في كتاباته، وعلي أية حال يمكن اختبار هذا التواضع في إحدى الفقرات التي يصف لنا فيها الطبيعة العملية للغة، إذ يقول: **"أود أن أوضح الآن أنني لا أتحدث عن لغة التروبرياندين فقط، أو عن الكلام الوطني المتعلق بالزراعة فقط، وإنَّما أحاول التعبير باختصار عن سمة الكلام البشرى بوجه عام، وعن المدخل المنهجي اللازم لدراسته"(Malinowski, 1935;Vol.ll:8)**

وفيما يتعلق بالفترة التي مضَّاها في تعلم لغة التروبرياندين، قدم لنا تسجيلًا مفيدًا لها، فقد وصل إلى جزر التروبرياند في يونيو 1915 لا يعرف كلمة واحدة من اللغة المحلية، ومع حلول سبتمبر من العام نفسه كان بمقدوره **"استخدام هذه اللغة في المحادثة بكل سهولة" (Malinowski,1935;Vol.l:453)** ولقد اعترف بأنه **"استغرق وقتا أطول من ذلك- حتى تمكن من تتبع المحادثات الجارية بين التروبرياندين"**، وصرح بـ**"شعوره بالفشل في تسجيل الأنماط المهمة من الكلام الوطني، أو أنماط الكلام التي تتجسد في نشاطاتهم اليومية" (Ibid.,:462)** ، وهو ما يوحي بأنه حين كان في الميدان لم يكن مدركًا لفكرته الخاصة بالطبيعة العملية الأساسية للغة، ويؤيد هذا المذهب التفوق البالغ الذي ظهر عليه في كتاباته المتأخرة حول هذا الموضوع.

ولئن ادعى أنه قرأ في علم اللغة بقدر يتجاوز ما قرأه في الأنثروبولوجيا، صرح: **"لم أقرأ من الآثار الحديثة سوي المختارات، ومن المؤكد أنه لا يمكن لي الادعاء بأنني مساير للتطورات اللغوية المعاصرة"(Malinowski,1935;Vol.ll:xi)** ، وهو أمر واضح- وللأسف- في فقرات كثيرة

من هذا الكتاب، وبشكل عام يمكن القول إنَّ وجهات نظره لم تتغير في هذا الكتاب منذ ظهور مقال "مشكلة المعني" منذ ما يزيد على عقد مضي من الزمان، إلَّا قليلًا .

وعلى أية حال، لقد اتضح افتقاره إلي المؤهلات التقنية اللازمة لوصف اللغات غير الهندوأوروبية في تعليقاته العرقية، واعتماده التام على المقولات الهندوأوروبية في وصف اللغة الوطنية، ولقد تبرم في أحد التعليقات من: **"صعوبة التمييز بين الفعل المتعدي Transitive والفعل اللازم Intransitive فى هذه اللغة"**، وأعلن في موضع آخر عن: **"بساطة القواعد وتركيب الجمل في هذه اللغة"**، ثم وسع من هذه الملاحظة فقال: **"لا تكمن العقبة الرئيسية فى هذه اللغة في تعقيد أدواتها النحوية، وإنَّما تكمن في بساطتها المطلقة، حيث يمكن وصف بُنيتها ككل بأنه بناء تلغرافي، وأن العلاقة القائمة بين الكلمات والجمل تشتق من السياق"(Ibid.,:36)**، ولقد كانت تعليقاته على قضايا البُنية اللغوي غامضة، وغير مؤكدة، حتى أننا نعجب كيف استطاع بالفعل تعلم اللغة وفهمها واستخدامها، وربما يقدم لنا تعليقه على الضمير المساعد /**I**/، المثال النموذجي لذلك، إذ صرح: **"يضفى هذا الصوت على الفعل مسحة من التحديد، حيث يضع الفعل (حين يلحق به) فى الزمن الماضي المعتاد أحيانًا، أي يضعه فى حالة الاكتمال، ويضعه فى حالة التوكيد فقط أحيانًا أخر، وعلي العموم من الأفضل عدّه إحدى الأدوات الخاصة بالتحديد والاكتمال"(Ibid.,:32)**

ولقد تبلورت كفاءته بوصفه أحد علماء الأصوات في ولعه الشديد بتذكر أنثروبولوجي القرن التاسع عشر أصحاب الخبرة مع اللغات الوطنية: **"فى الواقع تتمثل العقبة الوحيدة التى صادفتني مع اللغة الوطنية في التبديل بين الصوتين /N/ و /I/، وربما كان من الأصوب التسليم بأن للمالينيزيين صوت واحد يمثل خليطًا من الصوتين /N/ و /I/ مع أنه يظهر أحيانًا أشبه ما يكون بالصوت /I/** [(1)]، ولقد اعترف بأنه قد وجد في ملاحظاته المدونة شكلين مكتوبين بالحروف الإنجليزية لكلمة واحدة، وأحيانًا ثلاثة كتابات صوتية لها، ومع ذلك ونتيجة للثقة

[(1)] ثمة ملاحظة مشابهه كتبها مالينوفسكي في بداية حياته المهنية، انظر ملاحظاته حول لغة الملايو **Mailu (1915، صفحة 503)**.

المتزايدة عنده في اتجاهه البرجماتي (العملي) صرح: **"أود أن أقول إنَّ الوطنيين يفهمونني دائمًا على نحو صحيح"** **(Ibid.,:77)**، ويكمل ملاحظاته الصوتية قائلًا: **"لقد ظهرت اللواحق الفوناتيكية دائمًا عديمة القيمة في التمييز بين المعاني"**(Ibid.,:77)، أما ولعه بسرد ذكريات القرن التاسع عشر فيتمثل في استعداده الدائم لتقديم ايتمولوجيات مثيرة للشكوك، وإليك مثالًا على ذلك : **"حين توشك ثمرة الجوز على النضج تعرف باسم ساجولا Sagola . فالمقطع Sa مقطع مزيد فى كثير من التعبيرات التي تشير لثمرة الجوز ولثمرة الأريقة (وهى شجرة من الفصيلة النخلية) أيضًا، أما المقطع gola فقد ارتبط باسم جوارا gwara وهو شكل معزول ارتبط بشكل خاص باكتمال نضوج ثمار الجوز"** **(Ibid.,:109)**، وتماثل تلك الفقرة كثير من الفقرات الايتمولوجية التي وضعها في مقال "الأدوات التصنيفية".

ويلح **مالينوفسكي** على الإثنوجرافيين بأن يتعلموا اللغة الوطنية، وأن يفهموها من أجل الدراسة التفصيلية الدقيقة للمناطق الإقليمية التى يدرسونها، فاللغة هي الأداة المهمة للإثنوجرافي **(Ibid.,:4)**، ويستخدم فى هذا الكتاب –كما هو الحال في بقية أعماله الإثنوجرافية الأخرى– عددًا كبيرًا من المصطلحات الوطنية، بحيث نقرأ الفقرات التقنية في نص الكتاب كما لو كنا نقرأ خليطًا غريبًا من اللغتين الإنجليزية والكيروينية، وخير مثال لذلك اللوحة رقم **42** من الكتاب[2]. وعلى الرغم من أنه لم تكن هناك طريقة لفهم الموضوع عن طريق اللغة الوطنية إلَّا أنه فضل اللغة الوطنية على الإنجليزية في فهم الموضوع، ولم يكن هذا التفضيل يعود– في رأيه– إلي أن أية معرفة للمصطلحات الوطنية لن تمثل للباحث مصدر عون إذا لم تتم داخل سياقات الحال الخاصة بها، علاوة على أنها تمكن الباحث الإثنوجرافي من التوصل إلي "المقولات الوطنية للفكر"، أو إلي "التصنيفات الوطنية الخاصة"، وإنَّما كان يعود إلي أن أية معرفة بالمصطلحات الوطنية لن تمثل للباحث مصدر عون إن لم تتم داخل سياقاتها الخاصة بها، هذا علاوة على أن **"تمكن الباحث الإثنوجرافي من اللغة الوطنية من دون سند من النظرية الأنثروبولوجية لا يمكنه وحده من معالجة أية مشكلة من مشكلات الثقافة الوطنية"** **(Malinowski,1935;Vol.l:325)**، وهكذا

---

[2] **على سبيل المثال صفحة 128 من الجزء الأول.**

كانت قيمة استخدام اللغة الوطنية تنحصر في أنها تخول لنا أولًا: أن نفهم ما يقوله الوطنيون بين بعضهم البعض أثناء التدفق الطبيعي للمحادثات، أو النزاعات بينهم، وتخول لنا ثانيًا: أن نفهم سلوكهم التكاملي الذي يتألف من الأفعال اليدوية واللفظية فى آن معًا(Ibid.,:326) .

ومن جديد يفسح **مالينوفسكي** حيزًا مهمًا في نظريته لمشكلات الترجمة، ويخصص لها فصلًا كاملًا في هذا الكتاب بعنوان: "ترجمة الكلمات غير القابلة للترجمة"، ولقد اعترف بأن: **"من السهل النظر إلى النظريات المقدمة هنا بأن لها جذورًا فى العقبات الفعلية التى يصادفها الباحث في جمع النصوص، والمصطلحات التقانية، وتأويلها، وترجمتها، وتحريرها"** (Malinowski,1935;Vol.ll:xi)، ولقد رفع من مشكلة الترجمة بالقدر الذي يجعل منها **"المشكلة الأنثروبولوجية الرئيسية"**(Malinowski,1935;,Vol.l:x)، لقد كانت ملاحظاته حول الترجمة، وعدم التداخل بين اللغات نتيجة للاختلافات الثقافية مفيدة وحساسة، إذ قرر: **"من الواجب على الترجمة بمعناها الصحيح عدم الاكتفاء بالإشارة إلي الاستخدامات اللغوية المتباينة وحسب، وإنَّما الإشارة إلى العوالم الثقافية المتباينة الكامنة فى الكلمات"**(Ibid.,:14) ، وعلى أية حال، فإنَّ أفكاره لم تتمتع حتى هذا التاريخ– في رأيه– بهذا القدر من الأصالة الذي كان يبتغيه.

وفي الواقع،لم تتغير مناهجه الخاصة بترجمة النص الوطني فى هذا الكتاب عن نظائرها التي ظهرت فى أعماله السابقة، وفيه نجد شرحًا تفصيليًا لمنهج الترجمة الحرفية،ولقد سمى الكلمات: "مقابلات تقوية الذاكرة" أو "التعريفات التقريبية"(Ibid.,:27) ، ولقد زعم أن كل مقابل، أو كل تعريف منها لا يرمي إلى تحديد الكلمة المعنية، بقدر ما يرمى لمطابقتها مع معناها (Ibid.,:27)، ثم يستخدم مصطلح "المعنى الثابت" ليكشف به لنا عن الاتجاه الحقيقي عنده نحو معنى الترجمة (Ibid.,:28)، وعلى النقيض من هذا المصطلح كان موقفه المتطرف في نظرية "التبعية للسياق"، وفي نظرية الجناس homonyms التي تظهر للمرة الأولى في الكتاب، ولقد زعم– انسجامًا مع هذا الموقف المتطرف– أنه في كل مرة تستخدم فيها الكلمة فى سياق متميز، يجبعلى معناها أن ينسجم معه، ويميز بين "الجناس العرضي"، و"الجناس المتشابه"، ويدرج في الجناس العرضي– دون أي شعور بوخز الضمير– كلمة "تابو tabu"، بمعنى الجدة للأم، وبمعني الخالة، وبمعني الحرام (Malinowski,1935;Vol.ll:28)، ثم يخبرنا على صفحة 113 من الكتاب أن كلمة "تابو" تعنى

الجد للأب، ويمكن استخدامها للإشارة للحيوانات الطوطمية[1]، ثم يخصص لمقولة "الحرام tabu" كافة الجناسات التي لا يستطيع الباحث الإثنوجرافي أن يميز أي تشابه للمعنى فيها.

ويتحدث في الجناس المتشابه عن "المعنى الأولي" بوصفه المعنى المقابل للمدلولات المجازية، حيث يعتقد أن "**الإخفاق فى التمييز بين المعاني المتباينة فى أي جناس يمثل بذاته أحد المصادر الخصبة للخطأ الأنثروبولوجي**" **(Ibid.,:68)**، ويطبق مرة أخري تكتيك الحس المشترك أو مدخل السليقة، ويقرر أنه لو استخدم هو الكلمة بمعنيين متميزين فإن الأمر لابد وأن يكون بالنسبة للمتحدثين الوطنيين كذلك، ولقد ظهر هذا التكتيك واضحًا في معالجته لمصطلحات القرابة، وعلي الأخص حين رفض قبول أنه "**بقدر ما يشير المصطلح الواحد إلى شخصين، كان هذان الشخصان متكتلين داخل عقل الرجل الوطني، أو متداخلين معًا، أو متحدثين معًا داخله، وفي الوقت نفسه يجب أن يكون هذان الشخصان شخصًا واحدًا**" **(Ibid.,:65,n.2)**، وعلى أية حال، فقد كانت إشارات **مالينوفسكي** إلى مصطلحات القرابة في هذا الكتاب مختصرة جدًا، وسوف أدخر مناقشة هذا الموضوع للجزء الأخير، وسأكتفي في هذا المقام باقتباس أحد الأمثلة النمطية لطريقة التفكير التي افترض **مالينوفسكي** في ضوئها أن لكل كلمة معني أوليًا، ومعان أخري مشتقة، وهو مثال أخذناه من القسم الإثنوجرافي من الكتاب: "**لكلمة urigubu عــــلاوة علـــى ذلـــك– دلالتـــان اشـــتقتا مـــن معناهـــا الأولى والجـــوهري**" **(Malinowski,1935;,Vol.l:196)**، وفي الفصل المتعلق بـ"حصيلة النقوش الكيروينية" ينهي كل قسم منه بقائمة من الكلمات ذوات المعاني الجناسية، ويتحدث فى مواضع كثيرة من الكتاب عن معنى الكلمة دون الإشارة إلى السياق، وبتحدث في صفحة 42 من المجلد الثاني عن الغموض الملازم

(1) ولقد قدم ليتش تأويلًا مختلفا لتلك الاستخدامات، انظر :Leach,E.R.1958; in J.Goody:120-145,

وفيما يتعلق بذلك وبعض الملاحظات الإضافية يمكن الرجوع إلى: Chowing, A.; 1970 ; Ardener, E., 1971

وانظر أيضا الجزء الثالث في كتابنا الحالي.

لـ"**الجملة** sentence" مؤكدًا على عدم إمكانية إزالة هذا الغموض إلَّا في ضوء الاستعانة بالمعرفة الإثنوجرافية.

ولقد بذل **مالينوفسكي** جهدًا جبارًا في الترجمات الفعلية لـ"حصيلة النقوش الكيروينية" لتعريف الكلمات بالتقابل، ولقد قرر: "**يمكن تعريف الكلمة بوضعها في سياقها الثقافي من ناحية، وبتوضيح استخداماتها في سياق المقابلات والتعبيرات المشابهة من ناحية أخري" (Malinowski,1935;Vol.ll:16)**، ومع ذلك، فإنَّه لم يكن منهجيًا في تطبيقه لما تضمنته الفقرة السابقة، ونادرًا ما كان يوضح الكلمات غير التبادلية، والكلمات الشاملة، ولقد افترض- أثناء عرضه التفصيلي للنصوص- أن لغته الإنجليزية الحرفية يمكن أن تزودنا برؤية أمينة للطريقة التي تعمل اللغة الكيروينية بها، ثم انهمك في مقارنتها بشكل مضجر مع الإنجليزية المعيارية: "**إنَّ اقامة الارتباط المتبادل بين الكلمات عن طريق "التجاور" هو الصفة المميزة للأسلوب الوطني مثال: (حديقة واحدة- عشرون رجلًا)، فى حين أنه بإمكاننا أن نقول في أية لغة أوروبية متطورة: إنَّ عشرين رجلًا يعملون فى حديقة واحدة، أو حديقة واحدة خصص لها عشرين رجلاً ليعلموا بها" (Ibid.,:41)**

ويقدم **مالينوفسكي** في هذا الكتاب أيضًا فكرة "سياق الحال" بالطريقة نفسها التي ظهرت بها الفكرة في مقال "مشكلة المعنى"، ويقارن من جديد هذا النمط من علم اللغة مع نمط علم اللغة التاريخي بقوله: "**على الخلاف من لغة الأدب التي نجدها في مجتمعاتنا المتطورة منقوشة على الرخام والنحاس، أو مكتوبة علي الرقائق، أو لباب الثمار المعالجة كيميائيًا، ليس ثمة إمكانية لتصور أية لغة من لغات القبائل الهمجية منعزلة عن سياق الحال الخاص بها- قط، إنَّ ملاحظة كلام أي مجتمع من المجتمعات قبل الكتابية يقنعنا تمامًا أن اللغة لا توجد سوي في استخدامها الفعلي داخل سياق التعبير الحقيقي" (Ibid.,:vii)**

ويتضح من هذه الفقرة أنه لم يكن على علم حتى هذا التاريخ بالنظريات اللغوية التي رفضت اتخاذ الوثائق التاريخية المكتوبة موضوعًا لدراستها، ولم تتحدد فكرة السياق في هذا الكتاب

بالقدر نفسه الذي سبق وأن ظهرت عليه في مقال "مشكلة المعنى"، ولم يشرح أن **"المعنى لا يقبع داخل الصوت، وإنما يوجد فى العلاقة القائمة بين الصوت والسياق" (Ibid.,:72)**

لقد جابه **مالينوفسكي** في هذا الكتاب المشكلات نفسها التي سبق وأن جابهها في تفسير معنى الحكاية سياقيًا في مقال "مشكلة المعنى"، إذ يقرر: **"تستخدم الكلمات في الحكاية في ضوء ما يمكن أن نطلق عليه المعنى المستعار، أو المعنى غير المباشر، ولذلك يجب إعادة بناء السياق الفعلي للإحالة لدى المستمعين بالكيفية نفسها التي قام المتحدث نفسه باستدعائه بها" (Ibid.,:46)**، على فرض أن المعنى المباشر للكلمات، لا يُكتشف إلَّا في استخداماتها الفعلية، ويصرح **"لقد قادتنا كل بحوثنا إلى استنتاج أن الكلمات بمعانيها الأولية تعمل وتؤد وتنتج وتنجز"(Ibid.,:52)**، ولقد تجاوز في هذا الكتاب وجهات نظره التي سبق وأعلنها في مقال "مشكلة المعنى"، وأكد على استحالة فصل اللغة عن المصادر التي تستخدم فيها، حتى في استخداماتها العلمية والفلسفية، وقرر: **"فى النهاية نجد أن معاني الكلمات اشتقت من الخبرات العينية المجسدة" (Ibid.,:59)**

لقد اعتنق **مالينوفسكي** في هذا الكتاب **التفسير السلوكي** في معالجته للمعنى صراحة وتؤكد الفقرة التالية ذلك إذ صرح:

"يمكن تحديد معنى التعبير الذي يحدثه الصوت في سلوك الأشخاص، فالمعنى هو الكيفية التي ارتبط بها الصوت المنطوق مع العناصر المكانية والزمانية، ومع الحركات الجسدية الإنسانية، وهذا راجع إلى الاستجابات الثقافية التي تنتج عن التكيف أو التربية، فالكلمة هي المثير الشرطي للفعل الإنساني، وهي مقبض الأشياء بالنسبة للمتحدث التي فى متناول المستمعين"(Ibid.,:59)

ومن جديد يورد **مالينوفسكي** في هذا الكتاب نظريته التي تقول إنَّ خبرة الطفل بالقوى العملية للغة هي التى تؤدى به إلى الاعتقاد في القوة السحرية للكلمات، على فرض أن: **"تطور الكلام عند الجنس البشرى يماثل في مبادئه الأساسية نمط تطور الكلام أثناء سيرة حياة الإنسان الفرد"(Malinowski,1923:232)**، وهكذا رفض النظرية الباطنية mysticism

عند **دوركايم** على اعتبار أنها تمجد اعتماد الإنسان الفرد على المجتمع، ولقد قرر: **"يكمن جوهر نظريتي في الثقافة فى اختزال النظرية الدوركايمية إلى مصطلحات علم النفس السلوكي" (Ibid.,:236)**

وبالرغم من ذلك، فإنَّ مدخله إلى المعنى لم يكن يدين برمته إلى معتقداته السلوكية، إذ كان لهذا المدخل مظهرًا آخر ينسجم بشكل واضح مع نظريته الوظيفية الإثنوجرافية العامة، ولقد قرر أنه إذا كان على الباحث الأنثروبولوجي إدراج اللغة ضمن دراسة الثقافة، فإنَّ عليه أن لا يخصص لها معالجة مستقلة عن معالجته للثقافة، ولذلك كان على الباحث الأنثروبولوجي أن **"يقوم بما يجب عليه القيام به مع الأخذ فى الاعتبار الدين والتنظيم الاجتماعي والفنون والحرف الفنية والاقتصاد(Malinowski,1935;Vol.ll:ix)، وأن يعرض للوظيفة التي تقوم بها اللغة في هذه النشاطات، وهو ما يمثل المشكلة اللغوية الأولية للباحث الأنثروبولوجي" (Ibid.,:viii)** وقد يظهر الدليل الخاص بالصلة الوثيقة بين المدخل اللغوي عنده ومدخله الوظيفي الإثنوجرافي بشكل واضح في مجموعة المصطلحات المهمة التي أدرجها في الملحق الذي ظهر في المجلد الأول من الكتاب بعنوان: "اعترافات بالجهل والإخفاق"، والذي يشير فيه إلي القسمين الرابع والخامس من الفصل العاشر من هذا المجلد، وقد خصهما لتناول طرق استخدام الثمار البديلة وفلاحة النباتات الثانوية، وأعلن أن: **"المعلومات التى اشتمل عليها القسمان السابقان غير مرضية فى رأيِّي، فهي معلومات مفككة وغير منظمة إلى حد بعيد، ولنستخدم التعبير المأثور المحبب للمدرسة الوظيفية، إنَّها تحتاج إلى مزيد من القرائن السياقية"(Ibid.,:481)**، أما الطريقة التي اتبعها لاضفاء القرينة السياقية على اللغة فقد انحصرت في الموازنة بين الوظيفة التي تقوم بها اللغة ومعناها، ومن ثم أصبح معنى "التعبير" هو الوظيفة التي يقوم بها (هذا التعبير) داخل السياق الإثنوجرافي.

وهكذا أصبحت ملاحظاته حول المعنى تافهة لا معنى لها، مثلها في ذلك مثل بعض محاولاته العقيمة لتحديد الوظيفة، والخطير في الأمر أنه عادل بين المعنى والوظيفة في حالات لم يكن مدخله الإثنوجرافي ملائمًا، أو مقنعًا فيها، أقصد حين عالج الحكاية والسحر والأسطورة، أو حين عالج الأنساق الرمزية للثقافة، فأثناء حديثه عن صعوبة ترجمة التعاويذ السحرية وصف القوة التي تقتنيها كلمات التعاويذ، أو التي تقررها- افتراضًا- بقوله: **"هكذا يمكن ترجمة هذه الكلمات**

بمعنى واحد، أعني يجب علينا أن نتبين التأثير الذي يعتقد الأهالي أنها تمارسه، وأن تعيد ترتيب المادة اللغوية المتاحة كي نتبين الكيفية التي تمارس بها كلمات التعويذة هذا التأثير وأسبابه"(Ibid.,:219)، ولقد اعتقد أنه استطاع بهذه الطريقة تفسير معنى السحر: **"بهذه الطريقة تصبح العرافة قابلة للشرح والتفسير، وتظهر معاني الكلمات التي لا معنى لها في ضوء وظائفها الفورية القائمة على الاستدعاءات الباطنية المتعددة للجذر اللفظي" (Ibid.,:230)**.

أما فيما يتعلق بالعلاقة الدقيقة بين اللغة والفكر، فإنَّه ولئن تعهد المدخل السلوكي في وصفه للمعنى بوصفه "مثيرًا للفعل"، وبالرغم من تأكيده على اعتماد معنى اللغة- حتى اللغة العلمية والفلسفية- اعتمادًا مطلقًا على الاستخدامات العملية للغة، فقد كان مترددًا بخصوص هذه العلاقة، وغير متأكد من وجوب إدخال مفهوم "العقل" في خطته أم لا، وفي ذلك يقرر: **"على الرغم من ذلك من المهم أن نؤكد أن وظيفة اللغة بوصفها مفتاحًا للعملية العقلية هي أمر ليس من السهل الإحاطة به، فعلي الرغم من أهمية الدراسة التفصيلية لقضية العلاقة بين الفكر والكلمة، وبين الإفادة اللفظية والموقف الذهني، إلَّا أنه ليس هناك ما هو أخطر من تصور اللغة يوصفها عملية تجري موازية للعملية العقلية، أو أنها ترتبط ارتباطًا وثيقًا بها، أو الاعتقاد في أن وظيفة اللغة هي أن تعكس العالم العقلي للإنسان، أو استخراج النسخة المطابقة لهذا العالم العقلي بواسطة تدفق المكافئات اللفظية، فليست الوظيفة الرئيسية للغة هي التعبير عن الفكر، أو مطابقة العمليات العقلية كذلك، وإنَّما هي- في الحقيقة- أداء دور عملي فعال فى السلوك الإنساني"(Ibid.,:7)**.

على أية حال، إنَّ كتاب "حدائق المرجان والسحر" هو أطول الأبحاث التي خصصها **مالينوفسكي** لمعالجة اللغة، ولهذا السبب بالذات يجب أن ترجع الاختلاف الذي شاهدناه في محاور ارتكاز بعض نظرياته، هذا على الرغم من اعترافه بثبات نظرياته اللغوية وعدم تغيرها منذ ظهور مقال "مشكلة المعنى"**(Ibid.,:65)**، إلَّا أنه لم يعين- في الوقت نفسه- القضايا التي تغيرت حولها وجهات نظره ، ومع أنه لم يشر في هذا الكتاب إلى عموميات اللغة على سبيل المثال، من الممكن إرجاع ذلك إلى الموضوع المحدد الذي دار حوله الكتاب، وقد استمر في هذا الكتاب في استخدام مقولات القواعد الهندوأوروبية بوصفها مقولات نحوية عالمية، على أمل استخدام تقانات

وصفية أفضل منها، ولم يتضح ابتكاره إلَّا في نظرية الجناس، وتغييره لوجهة نظره حول طبيعة اللغة العلمية، واستخدامه لمجموعة مصطلحات النزعة السلوكية في فقرات بعينها من هذا الكتاب.

– جون روبرت فيرث:

في رأي **روبينز** R.H Robins: "إنَّ الصداقة المتينة المتبادلة التي جمعت بين **فيرث** و**مالينوفسكي** في مدرسة لندن لعلم الاقتصاد هي التي لعبت الدور الأهم في صياغة نظرية **فيرث** في المعنى، وفي بلورة الموضع الذي احتله مبحث "المعنى" في التحليل اللغوي"**(Robins,R.H.;1961)**. وبصرف النظر عن صواب هذا الرأى، أو الدين الذي كان يشعر به **فيرث** لـ**مالينوفسكي** فإنَّنا نتساءل: كيف كان **فيرث** ينظر إلى شجرة نسبه النظري.؟. وهو تساؤل له دلالته في هذا المقام، على فرض أن **فيرث** كان ينظر لنفسه بوصفه ينحدر انحدارًا مباشرًا عن المدخل البريطاني المستقل لعلم اللغة، ولقد ورث اهتماماته اللغوية، وأولويات تفكيره من بعض الرواد البريطانيين البارزين من أمثال **هنري سويت** H.Sweet والسير **وليام جونز** Sir W. Jones والدكتور **جونسون** Dr. Johnson وعلماء ضبط الألفاظ Orthoepists، ولقد اهتم بتاريخ دراسة اللغة في بريطانيا، ولقد وضح هذا الاهتمام في العديد من مقالاته مثل: "المدرسة الإنجليزية في علم الصوتيات" [1946] و"علم اللغة الأطلنطي" [1949]، ولقد شعر بالرضا حين ضم **مالينوفسكي** للتراث البريطاني ذاته، إذ ذكر: **"مما يدعو إلى رضائي العميق أن أتذكر الارتباط الذي جمع مالينوفسكي والسير جاردنر Sir A. Gardiner، والارتباط الذي جمعنى شخصيًا بهذين العالمين المتميزين، ذلك لأنه يقدم تفسيرًا إضافيًا لمالينوفسكي فى إطاره الإنجليزي، والدور الذي قام به فى تطوير علم اللغة فى بريطانيا"(Firth,J.R.1957)**

ولكن لم يكن استقلال **فيرث** عن علم اللغة– على الخلاف من **مالينوفسكي**– نتيجة لجهله به، فقد كان على معرفة وثيقة بالنظريات اللغوية المتداولة في القارة الأوروبية، وفي أمريكا، وإنَّما كان نتيجة لرفضه له، وقد انحصرت إسهاماته في علم اللغة في تطوير نظرية سياق الحال، وفي استخدامه للتحليل العروضي Prosodic في الفونولوجيا، وبالرغم من أصالة هذا المدخل الأخير

(لتعارضه مع **علم الفونيمات** Phonemics المرتبط بمدرسة براغ، أو المدارس البلومفيلدية) فإنَّه غير ذي صلة وثيقة بمقامنا الحالي، وسوف أركز الآن على موقف **فيرث** واتباعه من قضايا "المعنى"

في الوقت الذي كان يرتفع فيه نجم علم الفونيمات بين علماء اللغة أعلن **فيرث**: **"إنَّ المهمة الرئيسية لعلم اللغة الوصفي تنحصر في تقديم تفسيرات المعنى"(Firth,1951a:190)** ، وأن من الواجب دراسة اللغة، بوصفها جزءا من الثقافة، ولقد صرح: **"لا يمكن عدُّ اللغة مرآة للثقافة وحسب، أو النظر إليها على أنها تكرار لآثارها، أو على أنها مجموعة من القواميس المبوبة، إنَّها والثقافة سيان، إنَّ اللغة ليست عملية موازية للثقافة، وإنَّما هي جزء متمم لها، ومتكامل معها"(Firth,1934:19)** ، لقد ارتبطت اللغة- في رأيه- بالثقافة التي تستخدمها، ومن ثم انحصرت مهمة الباحث اللغوي في التحقق من العالم الاجتماعي للمادة التي يبحثها على المستوى السوسيولوجي **(Firth,1949:170)** ، وانطلاقًا من هذا الإيمان الراسخ في الصلة الوثيقة بين اللغة والثقافة، أو المجتمع، ظهرت أهمية **النص** Text في مدرسة لندن، وقد كان على النص في هذه المدرسة أن يحتوي "معنى التعبير"**(Firth,1951b)**

ولم تكن التقانة التي تبناها **فيرث** لتأمين الالتحام بين تفسيره للمعنى والعالم الاجتماعي سوى فكرة **مالينوفسكي** الخاصة بـ"سياق الحال"، ولقد قدم تعبير "سياق الحال" في الطبعة الأولى من كتابه الشعبي: "الكلام" (1930)، ثم ظهر- من جديد- في كتابه "ألسن البشر" (1937) في إحدى الفقرات المماثلة إلى حد بعيد:

"فى المحادثات الشائعة المتعلقة بالأشخاص، أو بالأشياء الماثلة للحواس لا تتمثل المقيدات النحوية التي تخلقها الأصوات الكلامية (التى نتعلمها عن طريق السمع) فى الكلمات، بقدر ما أنها تتمثل فى سياق الحال الملاحظ، بتعبير آخر: ليس المعنى وقفًا على الكلمات فقط، وإنَّما هو خاصية مشتركة يشترك فيها الأشخاص والأشياء والأحداث (أو الضوضاء التى يصدرها المتحدثون) المرتبطة بالموقف" (Firth,1964:111)

ولقد استخدم الفكرة أيضًا في أحد بحوثه النظرية المبكرة، وقد صرح: "**من وجهة النظر الوظيفية يمكن رؤية الإنسان فى معركة مع أنداده، ويمكن رؤية لغته كنماذج متباينة من الفعل**

في سياقات الموقف"(Firth,1934:20)، وفي هذه الفقرة يمكننا تمييز المصطلحات المألوفة التي استعارها من **مالينوفسكي**، وعلى الأخص مصطلح "الوظيفة" .

وعلى أية حال لقد تميزت ملاحظات **فيرث** بالتأكيد العملي نفسه الذي وجدناه عند **مالينوفسكي**، ولقد صرح: **"إنَّ الكلام هو الفعل اللفظي المتحكم في الأشياء والأشخاص بما فيهم المرء (المتحدث) نفسه"(Firth,1935a:28)**، ولقد اعترف، مثل **مالينوفسكي**، أيضًا بأن الاتجاه السحري نحو الكلمات كان نتاجًا لخبرة الطفل بتأثيرها العملي: **"إنَّ الطفل يتعلم بسرعة فائقة الفعل السحري لصوته، ومايقوم به رفقائه في استجابتهم له"(Firth,1935b:35)** ، وعلى هذا النحو، فإنَّ الدين الذي اعترف به ل**مالينوفسكي** كان دينًا عظيمًا حقًا.

ولكن ذلك لم يكن يعني، بأية حال، عدم وجود أي فوارق حقيقية بين مدخل **فيرث** و**مالينوفسكي** في معالجتهما للمعنى، وذلك لأن المعنى عند **فيرث** لا يوجد في هذا الجانب من "النص" الذي يمكن تفسيره- بحسب **مالينوفسكي**- عن طريق نظرية السياق، وإنَّما كان يوجد- وعلى الخلاف مما ذهب إليه **مالينوفسكي**- في **"مركب الوظائف التي يقوم الشكل اللغوي بها" (Firth,1957b:174)**، فلقد قسم فيرث "المعنى" إلى خمسة معان جزئية أساسية، وبذلك أصبح للمعني خمسة وظائف جزئية أساسية هي: الوظيفة **الصوتية** Phonetic، والوظيفة **المعجمية** Lexical، والوظيفة **الصرفية** Morphological، والوظيفة **التركيبية** Syntactical، والوظيفة **الدلالية** Sementic، ولقد انحصر هدف علم اللغة- في نظره- في التحقق من كيفية تشتت dispersion "المعنى" على سلسلة مستويات التحليل اللغوي، بشرط أن يتم تقديم مظاهر المعنى - على كل مستوى منه- في علاقته باللغة(Firth,1956:xi) ، ولقد كان للمعنى على المستويات الأربعة المغايرة لمستوى التحليل الدلالي علاقة وثيقة بـ**مفهوم "القيمة"** عند **دوسوسير**، وبذلك أصبح المعنى على هذه المستويات الأربعة أشبه شيء بوظيفة الترتيب الذي ينتمي إليه، وبهذا المعنى، فإنَّ معنى **حالة الرفع** nominative (على المستوى التراكيبي) في نسق رباعي الحالات كان يختلف عن نظيره في نسق ثنائي الحالات، أو في نسق ذي أربع عشرة حالة **(Firth,1951:227)**، وعلى حين استخدم **فيرث** مصطلح **"القيمة"** بشكل عرضي، إذ ذكر:

"تتحدد قيمة الحرف بموضعه في السياق، وبكيفية الاستخدام الاختياري له داخل هذا السياق، أو ذاك"(Firth,1936:72)، من غير المناسب- بناء علي ذلك- أن نعادل بين المعنى الصوري الذي يقصده، وحقائق نظرية المعلومات (كما فعل **جيفري إلياس** J.Ellis عام 1966) **(Ellis,J.,1966:80)** ، وذلك على فرض أنه لم يضع في الاعتبار الاحتمالية النسبية لظهور المصطلحات داخل أي ترتيب، وقد أخفق في تحديد طبيعة المعني غير الدلالي -extra semantic، ولقد خلط اتباعه بين الأشياء نتيجة لاستخدامه المتناقض لكلمة "معني"، ولم يبرحوا هذا التناقض إلى تقديم شرح عملي لطبيعة الفكرة ذاتها- قط.

وعلى حين حصر **مالينوفسكي** تحليله للمعنى في المستوى الدلالي من التحليل اللغوي، وهكذا فعل معظم علماء اللغة، قدم **فيرث**- وعلى النقيض منهم- مستوىً معجميًا واضحًا، وذلك بغرض دراسة الابتكار التوزيعي للكلمات، ولقد أطلق على تلك التقانة: "المجموعة collection"، وقدم عددًا من الأمثلة حول كيفية استخدامها، وبالأخص في تحليله للأسلوب الشعري عند الشاعر الإنجليزي **سونبورن** Swinburne عام 1951، ويتضح من هذه الأمثلة أنه استخدم تلك التقانة بغرض اكتشاف الخصوصيات الأسلوبية، فقد كان يعتقد أنها تفوق في أهميتها أهمية تقانات النقد الأدبي، وفي الواقع، لقد أحرزت الدراسات التوزيعية بعض الانجازات، ظهرت في نظرية التقفية الأمامية high codability، ونظريات التشفير الاستهلالي -now coding التي وضعها **برنشتاين** B.Bernstein عام 1965 [1]، هذا بالرغم من أنه لم يطور الفكرة إلى ما هو أبعد من ذلك- قط، بل ولم يناقش المشكلات العملية المتعلقة باستخداماتها التحليلية كذلك.

لقد قيد **فيرث** مدخله إلى المعنى بـ"سلسلة هرمية من التقانات التي تتشتت- عن طريقها- معاني الأحداث اللغوية في **طيف** spectrum التعبيرات المخصوصة **(Firth,J.R.1950;p.183)**، وبالرغم من أن سياق الحال هو الذي يمنح تلك التقانات- على المستوى الدلالي- أساس تسلسلها الهرمي، فقد حرص على عدم منح أي مستوى من مستويات

---

(1) لقد أثبتت هذه النظريات فائدتها للأنثروبولوجيا كما ظهر ذلك عند ميري دوجلاس (انظر: Douglas,M.1970.)

التحليل اللغوي أية أسبقية علي غيره، وعلى ذلك، كان بمقدور الباحث اللغوي البدء في تحليله اللغوي من أي مستوى منها، والإشارة إلي بقية مستويات التحليل في اتجاهيه كليهما، ولم تكن بُنية مستويات التحليل عنده سوي ترتيبيًا تخطيطيًا لتقانات التحليل العملية وحسب، وفي ذلك يقول: "**يجب أن تتقيد ترتيباتنا التخطيطية (أثناء معالجتنا للأحداث اللغوية داخل العملية الاجتماعية) بما يحيلها إلي قوة الوسيلة الموحدة لها، ومثل هذه الترتيبات لا تتميز بأي وضع أنطولوجي خاص بها، ونحن لا نتصورها وكأنها كينونة بذاتها، أو وكأن لها وجودًا قائمًا بذاته، على فرض أنها ليست جوهر، ولا تقع خارج نطاق الخبرة، وإنَّما هي مجرد لغة ترد إلي ذاتها وحسب**"(Firth,1950:181).

وهكذا اختلف استخدام **فيرث** لفكرة سياق الحال عن استخدام **مالينوفسكي** لها، فلئن نظر **مالينوفسكي** إلى السياق كونه يمثل "**سلسلة مرتبة من الأحداث، تمثلت– بالنسبة لـه– كما لو كانت لغزًا مرسومًا rebus**"(Firth,1950:182)، اعتقد **فيرث** أنه يمثل ترتيبًا تخطيطيًا ملائمًا للتطبيق على أحداث اللغة، ومن ثم عدَّ "السياق" مجموعة من التصنيفات المرتبطة معًا، وسلَّم باختلاف هذه التصنيفات اختلافًا جذريًا عن التصنيفات النحوية، وبالرغم من ذلك فقد تماثلت نظرتهما لسياق الحال، فيما يتعلق بطبيعته التجريدية(Firth,1950:182)، ولقد عده– متأثرًا بـ **مالينوفسكي**– بأنه يمثل: "**إحدى التجريدات المقنعة على المستوى الاجتماعي من التحليل اللغوي**" (Ibid.,:183)، لقد حرص **فيرث** من جانبه على تقديم نظرية سياق الحال بأسلوب محدد فعال، وقدم ثلاثة تصنيفات لها صلة وثيقة بها، أدرجها في تحليله، وهي:

أ– خصائص المشاركين: الأشخاص والأدوار والشخصيات:

1- الفعل اللفظي للمشاركين .

2- الفعل غير اللفظي للمشاركين .

ب– الموضوعات التى لها صلة وثيقة .

ج– تأثير الفعل اللفظي(Firth,1950:182).

ولقد قدم إلى جانب تلك التصنيفات الثلاثة رسمًا شجريًا لشرح القرائن السياقية المتتابعة للنص اللغوي، منطلقًا من السياق الفوناتيكي، ومارًا بالسياق اللفظي، ومنتهيًا بسياق خبرة المشاركين علي المستوى الفردي الخاص، وسياق الثقافة على المستوي العام **(Firth,1935b:36)**.

أما المظهر الآخر المهم في محاولته لتحويل المفهوم إلى إحدى التقانات التحليلية الفعالة فإنَّه يتمثل في وضعه تعبير "سياق الحال النمطي"**(Firth,1935a:33)**: "**يجب استخلاص الحقائق من المتتاليات الكلامية، المقيدة لفظيًا بذاتها، والتي تعمل داخل سياقات الحال النمطية المنتظمة، التي يمكننا ملاحظتها بانتظام" (Firth,1935b:33)**، ولقد رفض تمييز **دوسوسير بين** اللغة ***Langue*** والكلام ***parole***، على فرض أنه: "**يتضمن الاعتقاد فى قابلية قسمة الثقافة" (Firth,1934:19)**، وأنه يمثل نمطًا من علم اللغة يحرص على "**إسقاط الإنسان والشخصية من الاعتبار بقدر الإمكان"(Firth,1948:41)**، وأكد على وجوب وجود "عالم" علم اللغة داخل الأحداث الكلامية ذاتها، وزعم بأن الكلام يتكون من **عدد لا نهائي** من الأحداث الكلامية داخل سياقاتها، وأنه يعمل على مستوى "الكلام ***parole***" وحسب، وحين نترجم هذا الزعم إلى المصطلحات التي رفضها، نجد أن مقولة "**اللغة** *Langue*" لم تبتكر، في الواقع، لتجعل بمقدور الباحث تقديم الإيضاحات والتعميمات على مستوى التعبيرات الفعلية، وإنَّما على مستوى **الجملة *Sentence*** ، ولم تبتكر هذه المقولة كذلك لتجعل بمقدور الباحث التنبوء بالتعبيرات المحتملة في اللغة، وإنَّما لوضع مخططات القوانين البنائية المستترة لها، وبرفضه لمقولة **اللغة** *Langue* فقد وضع نفسه بنفسه فى موضع العاجز عن تقديم أي تعميمات، أو إيضاحات عامة، ومع أنه استخدم عرضًا فكرة سياق الحال النمطي، فإنَّه لم يحتفظ بهذه الفكرة على الدوام.

وعلى أية حال، بالرغم من المحاولات التى بذلها **فيرث** لإبراز القوة التفسيرية لفكرة سياق الحال، فقد ظلت هذه الفكرة عنده– كما الحال عند **مالينوفسكي**– فكرة غامضة وغير عملية، ولقد اعترف بذلك في أحد بحوثه المتأخرة إذ صرح: "**فى الوقت الحالي لا توجد حدود فاصلة محكمة يمكن الاستعانة بها فى صياغة تصنيف دقيق لسياق الحال"(Firth,1957b:177)**. هذا علاوة على أنه لم يشرح لنا كيفية استخدام تقانة سياق الحال عمليًا– قط، ولم تكن أفكاره

حولها- أو فكرته الخاصة بالمجموعة collection- واضحة كل الوضوح، وكل ما قدمه لم يكن سوى إيضاحات تدور حول المبدأ، أو النظرية العامة فقط.

وعلاوة على ذلك، فإنَّه لم يشرح قط كيفية استخدام فكرة سياق الحال في تحليل المعنى على المستوى الدلالي، ولم يعبر في الوقت نفسه عن شكوكه في مدى ملائمة الفكرة في تحليل المعنى على هذا المستوى، وكل ما أعلنه أنه أطلق علي نفسه "**أحاديًا** amonist"، رافضًا سائر **التفسيرات** "**الثنائية** dualist" للمعنى، كتفسير **دوسوسير** للعلامة *sign* التي تتألف من دال *significant* ومدلول *signifié*، **أو** تفسير **أوجدن وريتشاردز** لها على أنها تتألف من رمز ومرجع، وفسر ذلك بقوله: "**لأن دراستنا دراسة اجتماعية في الأساس، ولأننا لا نعلم سوى القليل عن العقل، سوف أكف عن التسليم بالثنائية المصطنعة بين العقل والجسم، أو بين الفكرة والكلمة، وأقنع بالإنسان الفاعل والمفكر بوصفه كلًا في ارتباطه بأقرانه البشر**" **(Firth,1935a:19)**، ولقد أطلق علي مدخله- مستعينًا بفكرة سياق الحال- اسم "الوظيفية العلمية"، على فرض أنه يؤدي إلى تعريف الحقائق تعريفًا دقيقًا وتفسيرها، دون الحاجة للتسليم بالبناء العقلي المحكم الذي يُنسب لـ**دوسوسير** **(Firth,1935b:36)** ، فقد كان يهدف من استخدامه لفكرة سياق الحال إلى تحقيق تكامل ما بين اللغة والثقافة، وإلي تأكيد اعتماد المعني علي الثقافة.

ولكن، فبالرغم من وضوح هذه الآراء، ليس من الصواب أن نفترض أن نظرياته اللغوية كانت نتاجًا لالتزامه بمعتقدات علم النفس السلوكي، ومن المؤكد أننا لا نستطيع مقارنته مع **بلومفيلد** Bloomfield في هذا المجال، وذلك لأنه انتقد نزعته السلوكية، علي فرض أنها تضع قيدًا مصطنعًا على علم اللغة، وأن العلوم اللغوية قد أصبحت تعتمد- في نظره- على مبادئها ووجهات نظرها الفلسفية الخاصة**(Firth,1949:168)**، ولقد أكد "**بالرغم من أن مدخلي الأحادي الخاص يستبعد مفهوم العقل، ويعتنق المذهب المادي، من الواجب عدم النظر إليه علي أنه يتجنب شبح المذهب العقلاني**"**(Firth,1951a:192)** ، ولقد اعتمدت نظريته السوسيولوجية علي أفكار غامضة حول الشخصية، فقد صرح: "**لا يؤكد المذهب الإنساني الذي ارتبط بعلم اللغة على الآليات والأفعال اللاإرادية، بقدر ما يؤكد على النشاطات، والدوافع، والحاجات**

والرغبات، ونزعات الجسد" (Firth,1948:143) ، وبصرف النظر عن حكمنا النهائي علي مدى الملائمة التفسيرية لفكرة سياق الحال، من المؤكد عدم وجود مدخل بديل مقارنة بها، يمكن أن يثبت فائدته التفسيرية معتمدًا على أحد البُنى الثنائية، ولقد كان الأمل يحدوه في تجنب التورط في الفرضيات الثنائية، نتيجة استخدامه لتقانات القرائن السياقية.

أما المظهر الجدير بالثناء في أبحاث **فيرث** وأنصاره على حد سواء، فإنَّه يتمثل في اهتمامهم المتواصل بالمعنى، وفي ذلك يصرح بـ: "**يعانى علم اللغة، فى رأي، من تخمة متعاظمة فى بحوث علم الأصوات، ولذلك يجب تحويل جهودنا إلى الاتجاه العكسي** (والإشارة إلى تصريح **جاكبسون** حول ضرورة إدماج دراسة "المعنى" في علم اللغة) **(Jakobson,1953:19-20)، وكما رأينا عند مراجعتنا لأبحاث مالينوفسكي، فإنَّ الاهتمام بهذه المشكلة فى بريطانيا العظمى يرجع إلى ما يزيد عن ثلاثة أرباع القرن، ولقد تناولت في بحوثي– التى أجريتها بالاشتراك مع زملائي في جامعة لندن– الدراسة الصورية للمعنى على كافة مستويات التحليل اللغوي، دون انتهاك لحرمة علوم العقل، أو المجتمع"(Firth, 1957a:116-17)**

ولقدأشار **فيرث** إلى إخفاق مؤتمر بلومينجتون Bloomington (1952)، بمن حضره من الأنثروبولوجيين واللغويين، في حل المشكلات التي طرحها **كلود ليفي شتراوس** C.Lévi-Strauss، وهو المؤتمر الذي أدي إلى تزايد الاهتمام بدراسة اللغة في علاقتها بالثقافة، وتقديم الإيضاحات حول "المعنى"، وهما الموضوعان اللذان كانا– في رأيه– غير منفصلين[1]

أما أعضاء مدرسة لندن فقد تباينت تعليقاتهم على جهود **فيرث**، فقد ذهب **روبينز** إلى حد القول: "**إنَّ نظرية فيرث فى علم الدلالة اللغوي تحاول التوصل إلى فهم الأسس الأولية لعلاقات المعنى، وهي العلاقات التى سلم الآخرون جدلًا بها من دون تمحيص**" **(Robins, 1971:45)** ومع تقديرنا للتقدير الذي أبداه **روبينز** نحو **فيرث** فإنَّ الحقيقة تظل كما هي، وهي أنه لم يهتم بتحويل فكرة سياق الحال إلى تقانة عميلة لشرح المعنى– قط، أما **جون ليونز** J.Lyons فقد كانت تعليقه على استخدام **فيرث** لنظرية السياق مختلفًا، إذ يقول: "**إنَّه بالرغم من أهمية**

---

[1] لقد قام ليفي شتراوس بنشر هذه الأفكار بعد انعقاد هذا المؤتمر بعام . انظر: Lévi-Strauss,1953;

مفهوم السياق– وعلى الأخص سياق الحال– لأية نظرية فى علم الدلالة فإنَّه لا يمكننا أن نحمل هذا المفهوم كل الوزن الذي وضعه فيرث عليه" (Lyons,1966:288). أما في ميدان علم الأسلوب Stylestics بمعناه العريض فقد ظهر أن فكرة سياق الحال عديمة القيمة، ولقد صرح **ليونز** بما يعد أهم الاعتراضات التي وجهت للنظرية: **"لا يمكننا التسليم بنظرية فيرث في المعنى بوصفها نظرية في علم الدلالة، لأنها نظرية أحادية لم يترك فيرث فيها أي حيز لتناول علاقة الإحالة"(Ibid.,:293)**، وبصرف النظر عن الافتراضات التي تقدمها النظريات البديلة حول "العقل"، فإنَّ الواقع يثبت أن نظرية **فيرث** لم تسمح بوجود أي حيز لتناول الوظيفة الرمزية للغة، ولقد تأكد عقم أفكاره ليس داخل علم اللغة فقط، وإنَّما داخل العالم الثقافي الرحب الذي كان مهمومًا للإسهام فيه، أيضًا.

– مدرسة لندن فى علم اللغة:

لقد واصل "الفيرثيون المحدثون" فى مدرسة لندن استقصاء نظرية **فيرث** في التحليل العروضي prosodic على حساب مفهومه "سياق الحال"، هذا وإن بذل البعض منهم بعض الجهود في استقصاء هذا المفهوم، واعتزم أن أقدم في هذا المقام بشكل موجز معالجة إضافية لمفهوم سياق الحال كما تلقفته أيادي علماء اللغة في مدرسة لندن من **مالينوفسكي**، وذلك على أمل الوقوف على طبيعة الإسهام الذي قدمه الميدان البريطاني (الذي تميز بين الباحثين الأنثروبولوجيين واللغويين) في هذا المجال، ويمكن العثور على الدليل الخاص بهذا التعاون في مجموعة المقالات التي ظهرت في عام 1966 تحت عنوان: "في ذكري **جون روبرت فيرث**"**(Bazell,1966)**، هذا وإن أشرت إلى بعض البحوث الرئيسية الأخرى التي أري فيها تدعيمًا لهذا الملخص.

وأولي المقالات التي ظهرت في تلك المجموعة التذكارية هو مقال **جيفري إلياس**، كان عنوانه "حول المعنى السياقي"، وفيه تبنى نموذج التحليل اللغوي لـ**هاليداي** M.A.K.Halliday في عام 1961، ولقد حدد الرسم البياني الممثل للنموذج ثلاثة مستويات للتحليل، **الأول**: ويتعلق بتحليل الجوهر، **والثاني**: بتحليل الشكل، **والثالث**: بتحليل الموقف، ولقد ربط **هاليداي** المستوى الواقع بين الشكل والجوهر بالمستوي الواقع بين الفونولوجيا والاملاء، والمستوى الواقع بين الشكل

والموقف بالسياق، وقام بوضع "الموقف" خارج دائرة علم اللغة، علي فرض أن علم اللغة يضم مستويات تحليل الشكل بشقيه (النحو والمفردات)، والمستويين التحليليين الواقعين بين كل من الفونولوجيا والاملاء من ناحية، والسياق من الناحية الأخرى، وهكذا أصبح "السياق"- وفقًا لذلك- يمثل: **"العلاقات القائمة بين الشكل والمظاهر اللغوية من ناحية، والمظاهر غير اللغوية للمواقف من الناحية الأخرى"(Halliday,1961:242-3)**، وأصبح **الموقف** موقفًا غير لغوي بالمرة **"يتماثل، وعلى غير السياق، فى اللغات بأسرها، بوصفه إحدى المقولات العامة، ولا يؤثر الاختلاف بين اللغات إلَّا في المظاهر الموقفية للمعاني السياقية"(Ellis,1966)**، وهكذا خضع مفهوم "سياق الحال" في نموذج **هاليداى** لضغط التحول إلى السياق، و"**and**" الموقف، هذا بالرغم من عدم تعرض **مالينوفسكي** و**فيرث** لـ"**of**" التي تنسب السياق للموقف، في عبارة "سياق الحال Context of Situation"، ولقد قام **إلياس** بتحليل "الموقف" إلى مظاهره الملاحظة مثل :الموقف الحاضر، الموقف الأشمل، ملامح المشاركين فيه، نطاق التعبيرات المستخدمة، أسباب اختيارها، والموضوع المطروح في الموقف، ولئن كان المظهر الأخير (الموضوع المطروح في الموقف) يمثل اعترافًا مهمًا منه بإدراج **مبحث الإحالة** refenence في التحليل السياقي، أخفق **إلياس** في تقديم الأمثلة العينية، أو العملية لكيفية استخدام تلك التقانة في تحليل المواقف غير اللغوية.

أما المقال الثاني في المجموعة التذكارية فهو مقال **براج كاشرو** Braje B. Kachru المعنون "الإنجليزية الهندية: دراسة في الإقران السياقي"**(Kachru, 1966)** ، ولقد أهتم **كاشرو** بشرح مفهوم السياق، وتوضيح ميزات استخدامه كتقانة، وقصورها في آن معًا، ولئن قام بعزل بعض مظاهر سياق الحال، اتسمت تمييزاته بين العوامل الثقافية العامة والعوامل الشخصية، أو الفردية بالعشوائية إلى حد ما[1]، ومع ذلك، فإنَّ **كاشرو** لم يفسر "المعنى" بحد ذاته، وإنَّما قدم بعض الأفكار المفيدة حول الأساليب الكلامية والشفرات الفرعية.

---

[1] في حين كان العامل الأول في المقولة الأولى (عند فيرث) هو المكانة الاجتماعية للفرد داخل الجماعة، فقد ارتبط هذا العامل (عند كاشرو) ارتباطا مباشرا بجنس المشاركين وأعمارهم، وهو ما يمثل العاملين الأولين في المقولة الثانية عند فيرث.

وربما كان مقال **ميتشال** T.F. Mitchell المعنون: "لغة البيع والشراء في برقة: تفسير موقفي: (1957)**(Mitchell,1957:32)** هو المقال الوحيد الذي حقق بعض النجاح في هذه المدرسة مع مفهوم سياق الحال، فقد استهل **ميتشال** مقاله بعرض النظريات المتداولة حول المعني قال فيه: **"يشغل مفهوم سياق الحال جزءًا رئيسيًا في أحد المداخل النظرية التي تتجنب المذهب الذاتي، والمذهب الثنائي، وهما المذهبين المتوازيين فى كل التعريفات الموجهة للغة كما أشرنا من قبل"** **(Ibid.,:32)**، ثم قام بتحليل **العناصر الجوهرية** في سياق الحال، ووضع قائمة واضحة نسبيًا لتلك العناصر، ولقد ارتبطت العناصر التي قدمها **ميتشال** بالعناصر التي قدمها **فيرث** للمفهوم، مقارنة بكافة الاقتراحات التالية التي قدمت في هذا المضمار، وهذه العناصر الجوهرية هي: الموقف الزماني المكاني للمشاركين، ونشاطاتهم، واتجاهاتهم، وشخصياتهم، وتواريخ حياتهم الشخصية.

لقد حدد **ميتشال** ثلاثة صنوف رئيسية لمواقف البيع والشراء، هي: **1–** المعاملات التجارية الخارجة عن البيع بالمزادات العلنية. **2–** المزادات العلنية. **3–** المعاملات المباشرة التي تتم داخل المتاجر، ثم شرح بالتفصيل الكيفية التي تتحكم بها الصنوف الثلاثة لمواقف البيع والشراء في التعبيرات الكلامية المستخدمة فيها، ولقد حلل بالتفصيل ثلاثة نصوص عربية تمثل تلك المواقف، وحدد التعبير المستخدم، عادة، إذا رفض البائع البيع للمشتري أو للمشترين، مؤكدًا اختلاف معناه باختلاف مواقف البيع الثلاثة، ففي موقف البيع بالمزاد العلني يحدد التعبير المستخدم القرار المتخذ في شأن المعاملة القائمة بشكل فوري، وفي موقف البيع بغير المزاد العلني (أو في موقف البيع داخل المتاجر) كان التعبير المستخدم يعبر عن رفض البائع البيع أثناء عملية المساومة التي تتم بينه وبين المشتري، ولقد أثبت **ميتشال** أن هذه الاختلافات في معنى التعبير المشار إليه تخرج عن نطاق منظور واضعي القواميس، ولإثباتها كان من الواجب استخدام مفهوم سياق الحال، وعلى أية حال، يمكن إثبات مدى نجاح بحث **ميتشال** بالإحالة إلى عدم اكتراث **لانجندون** D.T. Langendoen به، إذ صرح: **"عند مراجعة هذا البحث ندرك إلى أي حد لا ينتمي لعلم الدلالة، وإنَّما إلى عالم علم الإثنوجرافيا"(Langendoen,1968:65)**، وبالرغم من هذا النجاح، فإنَّ المقال لم يقدم "الدليل" على كيفية استخدام مفهوم "سياق الحال" في معالجة "المعنى" بحد ذاته.

أما **جون ليونز** J.Lyons فقد تلقى تدريبه في مدرسة الفيرثيين المحدثون، ولقد حاول التأليف بين بعض أفكار مدرسة لندن ونظريات القواعد التحويلية، وهو أمر واضح تمامًا عنده بدءًا من كتابه "علم الدلالة البنائي" (1963)، وحتى كتابه "مقدمة فى علم اللغة النظري" (1968) **(Lyons,1968)**

في كتابه "علم الدلالة البنائي" يجهر **ليونز** برغبته في تجنب هذا النمط من تفسير المعنى الذي سماه **فيرث** نمط التفسير الثنائي dualist، وذلك لحتمية اعتماد أي تفسير للمعنى على نمط تفسير دائري في الأساس، ونظرًا لتسليم هذا النمط الثنائي للتفسير بوجود كينونات (كالمفاهيم)، فقد كان الإثبات الوحيد لأية كينونة منها أيًا كانت، تمثل- في نظره- إثباتًا لكينونة الأشكال اللغوية التي يفترض أن المفهوم "المراد إثباته" يشترك معها في علاقة التدليل signification **(Lyons.1963:4)** ، ولقد كان تصوره لـ"ماله معنى" يقدم تعزيزًا قويًا لمفهوم "المعنى الشكلي" عند **فيرث**[1]، هذا بالرغم من إدراجه لمفهوم الإحالة- على الخلاف من **فيرث**- في نظريته الدلالية، متى أمكن ربطه بالمعطيات الملاحظة في "العالم الخارجي"، وعلى حين شكل مفهوم "الإحالة" إحدى السمات الجوهرية في النظرية الدلالية عند **ليونز**، رفض تطبيقه بلا أي ضابط على المعنى الدلالي ككل، ولقد طبقه معطوفًا على مفهوم سياق الحال، ولقد عدَّ: **"مفهوم سياق الحال بمثابة مفهوم أساسي فى أي عرض دلالي"(Ibid.,:23)**.

لقد استخدم **ليونز** مفهوم السياق في نظريته الدلالية رغبة منه في أن يحتل فيها مكانة تفوق أهميتها أهمية المكانة التي احتلها هذا المفهوم في نظرية **بلومفيلد**، الذي استعان بالمفهوم بغاية توضيح التعبيرات الغامضة، ولتفادي المآزق التي وقع فيها **بلومفيلد** حين استخدم مفهوم "الإحالة" منفردًا أدرج **ليونز** مفهومي "السياق" و"الإحالة" ضمن مفهوم الاستعمال، أو التطبيق، وعلى ذلك كان: **"الاستعمال، أو التطبيق يربط بين التعبيرات وأجزائها والمواقف والإحالات في آن معًا" (Ibid.,:28)**، ولتدعيم هذا التوجه أكد على وجود كثير من التعبيرات اللغوية التي ليس

---

(1) أو "السياق" كما يفضل أن يسميه ، ويمكن تمييز هذا المصطلح عن مصطلح "البيئة" الذي استخدم كثيرًا للإشارة إلى السياق الفونولوجى والنحوى، (انظر: . Lyons, 1963:25)

لها أية إحالات يمكن أن يتعلمها متحدثو اللغة، وأن يستخدمونها بوصفها تعبيرات قابلة للاستخدام، أو قابلة للتطبيق في المواقف المتميزة المتكررة(Ibid.,: 55).

لقد كان مفهوم السياق عند **ليونز** مفهومًا أكثر تعقيدًا منه عند **مالينوفسكي**، وأقل تحديدًا منه عند **فيرث**، هذا وإن استخدم المفهوم بشكل أكثر إيجازًا مقارنة بهما، ولقد اعتقد أنه: **"من غير السهل تعيين السياق الموقفي للتعبير بالقالب غير اللفظي للحدث الكلامي، كما أوحي بعض الكتاب بذلك (ولقد اقتبس في الهامش أسماء بلومفيلد وجاردنر ومالينوفسكي)، ومن ثم كان من الواجب تبنى تصور أكثر شمولًا وتجريدًا من تصورهم للسياق، بحيث يمكننًا من الجمع بين العناصر اللفظية وغير اللفظية تحت عنوان واحد، بحيث لا يشمل "سياق" التعبير الموضوعات والأفعال التي تمت فى كل مرة فقط، وإنَّما على معرفة المتحدث والمستمع كلاهما لكل ما جري من قبل– كذلك. بتعبير آخر يجب أن يؤخذ فى الاعتبار ضرورة فهم الأعراف، وكل البديهيات المقبولة في المجتمع طالما كان لها صلة وثيقة بفهم التعبير"(Ibid.,:83)**، على أية حال، لقد كان الجانب المهم في مفهوم السياق عند **ليونز** يتكشف من ذلك الجانب الذي وضع فيه المفهوم على غرار ارتقاء المحادثة، بغية تقرير المعنى الاضافي للمحادثة.

وعلى حين عزل **ليونز** وجهة نظره في السياق عن وجهة نظر **مالينوفسكي** فيه، التي عدها غير قابلة للتطبيق، لم يوضح مدى ارتباط وجهة نظره بالوصف العام الذي قدمه **فيرث** للسياق، ولقد صرح: **"من المؤكد أنني أقبل انتقادات فيرث للاتجاه الواقعي كما يظهر في النظريات الموقفية الأخرى، ولكن إذا اقتصر تطبيق سياق الحال على الأحداث النمطية المتكررة من العملية الاجتماعية، عليَّ الاعتراف بأنني أحيد فى هذه المسألة عنه، وأضع مفهومًا أشمل للسياق، وأكثر تجريدًا– مقارنة بمفهومه– موضع التطبيق"(Ibid.,:85)**

لقد عبّر **ليونز** عن وجهات نظر الخاصة باستخدام **فيرث** للسياق في المقال الذي نشره ضمن المجموعة التذكارية عام 1966 **(Lyons,1966)**، ولقد وضّح فيه موقفه من "الإحالة"، وهو المفهوم الذي تجنبه **فيرث** تمامًا، وفي ذلك يقول: **"لم يكن الخطأ فى علم الدلالة "المفاهيمي"**

التقليدي يكمن في المبدأ الثنائي– الذي رفضه فيرث– بذاته، وإنما كان يكمن في توسيع نطاق استخدامه العملي، وفي التسليم بالمفهومات المتوسطة" (Lyons,1963:293)

أما كتابه "مقدمة في علم اللغة النظري" (1968) فلم يقدم **ليونز** فيه شيئًا حول مفهوم السياق، ولقد أبدى استعداده فيه للتسليم بغموض صياغة المفهوم، وفي ذلك يقول: **"يجب ألَّا نأخذ استحالة تقديم أية معالجة كاملة للسمات السياقية (سواء من الناحية العملية، أو من حيث المبدأ) على أنه سبب لإنكار وجودها، أو لعدم التسليم بصلتها الوثيقة بالمعنى، حيث يمكن التسليم بذلك على أنها حجة قوية ضد أية إمكانية لبناء نظرية كاملة حول معنى التعبيرات" (Lyons,1968:413)**، ولقد كان مستعدًا أيضًا لاستبقاء هذا المفهوم بوصفه تقانة مفيدة لتحليل المعنى، وبالرغم من ذلك، فإنَّه لم يبتعد قط عن الفكرة الأصلية كما قدمها **مالينوفسكي**، على فرض أنها تقدم حلًا لمشكلة المعنى برمتها.

ونختتم هذا الجزء الخاص بمدرسة لندن مع **ميلنر** G.B. Milner **وروبينز** R.H. Robins ، وهما العالمان اللغويان اللذان يعودان بنا إلى ميدان الأنثروبولوجيا، فقد حلل **ميلنر** في أطروحة الدكتوراه (جامعة لندن– 1968) النظريات اللغوية عند **مالينوفسكي**، وصلتها الوثيقة بالدراسة التي قام بها للتعبيرات التقليدية في اللغة السموية Samoan، ولقد رصد **ميلنر** الغموض الذي لفَّ طريقة تقديم **مالينوفسكي** لنظرياته، على فرض أن نزعته البرجماتية المتطرفة قد قللت من فائدتها، وإمكانية تعميمها، وعلى الرغم من هذا الانتقاد (وانتقادات الآخرين) أقر **ميلنر** بتماسك نظرية اللغة والمعنى واتساقها ووضوحها، وعلى الأخص في الوصف الإثنوجرافي **(Milner,1986:20)**، وقام باستخدامها في تحليله للمأثورات السموية، وقد فرّقَ– مثل **هاليدى** و**إلياس**– بين "السياق" و"الموقف"، وقصر "السياق" على البيئة اللغوية، على فرض أن "الموقف" يشير إلى الظروف الاجتماعية المؤقتة التي يتم فيها الاتصال، وعلى حين قدم **ميلنر** عنصرًا ثالثًا– **مفهوم الخطاب** discourse– وللأسباب نفسها التي دفعت **ليونز** لتقديم مفهوم "الإحالة"، كان أحرص– بتقديمه لهذا المفهوم– على تجنب المشكلات التي صبغت مفهوم الإحالة، على فرض أن **مفهوم الخطاب** كان يعتمد على **"ترتيب علاقات المعنى المنتظمة، أو المقننة، التى تم الاعتراف بها**

على نحو متبادل، بكيفية ما، بين شخصين، أو أكثر من القائمين بالاتصال، وذلك داخل حدود الإحالة، والأعراف السائدة بين أعضاء إحدى الجماعات الاجتماعية، أو اللغوية الخاصة"(Milner,1968:97)، وهكذا، فبالرغم من الإطراء الذي أبداه **ميلنر** لـ**مالينوفسكي** وثنائه عليه، فإنَّه لم يكن مستعدًا- في الوقت نفسه- لقبول صياغته للسياق، لأنها اختلفت عن صياغته "هو" للمفهوم إلى حد بعيد.

أما **روبينز**، فعلى الرغم من بقائه في معسكر علماء اللغة أكثر من **ميلنر**، فقد أثبت اهتمامه بالعلاقة بين الأنثروبولوجيا وعلم اللغة مرتين في خطبتين متتاليتين ألقاهما أمام رابطة الأنثروبولوجيين الاجتماعيين في عامي 1959 و 1969 [1]، في الورقة الأولي وكانت بعنوان "علم اللغة والأنثربولوجيا" اهتم **روبينز** بشكل رئيسي بالمشكلات والمسائل العملية بطريقة حساسة، وإن كانت محدودة، وقد أخذ بعين الاعتبار تعلم اللغة بوصفها المطلب الرئيسي الذي ينتظره الباحث الأنثروبولوجي من علم اللغة، وقد يتعلق الأمر بتقدير الحقائق الأساسية في الوصف اللغوي حين يحتاج الباحث اللغوي إلى مساعدة الباحث الأنثروبولوجي في العثور على الرواة اللغويين الملائمين، وإلى تعيين الأنساق المعجمية المرتبطة بالثقافة، وعلى الرغم من ذلك، فإنَّ الورقة لم تتضمن أي اعتراف له بأهمية "المعنى" للعلمين كليهما، أما نظرته للثقافة فقد كانت مبسطة إلى حد بعيد: **"على حين كانت اللغة رمزية، وهي نسق للعلامات، لم تكن الأشكال الأخري من السلوك كذلك"(Robins,1959:176)** ، لقد كانت هذه الورقة تمثل أحد الأمثلة النمطية التي ميزت النزعة العملية في المدخل البريطاني المتداول في هذا العصر، وتقدم- في الوقت نفسه- المثال القياسي للاختلاف الصارخ الذي نجده بين المدخلين البريطاني والتحليل الأمريكي للقضية ذاتها، أو بينه وبين التحليل الذي قدمه **كلود ليفى ستروس** عام 1953 **(Lévi-Strauss.C.,1953)**.

أما مقاله المعنون: "مشكلة في بيان المعانى" (1952) فإنَّه يعد نظرية عامة استخدم فيها **روبينز** مفهوم السياق بوصفه حلًا لمشكلة المعنى، دون تقديم أي شروحات عملية لكيفية

---

[1] كان روبينز فى ذلك الحين (1964) المشرف الشرفى للتحرير المسئول عن نشر الموضوعات اللغوية في مجلة مان **Man**، وفيما يتعلق بذلك انظر الخاتمة فى كتابنا الحالى.

تطبيقه له، وفي هذا المقال يعادل **روبينز** بين المدخل السياقي ومدخل **بلومفيلد** (السلوكي)، على فرض أنه "**يحرر المعنى من هيمنة الكينونات الميتافيزيقية والسيكولوجية، أو من هيمنة الكينونات الوهمية الزائفة**"**(Robins,1952:124)**، ولقد سلّم بمفهوم "العقل"، ولقد أثارت محاولة **بلومفيلد** لتقديم المعالجات العملية للكلمات "الإدراك الخاص" جدلًا حارًا، ومن ثم فقد "**ظهرت المعاني في سياق جديد مفيد، ولم تعد بالتالي هي ذاتها معاني المتحدث**"، ولم يكن بمقدور المدخل السياقي للمعني أن يتطلع- في نظره- إلى ما هو أكثر من الأحاسيس والأفكار المعترف بها، بوصفها أجزاء يتعذر اختزالها من سياقات الحال المتعددة، أما السياقات ذاتها فهي تحدد بوصفها تجريدات قمنا بتحليلها خارج أنفسنا من مجموع خبراتنا كلها**(Ibid.,:134)** .

وفي الورقة الثانية التي ألقاها **روبينز** أمام الرابطة ذاتها عام 1969 بعنوان: "**مالينوفسكي** و**فيرث** وسياق الحال" عبر عن إعجابه بمفهوم سياق الحال، هذا بالرغم من تصريحه بعدم فهمه لوجهة نظر **فيرث**، إذ يقول: "**على أقل تقدير، وحتى يتم استبدال بنظرية سياق الحال إحدى النظريات الفعالة الأخري، فإنَّ هذه النظرية تتمتع بقيمة لا بأس بها بين علماء اللغة والإثنوجرافيين علي حد سواء**"**(Robins,1971:45)** .

لقد تتبعت في هذا الجزء تاريخ انتقال فكرة سياق الحال من أصولها الأنثروبولوجية الأساسية، وسوف أختتمه بعرض لوجهة نظر **فيرث** (وهو الرجل الذي أخذ على عاتقه نقل الفكرة من الأنثروبولوجيا إلى علم اللغة العام في بريطانيا) في **مالينوفسكي** (وهو الرجل الذي يسأل عن هذه الرؤية من نظرية السياق في الأنثروبولوجيا).

لقد اعترف **فيرث** وبقية أعضاء مدرسة لندن بأنهم مدينون لـ**مالينوفسكي** تقديرًا منهم للدور المشرف الذي قام به في بلورة اهتماماتهم المستقلة، ومع ذلك، فإنَّ التقدير الذي أبداه **فيرث** بالتحديد لـ**مالينوفسكي** كان أكبر بكثير مما كان يستحقه بالفعل، إذ قال: "**يمكننا أن نفخر به بوصفه واحدًا من صناع علم اللغة كما نفهمه اليوم في بريطانيا**"**(Firth,1957a:94)**، ولقد اعترف **فيرث** بأن ملحق كتاب: "معنى المعنى" (الخاص بمقال **مالينوفسكي**: "مشكلة المعنى في اللغات البدائية") مقارنة بالكتاب نفسه كان له التأثير الأعظم على النظرية اللغوية العامة

(Firth,1949:169) ، ثم اعترف في عام 1957 بأن مفهوم سياق الحال لا يزال مفهومًا غير محدد إلى حد بعيد، وأن **مالينوفسكي** كان في كتابه "حدائق المرجان والسحر" أقرب ما يكون من تقديم أحد الأنساق الشاملة لمفهوم سياق الحال**(Firth,1957a:177)** .

لقد كان تقييم **فيرث لمالينوفسكي** في كتاب "الإنسان والثقافة" تقييمًا مستنيرًا إلى حد بعيد، ولقد انتقد فيه مدخله المتقلب في تحليل المعنى لاستخدامه مصطلحي "المعنى الثابت"، و"المعنى الأولي"، ولموقفه من الترجمات الحرفية، وتصويراته النحوية غير المرضية، ولقد انتهي إلى القول إنَّه بالرغم من الكفاءة التي أظهرها **مالينوفسكي** بوصفه عالمًا لغويًا فإنَّ: **"النقد الأمين يدفعنا إلى القول إنَّ إسهامه اللغوي التقاني، المؤلف من تعليقات متفرقة قد انطمر فيما أطلق عليه التحليل الإثنوجرافي، وربما فُقد بأكمله فيه"(Ibid.,:117)**

وعلى حين يلاحظ **فيرث** أن المذهب الوظيفي عند **مالينوفسكي** قد امتد إلى اللغة **(Ibid.,:101)**، لم ينطلق من هذه الملاحظة ليبين لنا الخطأ الذي وقع فيه حين خلط بين المعنى والوظيفة، ولقد صرح أيضًا بأن **مالينوفسكي** لم يفهم المكانة الأنطولوجية الحقيقية لمقولاته، أو المشكلات المترتبة على نقص التعريفات– قط، إذ يقول: **"لقد اتضح أن كلمة "تعبير" كان لها إيحاءًا منومًا على مالينوفسكي دائمًا، ولقد دفعه هذا الايحاء– على الدوام– للخلط بين التركيبات العقلية النظرية وموضوعات الخبرة"(Ibid.,:111)** ، وبالرغم من ذلك، فإنَّ تقييمه له كان منصفًا إذ قال: **"ويتمثل إسهامه البارز في علم اللغة فى اهتمام نظريته العامة بمعالجة الوظائف الكلامية لسياقات الحال، قياسًا على مشكلة المعنى في اللغات "الغريبة" ولغتنا "الغربية" على حد سواء"(Ibid.,:118)** .

– بين لانجندون ومالينوفسكي:

فى مقدمة كتاب "مدرسة لندن في علم اللغة" يعلق المؤلف على الكتابات اللغوية لمالينوفسكي بقوله: **"لقد عانت تلك الدراسات منذ ظهورها وحتى وقتنا الحالي من تجاهل شبه تام من قبل الأنثروبولوجيين واللغويين كليهما، فقد صادف مالينوفسكي حظًا سيئًا غير مسبوق، ولقد كان واحدًا من الأنثروبولوجيين المهمين القلائل في العصر الذي عاش فيه،**

والأنثروبولوجي الوحيد الذي أبدى اهتماما– علي نحو دائم باللغة بحد ذاتها– فى بريطانيا العظمي"(Langendoen.1968:2) .

وهذا هو السبب الوحيد الذي دفعنا للترحيب باهتمام عالم اللغة الأمريكي **لانجندون** بنظريات **مالينوفسكي**، وبعلاقته ب**فيرث**، هذا علاوة على تزايد أهمية العالم الأمريكي بفضل تأييده لهذا النمط من علم اللغة الذي يماثل في خصاله خصال أسطورة الباحث الميداني التي حققها **مالينوفسكي** ذات يوم، ولأن تقييمه ل**مالينوفسكي** و**فيرث** قد اصطبغ– وهذا هو المهم– بوجهة النظر التشومسكية (نسبة إلى **تشومسكي**)، ولقد أصبح علم اللغة التشومسكي الموضة الفكرية السائدة الآن، ولذلك، فإنَّنا نرى أن من الأصوب تمحيص التأويل الذي قدمه **لانجندون** للنظريات اللغوية عند **مالينوفسكي** ببعض التفصيل، وذلك لكي نرى ما إذا كان يمكن قبول تأويله لهذه النظريات بوصفه بحثًا قياسيًا لها أم لا.؟. وما إذا كان **لانجندون** يصور **مالينوفسكي** فى إطار التعاليم البريطانية، أم لا– كذلك.؟.

وعلى أية حال، فإنَّ تقييم **لانجندون** للنظريات اللغوية ل**مالينوفسكي** يتفق والتقييم الذي سبق أن قدمناه لها في بداية الجزء الحالي من الكتاب، ولقد أشار **لانجندون** إلى تضارب المواقف عند **مالينوفسكي**، وإلى مدخله العرقي الخارجي الذي يعادل في ضوئه بين مشكلة المعنى ومشكلة الترجمة، وسخر كذلك من محاولته تفسير الحكاية، والمعايشة الكلامية في علاقتهما ب"سياق الحال"، وقرر أن المفهوم لم يكن بالقوة التي تكفل تفسير "المعنى"، وبالإضافة لذلك فقد اتفقت معالجته مع معالجتنا لتطور الأفكار اللغوية عند **مالينوفسكي**.

إلَّا أنه وبصرف النظر عن الاتفاق بين المعالجتين، فقد كان **لانجندون** أحد أنصار نظريات **تشومسكي**، وأحد دعاة النزعة العالمية universalism، والتأويلات الثنائية للمعنى، وقد اصطبغ تقييمه لنظريات **مالينوفسكي** وفرضياته الرئيسية بأفكار **تشومسكي**، وفي رأيه **أن فيرث** قد مارس تأثيرًا قويًا على **مالينوفسكي** طوال الفترة التى عمل فيها الاثنان معًا**(Ibid.,:2)**، ولئن التزم **مالينوفسكي** في بداية حياته المهنية بأفكار **دوركايم**، تخلى عنها في نهاية تلك الحياة، وأصبح أكثر التزامًا للاتجاه السلوكي، ولقد كان **مالينوفسكي** المبكر أحق بالتقدير– في رأي

لانجندون- من **مالينوفسكي** المتأخر، ولقد أرجع هذا التغيير "السيء" إلى تأثير **فيرث**، على فرض أن هذا الإفساد الذي مارسه **فيرث**- الذي كان له تأثيرًا طاغيًا علي **مالينوفسكي**- قد أدى إلى حرمان الأنثروبولوجيا وعلم اللغة فى بريطانيا من جهود مفكر أصيل إلى أقصى الحدود.

ولم تقتصر مناقشة **لانجندون** لمكانة **مالينوفسكي** على نظرياته اللغوية، وإنَّما انصب جلُها على أعماله الإثنوجرافية، وهو ما يفرض علىّ تكريس بعض الجهد لمناقشة الأعمال غير اللغوية عند **مالينوفسكي**، ولئن لم يكن لذلك صلة وثيقة بمناقشتي الحالية، فإنَّ له صلة وثيقة بالموجز اللغوي المحض الذي قدمه **لانجندون** لـ**مالينوفسكي**.

كانت الفترة القصيرة التي فصلت بين ظهور كتاب "الأرجونوتس" (1922)، وظهور مقال "مشكلة المعنى" (1923) هي الفترة الفاصلة التي ميز **لانجندون**، في ضوئها، بين **مالينوفسكي** فى بداية حياته المهنية، و**مالينوفسكي** في نهاية حياته المهنية، ولقد سبق لي الإشارة إلى الأسباب التي تنفي احتمال خضوع **مالينوفسكي**- سواء عن عمد، أو غير عمد- إلى تغير جذري في وجهات نظره في الفترة الواقعة بين ظهور هذين العملين، إلَّا أن **لانجندون** قد أصر علي تباين وجهات النظر اللغوية في مقال "مشكلة المعنى" عن نظرائها في كتاب "الأرجونوتس"، وأصر على أن وجهات النظر التي ظهرت في كتاب "حدائق المرجان والسحر" (1935) لم تتغير بمثل التغير الذي أصابها بين ظهور كتاب "الأرجونوتس" ومقال "مشكلة المعنى"**(Ibid.,:2)**.

وهي تصريحات تتناقض تمامًا مع اعتراف **لانجندون** نفسه بأن السيمنارات التي شارك فيها **مالينوفسكي** و**فيرث** (الذي يُسأل عن تغيير **مالينوفسكي** لوجهات نظره) لم تظهر إلى الوجود إلَّا في أوائل الثلاثينيات، وذلك لأن هذا التناقض يجعل من الصعب علينا فهم كيف يمكن اعتبار **فيرث** مسئولًا عن التغير الثوري الذي حدث لتفكير **مالينوفسكي** في الفترة الواقعة بين ظهور العملين (1922) و (1923) في بداية العشرينيات، على فرض أن هذا التغير قد حدث

بالفعل بينما كان **مالينوفسكي** لا يزال مقيمًا في جزر الكناري بأسبانيا، قبل أن يطلع على كتاب **أوجدن وريتشاردز**: "معنى المعنى"، وقبل أن يقابل **فيرث** بعد ذلك بعقد من الزمان[1].

ولقد أثبت **لانجندون** في الجزء المخصص لـ**فيرث** أنه لم يؤيد النظريات السلوكية على الإطلاق، وأن محاولته استخدام مفهوم "سياق الحال" بشكل منهجي قد أظهر مدخله في شكل المدخل الملتزم بالمذهب السلوكي أكثر من مدخل **مالينوفسكي**، إلَّا أن ذلك لا يخول له الحق في المعادلة بين وجهات نظره ووجهات النظر السلوكية عند **بلومفيلد** على سبيل المثال، لأن **فيرث** (وجميع أعضاء مدرسته) لا يشاركون **بلومفيلد** هذا الشأن إلَّا في رفضهم وضع أية نظرية للمعنى في ضوء الافتراضات الخاصة بطبيعة العقل والتفكير.

وسوف نعالج بالتفصيل مزاعم **لانجندون** في شأن **ملحمة** المواقف النظرية عند **مالينوفسكي**، ولقد اقتبس من كتاب "حدائق المرجان" تصريحًا له يقول فيه: **"يكمن جوهر نظريتي في الثقافة في اختزال الدوركايمية إلى مصطلحات علم النفس السلوكي" (Malinowski,Vol.II,1935:236)**، وتجاهل تصريحًا آخر له قرر فيه أنه انتقل إلى أحد المجتمعات لملاحظة شعيرة كامكوكولا Kamkokola التي تعد، في هذا المجتمع، بمثابة أحد الأحداث الاجتماعية الكبرى، ويشارك في أدائها جميع أعضائه، وذلك على الخلاف من الوضع القائم في مجتمع أومراكانا Omarakana، حيث لا تُعد تلك الشعيرة كذلك، ولقد عزا **مالينوفسكي** هذا الفضول إلى: **"كنت أعاني في ذلك الحين من موقف سوسيولوجي مفرط، وهو موقف دوركايمي غالبًا"(Malinowski,1935,Vol.I:282)**، إنَّ هذا التصريح إلى جانب التصريح الذي حرص **لانجندون** على اقتباسه يعزز وجهة نظره كذلك، ومع ذلك، فقد كانت عبارة: "في ذلك الحين" تشير إلى أكتوبر 1915، أو إلى بحثه الميداني الذي استهله في جزر التروبرياند في مايو 1915، ولقد ذكر كثيرًا (على صفحة 240 من الجزء الأول من كتاب "حدائق المرجان" على سبيل المثال) أن منهجه الوظيفي قد تطور أثناء بحثه الميداني، وبناء على ذلك يمكن أن نفترض أن

---

[1] فيما بين عامي 1914 و1921 كان مالينوفسكي خارج بريطانيا، ولقد ولد فيرث في عام 1890، وقد ذكر تقديم كتاب "في ذكرى جون روبرت فيرث" (1966) أنه عُين بعد عودته من الهند في عام 1928 بقسم الصوتيات بجامعة لندن، ولذلك قد يكون عام 1928 تاريخ أسبق بكثيرعن التاريخ الذي يجب على المرء أن يؤرخ به لبداية تعارفهما معًا.

تصريحه الأخير هذا يشير بالتحديد إلى التصورات غير النظرية التى بدأ بها بحثه الميداني، ولا يشير إلى مْنّ خضع لتأثيرهم فى كتاباته اللغوية في بداية حياته المهنية[1].

وفي الحقيقة، فلئن أبدى **مالينوفسكي** في بداية حياته المهنية إعجابه بـ**دوركايم**، ووصفه بـ**"أنه واحد من أعظم السوسيولوجيين الأحياء الذين يتمتعون بالعبقرية ورفاهة الحس" (Malinowski,1913)**، انتقده في بحثيه اللذين استشهد بهما **فيرث(Firth,1957a)** ، وتجاهلهما **لانجندون**، حيث أنه لم يقبل قط **مفهوم "الروح الجمعية** Collective Soul"، وقد صرح بأن **"التسليم بمفهوم الوعي الجمعي عقيم، وعديم الفائدة للملاحظ الإثنوجرافي" (Malinowski,1916:423n)**، ولقد هاجم **مالينوفسكي** في مراجعته لكتاب **دوركايم** "الصور الأولية للحياة الدينية" Les forms élémentaires de la vie religieuse فكرة **"تشييء" المجتمع**، وأثبت- في ضوء نزعته العملية المناقضة للنزعة التنظيرية عند **دوركايم**- اعتراضه على تأكيد **دوركايم** على عدم التجاء التفسير السوسيولوجي إلى نظريات علم النفس الفردي، وقال: **"تظهر هذه المسلمة عند تطبيقها على أنها قاعدة مصطنعة وعقيمة إلى حد بعيد، وبالأخص بالنسبة للأنثروبولوجيين البريطانيين الذين يفضلون التفسيرات السيكولوجية للأصول دائمًا" (Malhnowski,1913:526)**.

وتوضح هذه الفقرة إحدى العقائد الأساسية التى ظلت ملازمة لـ**مالينوفسكي** طيلة حياته، وهي عقيدة تبطن تصريحاته بأسرها في كتاب "حدائق المرجان"، ولقد ضلل **مالينوفسكي** نفسه، مثلما ضلل **لانجندون** أيضًا، لأنه لم يكن دوركايميًا، ولم يكن سلوكيًا كذلك، ولقد انتقلت كراهيته لـ**دوركايم** إلى الرؤي اللغوية التي ظهرت في مجلة "الحولية السنوية للسوسيولوجيا" L´Année Sociologique فى ذلك الحين. وعلى ما يقوله **فيرث: "إنه لم يكن لديه ما يمكن أن يفعله فى ضوء مفهوم الروح الجمعية"**، ومن المفترض أنه رفض **"التصور الفرنسي للغة Langue بوصفها وظيفة للجمعية"(Firth,1957a:95)** ، ويمكن إثبات هذه الفرضية التي ذهب

---

[1] لقد صرح مالينوفسكى بأن ملامح نزعته الوظيفية الخاصة قد تطورت عن خبرته الميدانية، بينما تطورت النزعة الوظيفية لراد- كليف براون عن تعاليم دوركايم. انظر: (**Malinowski,1939:939**) .

إليها **فيرث** عن طريق **مالينوفسكي** نفسه إذ صرح: **"لا مفر من الاستغناء عن التمييز بين اللغة Langue والكلام Parole"** **(Malinowski,1913)** .

نحن نعرف أن نظريات **مالينوفسكي** كانت تبدأ من الفرد على الدوام، ولقد سبق أن رأينا مدي اعتماد نظريته في الطبيعة السحرية للغة على **المدخل الارتقائي** Genetic، الذي كان ينظر للتطور اللغوي عند الطفل، بوصفه نموذجًا للتطور اللغوي في المجتمع، ولقد استخدم هذا المدخل الارتقائي في بحثه لـ"القرابة"، وذلك كرد فعل على مدخل **ريفرز** Rivers، الذي كان يؤكد على أهمية جمع مصطلحات القرابة، واستخدام نماذج الأنساق التصنيفية Classificatory للقرابة، بوصفها دليلًا على رواسب من الأنساق الاجتماعية السابقة التي لم يقم عليها دليل، أو لم يتم البرهنة على وجودها**(Rivers,1901)** ، ولقد حرص– على المقابل لـ**ريفرز**– على معالجة "القرابة" من منظور الطفل الفرد في خضوعه للتكامل الارتقائي داخل المجتمع الذي يولد، ويتربي فيه، ولقد سبق الإشارة بإيجاز إلى موقف **مالينوفسكي** من المصطلحات التصنيفية للقرابة، إذ اعتقد أنه حين يستخدم مصطلح واحد للإشارة إلى أكثر من شخص، فإنَّ أحد الاستخدامين يكون استخدامًا **استعاريًا** metaphorical للمصطلح الآخر، ويكون الاختلاف القائم بين الشخصين واضحًا تمامًا لكل من يعنيهم الأمر، ولقد أثبت وجهة نظره في المصطلحات التصنيفية للقرابة في تقديمه لكتاب **ريموند فيرث** R.Firth المعنون: "تيكوبيا We, the Tikopia"، هذا بالرغم من تعارضها من وجهة نظر المؤلف الذي يقدم له الكتاب، إذ يقول في تلك المقدمة:

"فى رأيّي يمكن النظر لوظيفة كل استعارة (مجازية) بوصفها تمثيلًا جزئيًا للشخص المخاطب بوصفه أبًا، أي بوصفها تمثيلًا جزئيًا للشخص الأصلي، أو للأب الحقيقي، وهكذا كانت التوقعات والمواقف العاطفية وحتى الادعاءات القانونية تتحول، على فرض أن الاستخدام اللغوي (المجازي) يجرى موازيًا (للاستخدام اللغوي الأصلي، أو الحقيقي) بغاية تشكيل الروابط الاجتماعية الجديدة" (1) (Malinowski,1936:x).

---

(1) لقد سبق لـ مالينوفسكي أن أثبت وجهات نظره في هذا الموضوع فى مقاله عن القرابة (1930): "ليس لهذه المشكلة، أو لأية مشكلة أخري تبدأ من الطبيعة التصنيفية لمصطلحات القرابة أية شرعية ألبتة، فالحقيقة الواضحة هى أن مصطلحات القرابة لم توجد، ولم يكن لها أن توجد"، ثم يذكر عن استخدام المصطلح ذاته للإشارة لأكثر من شخص: "مع أن الأصوات التى استخدمت

وفي دراسته للقرابة وصف **مالينوفسكي** في البداية طبيعة العلاقات داخل العائلة "النواة" من وجهة نظر **الأنا** egocentred التي تهتم بالعواطف وعلم النفس الفردي، ومن ثم أصبحت الروابط القرابية الأعرض حتمًا روابط اجتماعية ثانوية، فإذا أشارت كلمة tama في اللغة الكيروينية Kiriwinian إلى "الأب"، فإنَّ استخدامها بهذه الطريقة لم يدفع **مالينوفسكي** للبحث عن أي تفسير سوسيولوجي يقوم على اعتراف أعضاء المجتمع بتشابه الأدوار التي يقوم بها "الأب" و"ابن أخته"، أو التشابه في المكانة التي يحتلها كل منهما في المجتمع، وإنَّما كان يدفعه لأن يفترض، دون تردد، أن كلمة "tama" تعني الأب، أو أنها مرادفة له، ومن ثم فإنَّ استخدامها للإشارة إلى "ابن أخت الأب" يعد بذاته إمتداد "شاذ" لمعناها، وهذا يبين التأثير الذي يمكن أن تمارسه اللغة المحلية على أعراف المجتمع وأفكاره **(Malinowski,B 1929:447)** .

لقد اعتمدت نظريات **مالينوفسكي** على مباديء علم النفس الفردي، وهو علم كان يتناقض بطبيعته مع توصيات **دوركايم**، ومع ذلك، فقد كان علم النفس الـ**مالينوفسكي** أقرب ما يكون من المذهب السلوكي الذي كان تعديلًا لـ**فرويد** Freud، ومزيجًا من نظرية الانفعالات والعواطف التي قدمها **شاند** Shand، ولقد عدل **مالينوفسكي** في كتابه "الجنس والكبت في المجتمع الهمجي" (1927) **(Malinowski,1927:447)** عن تأييده السابق لـ**فرويد**، وذلك لاعتماده على شكل من "الشعور الجمعي" في صياغته لأفكاره، وفي مقال "**مالينوفسكي** ودراسة القرابة" (1957) يعلق **فورتس** Fortes بقوله: **"علينا البحث عن التفسيرات السيكولوجية لبواعث السلوك، التي توصل مالينوفسكي بشكل طبيعي إليها نتيجة رفضه للنظريات التاريخية ولعلوم الاجتماع "الجمعية"(Fortes,M.1957:168)**، وبالفعل، لقد كان **مالينوفسكي** أحرص في كافة أعماله الإثنوجرافية على تفسير الأعراف في ضوء تعيين الدوافع السيكولوجية التي تكمن فيها، وهو توجه نجده في مناقشته لقوانين هدايا الحصاد، إذ يقول: **"سيكون من الضروري رؤية ما إذا**

في هذين الاتجاهين المختلفين هي ذاتها، إلَّا أن الاستخدامات ذاتها– أي المعاني– هي استخدامات متخالفة" انظر: (Malinowski,1930:19-29)

:

كنا نستطيع اختزال هذه القوانين إلى البواعث الرئيسية للفعل الإنساني (الجوع والحب والخيلاء)، أم لا" (Malinowski,1935,Vol.I:188)، وفي موضع آخر: **"ليس من واجب الباحث الإثنوجرافي تأكيد الحقائق الخارجية، أو الحقائق الظاهرة فحسب، وإنَّما تفسير الأفكار والدوافع والمشاعر، وردود الأفعال العاطفية، والرغبات المكبوتة لدي الوطنيين كذلك"(Ibid.,:199)** .

لقد أهتم **مالينوفسكي** في سائر أعماله بالصراع القائم بين "**المثال**" الذي يعترف الوطنيون به رسميًا، والممارسات الفعلية التي يلاحظها الباحث الإثنوجرافي لهذا المثال، وبالرغم من صعوبة استنباط الخطوط العفوية لممارسات السلوك، فإنَّها تكشف، على الدوام، عن الدوافع الكامنة للسلوك**(Malinowski,1936:121)**، ومثل هذه الأفكار تدين- في الغالب- إلى نظريات الكبت واللاوعي عند **فرويد**.

والآن سوف أتحول للتعليق على تعليقات **لانجندون** على مظاهر تطور وجهات نظر **مالينوفسكي**، فقد زعم أن **مالينوفسكي** كان يعتقد في بداية حياته المهنية في أن: "**البُنية الاجتماعية بُنية سيكولوجية في الأساس، ومن ثم، لم يكن بالإمكان فهم السلوك الاجتماعي المُلاحظ إلَّا في علاقته بالسيكولوجيا، وحسب"(Langendoen,1968:35)**، ومن هذا المنظور أصبح السلوك الملاحظ في كتاب "حدائق المرجان" هو الجانب المهم، ولم يوضح **لانجندون** ما يقصده بهذا التعليق، هذا وإن لم يكن الخطأ خطأه، وإنَّما كان خطأ **مالينوفسكي**، على فرض أن أفكاره حول "موضوع" البُنية الاجتماعية كانت غامضة ومتضاربة، ولم يقدم أي دليل على تطور وجهات نظره حول هذا الموضوع، وعلاوة على ذلك، إذا تتبعنا هذا التطور، سوف يتضح لنا أنه يسير في الاتجاه المقابل للاتجاه الذي سار **لانجندون** فيه، ويمكننا العثور في كتاب "الأرجونوتس" على التصريحات التي تدعم ما ذهبنا إليه، إذ صرح: **"بالتوصل إلى الاستنتاجات العامة حول المظاهر العريضة للتفكير والعرف البدائيين، أصبح عمل الباحث الإثنوجرافي عملًا خلاقًا حقًا، طالما أنه قد يفهم- فى ضوئها- ظواهر الطبيعة الإنسانية التى لم تتكشف بعد، لٰمْنّ صادفتهم حتى"(Maliowski,1922:397)**، ولقد قدم في أحد التصريحات تمييزًا تافهًا بين "الوقائع

Facts" و"النظريات Theories"، مؤكدًا علي ضرورة بقائهما منفصلين فقال:"**اعتقد أن المصادر العلمية الوحيدة غير المثيرة الجدل هي المصادر الإثنوجرافية، وهي تسمح لنا بأن نميز بوضوح بين الإيضاحات والتأويلات الوطنية الناتجة عن الملاحظة المباشرة من ناحية، وتدخل المؤلف القائم على البديهة ورؤيته السيكولوجية من الناحية الأخرى**"(Ibid.,:3) .

قد تؤكد المعاينة الظاهرية لوجهات نظر **مالينوفسكي** (في بداية حياته المهنية) في "النظم" تقدير **لانجندون** لها، وذلك لأنه زعم في هذه المرحلة المبكرة أن الرجل الوطني لا يمكنه أن يخبر الإثنوجرافي بنفسه "ما النظم" في مصطلحات مجردة، ولقد اعتقد أن بإمكان الإثنوجرافي معالجة هذه المشكلة عن طريق جمع المادة العينية اللازمة، والقيام بالاستدلالات العامة للازمة للتفسير(Ibid.,12)، وهكذا قسم **مالينوفسكي**، الموضوع لـ "الباحث الإثنوجرافي" إلى ثلاثة أقسام هي: النظم والسلوك والتعليقات الوطنية، ولكن **لانجندون** عدَّ المقولة الأولى (النظم) المقابل الكامل للواقع السيكولوجي غير القابل للملاحظة: "**يجب تسجيل تنظيم القبيلة وتشريح ثقافتها في شكل ثابت واضح، وذلك باستخدام منهج التوثيق العيني الاحصائي**" (Ibid.,:22) .

ومع ذلك فلقد تراجع **مالينوفسكي** في كتاب "حدائق المرجان" عن موقفه المعلن (في الأرجونوتس) من الفصل بين "الواقع" و"النظرية"، إذ أكد: "**من المستحيل وجود ملاحظات دون نظرية**"(Maliowski,1935;Vol.I:321) ، ولقد أعتقد في ذلك الحين: "**أنَّ الإنجاز الرئيسي في الميدان لا يكمن في التسجيل الإيجابي للوقائع المشاهدة، وإنَّما في التصوير العقلاني لما يعرف باسم عقود النظم الوطنية**"(Ibid.,:317)، ولقد اعترف باختلاف وجهة نظره الحالية عن تلك التي كان يعتنقها، حين كان يؤمن بقيمة منهج التوثيق الموضوعي (Maliowski,1935;Vol.II:326)، أي في الوقت الذي كان لا يزال فيه– كما يشير– في الميدان. ولقد سبق أن بينت كيف احتفظ **مالينوفسكي** في كتاب "الأرجونوتس (1922)" باحترامه الكامل للوقائع، علي النقيض مما صرح به في كتاب "حدائق المرجان" بالقول: "**يجب أن يعيد الملاحظ الإثنوجرافي انشاء مباديء التنظيم الاجتماعي ومبادئ العرف القانوني، ومبادئ الاقتصاد، ومبادئ الدين من التجليات وثيقة الصلة بهذه الموضوعات، التي قد تتباين في دلالاتها، فهذه العوالم غير المنظورة هي**

العوالم المهمة– من وجهة النظر العلمية– في دراسة الثقافة، وهي عوالم لا يمكن للملاحظ اكتشافها إلَّا عن طريق التقدير الاستنتاجي، والانتخاب، أو الاختيار، والتركيب أو التأليف العقلي"(Maliowski,1935;Vol.I:317).

ولقد سبق القول إنَّ تصريحات **مالينوفسكي** حول الثقافة والنظم كانت متضاربة، وأنا على يقين في إمكانية التقاط كثير من هذه التصريحات بعيدًا عن الكتابات الخصيبة عنده، هذا مع أن هدفي لا يتعلق بالحكم على تطور وجهات نظر **مالينوفسكي** في الثقافة والنظم، بقدر ما ينحصر في إثبات عدم دقة الملاحظات التى قدمها **لانجندون** حول الموضوع، ومن المؤكد أنها مثيرة للجدل بما ينقص من قيمة برهانه الذي اعتمد عليه.

أما المظهر الآخر الذي وجده **لانجندون** جديرًا بالتقدير عند **مالينوفسكي**– في بداية حياته المهنية– فيتمثل في **"اعتقاده في وجود الكينونات العالمية المجردة في النظرية الإثنوجرافية، وأن تلك الكينونات تتباين في مظاهرها الفعلية في مختلف المجتمعات" (Langendoen,1968:2)**، ويماثل هذا المظهر من تفكير **مالينوفسكي**–بالتحديد– استخدام فكرة **العموميات** universals في نظريات **تشومسكي**: **"ليس بالمعنى الذي يقر بوجودها بالضرورة فى سائر اللغات، وإنَّما بالمعنى، غير المعتاد، لمصطلح "عالمي"، الذي يمكننا من تعريفها مستقلة عن المظاهر التي تتخذها في أية لغة، ومن تحديدها حين تظهر في بعض اللغات على أساس من تعريف النظرية اللغوية العامة لها"(Lyons,1970:99)**.

ونحن نجد أنه من الصعب للغاية علينا فهم ما يرمي إليه **لانجندون** بالتحديد، وعلى الأخص إذا كان ثمة فقرة كتبها **مالينوفسكي** في الفصل الأخير من كتاب "الأرجونوتس"، ارتبطت عناصرها الأساسية مع الوصف الذي قدمه **لانجندون** لتصوره للعموميات، ومع ذلك توضح الفقرة ذاتها– في الوقت نفسه– إلي أي حد يختلف تأويلنا للعموميات عن تأويل **لانجندون** لها بمجرد النظر لكاتبها بوصفه جزءًا من التراث الأنثروبولوجي البريطاني، واقتبس فيما يلي الفقرة كاملة :

"يحدوني الأمل بمجرد اكتشاف هذا النمط الجديد من الحقيقة الإثنوجرافية في إمكانية العثور علي النماذج المشابهة لها، أو النماذج الشقيقة لها فى أماكن أخري، فقد أثبت

تاريخ علمنا حالات أخري كثيرة تم فيها اكتشاف نمط جديد من الظواهر، وبعد أن أصبح هذا النمط الجديد موضوعًا للنظرية، وبعد أن خضع للمناقشات، والتحليل تم العثور على أنماط مشابهة له فى أماكن أخري في العالم، لقد أُستخدمت كلمة الحرام tabu– وهى كلمة بولينيزية وعرف بولينيزى– بوصفها نموذجًا أصليًا، ولقبًا eponym لجميع النظم المماثلة التى تم العثور عليها بين السلالات المتوحشة والبربرية والمتمدينة على حد سواء، أما مقولة الطوطمية totemism فقد عُثر عليها، للمرة الأولي، وسط إحدى قبائل الهنود بأمريكا الشمالية، ثم برزت للأضواء بفضل كتاب فريزر، ثم دعمتها الوثائق من سائر أنحاء العالم، بحيث تضخم تأريخه لها حين أعاد كتابة القصير، حتى ملأ ما يزيد عن أربعة مجلدات، أما مقولة مانا mana فقد أُكتشفت في أحد المجتمعات المالينيزية المحلية، ثم تنامت أهميتها بفضل أعمال هوبرت Hubert وموس Mauss وماريت Marett وآخرين، وليس ثمة شك فى بروز هذا المفهوم (مانا) فى المعتقدات والممارسات السحرية لدي الوطنيين سواء ذكروه صراحة، أو لم يذكروه، وتلك أمثلة كلاسيكية معروفة تمامًا، ويمكننا إضافة أمثلة أخري متى أصبح ذلك ضروريًا"(Maliowski,1922:514).

على أية حال، فإنَّ مْنّ اطلعوا على استخدام الأنثروبولوجيين في القرن التاسع عشر للمقولات الوطنية (وهو موضوع سبق وأن أشرنا إليه في الجزء الأول من الكتاب) سيدركون على الفور حقيقة المعنى الذي ترمي إليه هذه الفقرة.

وعلى حين سبق وأن قدمت مناقشة تفصيلية للقضايا اللغوية عند **مالينوفسكي**، سوف أتناول– من جديد– بإيجاز القضايا اللغوية عند **مالينوفسكي** التي يختلف تقييم **لانجندون** عن تقييمي لها، وذلك على فرض أن الجانب الأكبر من مناقشته لتلك القضايا لم يقتصر على علم اللغة عند **مالينوفسكي**، وإنَّما تطرق لتقييم إسهاماته الأنثروبولوجية كذلك، ومن ثم فقد أصبح لمثل هذا التناول الجديد لتلك القضايا أهميته بالتأكيد.

يعتقد **لانجندون** أن **مالينوفسكي** كان في الموضع الصحيح حين ناقش المقولات النحوية في مقاليه "الأدوات التصنيفية (1920)" و"مشكلة المعنى (1923)"، هذا وإن ارتبطت مناقشته

لها بالقواعد المدرسية الاصطلاحية، وفي الواقع لم يكن لهذين المقالين أية قيمة داخل المذهب العالمي universalism ، ومن غير الممكن الاقرار بأنهما يمثلان إسهامًا إيجابيًا في هذا المضمار، ولكن **لانجندون** يؤكد على أن **مالينوفسكي** في بداية حياته المهنية أظهر أصالة لم تستمر معه، وإنَّما اختفت فيما بعد، إذ يقول: **"كانت مقولات القواعد العالمية (عند مالينوفسكي) تشكل أساس التصنيفات غير المنظورة في السلوك اللغوي عند الإنسان" (Langendoen,1968:36)** ، إلَّا أنه إذا كان للمقولات النحوية العالمية أية قيمة عند **مالينوفسكي**، فإنَّ ذلك لم يكن ليكون كذلك لأنها تمثل- في نظره- عموميات "الأدوات التصنيفية"، وإنَّما لأنها تماثل **عموميات "مشكلة المعنى"**، وذلك لأنه أهتم في مقال "الأدوات التصنيفية" بتفسير عموميات اللغة بالرجوع إلى السلوك غير اللغوي.

لقد قرر **لانجندون** أن **مالينوفسكي** لم يكن مستعدًا لقبول ارتباط المصطلحات الوطنية بمقولاتها العقلانية، بعد ظهور كتاب "حدائق المرجان (1935)، وهذا صحيح، إلَّا أنه سبق لي أن أثبتُ أنه لم يقبل قط أية وجهة نظر كهذه منذ بداية حياته المهنية، وهو رأي يؤيده موقفه الثابت من المصطلحات التصنيفية للقرابة، ومع ذلك يصرح **لانجندون** بأن دراسة المعنى عنده كانت ضعيفة الصياغة في بداية حياته المهنية، هذا بالرغم من **"أهمية التعريفات الوظيفية للكلمات في علم الدلالة، وأهمية تعلمها من طريق المشاركة الفعالة أثناء الاستخدامات المعتادة للموضوعات التى تشير إليها"(Langendoen,1968:35)** .

وهذا هو ما صادف استحسان **لانجندون** من **مالينوفسكي** في بداية حياته المهنية، دون نظريته "سياق الحال"، وعلى حين لم يستعمل **مالينوفسكي** مفهوم "سياق الحال" منذ البداية، بإمكاني إثبات وجوده في مقال "الأدوات التصنيفية" في إحدى الجمل المهمة (التي لم يشر إليها **لانجندون**) قرر فيها: **"لدي الآن نظرية دلالية خاصة بي"**، وفي كثير من الجمل التي ذكر فيها كلمة "السياق" في كتاب "الأرجونوتس"كذلك.

وقد اتفق مع **لانجندون** في أن **مالينوفسكي** استخدم مصطلحات المذهب السلوكي في كتاب "حدائق المرجان"، رغبة منه في التعبير عن بعض نظرياته اللغوية**(Ibid.,:2)**، ولذلك ظهرت

هذه النظريات أكثر تطرفًا في أعماله المتأخرة، هذا مع أنني سبق وأن اقترحت– عند مناقشتي التفصيلية لهذه النظريات– الأسباب التي دفعته لذلك، ولكن أن يزعم **لانجندون** أنه كان يتمتع– في بداية حياته المهنية– بوضع نظري ثري وأصيل، وأن هذا الوضع لم يتواصل في أعماله المتأخرة، وأن هذا التحول يعود إلي اعتماده– بفعل تأثير **فيرث**– علي معتقدات علم النفس السلوكي(Ibid.,:2)، فإنَّ هذا الزعم يعود إلى أنه كان تشومسكيًا متزمتًا، وإلى كراهيته الشديدة للسلوكية، وتفضيله للنظريات العقلانية، ولفكرة عموميات اللغة في النظرية اللغوية، وهنا فقد أصبح من السهل علينا فهم سبب تفضيل **لانجندون** لـ**مالينوفسكي** في بداية حياته المهنية، التي كان فيها عقلانيًا rationalist غالبًا(Ibid.,:2).

إلَّا أن **مالينوفسكي** في بداية حياته المهنية هذه– ولسوء حظ **لانجندون** – لم يكن له أي وجود، وإنَّما كان خلقًا من انشغال باله، وهو أمر يمكن إثباته في حرصه على استخدام العبارات التشومسكية النمطية لتأويل الإيضاحات التي أشار **مالينوفسكي** فيها إلى التأثير الواقع على الباحث من غوصه في حياة الوطنيين(Malinowski,1922:21) مثل: "**يعني مالينوفسكي من قوله أنه بمجرد أن يباشر الباحث الإثنوجرافي الحياة الوطنية، يبدأ في اضفاء الصفة الذاتية علي معرفة قواعد المجتمع التي تماثل– في مراميها– معرفة الوطنيين أنفسهم**"(Ibid.,:14)، وفي استخدامه الخطير لقاعدة الاقصاء لحماية نظريته، واعتقاده في تشجيع **فيرث** لـ**مالينوفسكي** علي تغيير موقفه القديم، إذ يقول: "**هناك سبب يدعونا للاعتقاد في مقاومة مالينوفسكي لهذا الانحراف (يقصد السلوكية) إلي حد ما، حيث توجد في كتاب "حدائق المرجان" صفحات اكتست برنين مالينوفسكي فى بداية حياته المهنية بالتحديد**"(Ibid.,:3).

لقد كان **لانجندون** مستعدًا للتسليم بتضارب **مالينوفسكي** في مواقفه، وفي الواقع فإنَّ عدم اتساق **مالينوفسكي** كمنظر يعد أمرًا مثيرًا للغرابة، ولقد انتبه علماء اللغة اللندنيون إلى ذلك كثيرًا، وعلى أية حال، لا يمكنني الإدعاء أنني قدمت **مالينوفسكي** بشكل نهائي في هذا الجزء، فتقديم هذه المعالجة أمر مستحيل، ومن المؤكد أنها تحتاج إلي تحليل أطول من التحليل المقدم في هذا المكان وأكثر عمقًا منه، ولقد تعمدت إثبات أن صورة **مالينوفسكي** تناقض تمامًا الصورة التي

رسمها **لانجندون** له، لأن معالجته لـ**مالينوفسكي قد** أظهرت أن تقدمه العقلي كان تقدمًا منطقيًا ومتقنًا لأقصى الحدود، على نحو لم يعد لهذا التقدم العقلي (المرسوم) أية علاقة بصورة **مالينوفسكي** التي تظهرها النصوص بالفعل، ولسوء حظ الأنثروبولوجيا البريطانية أن "**دوركايم الثاني**" هذا لم يوجد قط، ولا يمكن أن يُلام **فيرث** على ذلك، وتلك قضية ليس لها أية صلة وثيقة بمناقشتنا الحالية، وذلك لأن التأثير الذي دار بين الأنثروبولوجيا وعلم اللغة في هذا العصر لم يكن تأثيرًا متبادلًا يسير في الاتجاهين، وإنَّما سار في اتجاه وحيد من الأنثروبولوجيا إلى علم اللغة، ولئن أدرج علماء اللغة اللندنيون **مالينوفسكي** في شجرة نسبهم، مع ضآلة تأثيره في دراساتهم الوصفية، تجاهل علماء الأنثروبولوجيا البريطانيون **فيرث** الذي مارس مثل هذا التأثير القوي- وفقًا لـ**لانجندون**- علي **مالينوفسكي**، وتجاهلوا مدرسة لندن في علم اللغة- أيضًا، واتبعوا **مالينوفسكي** القدوة المقدسة لهم، وتبنوا أيدلوجيته، وأدانوا بالولاء الخالص له. وعلي أية حال، فإنَّ التاريخ المسجل للأنثروبولوجيا في الجزء الثالث (من هذا الكتاب) لعصر مْنّ بعد **مالينوفسكي** يدفعنا لأن نستنتج- وعلي النقيض من وجهة نظر **لانجندون**- أن **مالينوفسكي** نفسه كان مسئولًا عن مواقف الوظيفيين من اللغة، وعلي ما يقول **أردنر**: **"كان ذلك نتيجة التأثير الشخصي الذي مارسه مالينوفسكي علي الأنثروبولوجيا الاجتماعية البريطانية، بحيث انزوي الاهتمام الوظيفي إلي جانب انزواء اهتمامات أخري كثيرة غيرت من مناخ المذهب غير العقلاني المهيمن الذي كان مخيمًا على إمبراطوريته عند وفاته"(Ardener,1971:ix)**.

لقد سبق لي القول إنَّ **مالينوفسكي** الذي قدمه **لانجندون** لم يكن سوي انعكاسًا لانشغال باله، ولو اتبعنا هوانا ووضعنا **مالينوفسكي** في إطار "سياق حال" الأنثروبولوجيا الاجتماعية البريطانية، سوف نري أنه يدين بقدر كبير من مواقفه اللغوية إلي أسلافه من القرن التاسع عشر، وأن كل ما هو جديد عنده لم ينفصل عن تأكيده المفرط على كل ما هو إمبريقى وبرجماتي فى نظريته الأنثروبولوجية، ولقد كانت وجهة النظر الوظيفية هي وجهة النظر المسئولة عن اختزاله لـ"معني" اللغة إلي التأثير الذي تمارسه، ولقد أدت التقاليد البريطانية بعلماء الأنثروبولوجيا إلى النظر لعلم اللغة على أنه يشكل إقليمًا أجنبيًا عن إقليمهم الأنثروبولوجي الخاص، ولقد مرت

فترة طويلة من اللامبالاة، والإهمال لوجهة نظره الوظيفية في اللغة، فترة أطول بكثير مما صادفته وجهات نظره الأنثروبولوجية الأخرى، حتى لاقت الاعتراف بها أخيرًا.

الجزء الثالث
معاصرو مالينوفسكي ومَنْ بعدهم

– تأثير مالينوفسكي:

حين ننتقل لمراجعة أعمال الأنثروبولوجيين البريطانيين المعاصرين ل**مالينوفسكي**– سواء من المؤيدين، أو المعارضين– سوف نكتشف عدم اهتمام أي منهم باللغة، إلى حد يوقع معه أية مناقشة نقدية لهذه الأعمال فريسة سهلة للتخبط والارتباك، وذلك بسبب عدم تجانس المواد اللغوية في هذه الاعمال، بل وتنافرها وعدم منهجيتها في بعض الأحيان، وهو وضع ظل قائمًا على أقل تقدير حتى بداية الستينيات، وعلى أية حال، يمكن أن نتلمس حقيقة هذا الوضع في ضوء التأثير الذي مارسه **مالينوفسكي** عليهم .

وربما كانت الفكرة اللغوية الوحيدة التي صادفت نجاحًا كبيرًا بين الباحثين المعاصرين له تتمثل في توصيته بضرورة الاستعانة باللغة الوطنية في البحث الميداني، فنتيجة للتقدير الذي صادفته هذه التوصية أصبح شيئًا أشبه بالعار أن يستخدم الباحثون الميدانيون وسيطًا آخر غير اللغة الوطنية (كاللجوء إلى المترجمين، أو الاستعانة بأية لغة ثالثة مشتركة) في الاتصال مع الوطنيين، إلَّا أنه بالرغم من دقة التوصية وحساسيتها البالغة، فقد بخس الباحثون الأنثروبولوجيون الميدانيون– الذين أخذوا بها– من قدرها، ولقد علق **وسترمارك** Westermark علي تلك التوصية قائلًا:

"تُعد معرفة اللغة الوطنية– في رأيي– المؤهل الأساسي للباحث الميداني الذي لا يعادله أي تدريب سوسيولوجي آخر، وأنا علي يقين من اعتناق مالينوفسكي– الذي نجح نجاحًا باهرًا في تدريب الباحثين الميدانيين– لوجهة النظر هذه، على فرض أن قدرة الباحث الميداني على التحدث بحرية مع الوطنيين– دون الاستعانة بالمترجمين– تُعد بذاتها من أهم المطامح التي يتطلع إليها بلا جدال"(Westermark,,1963) ، وهكذا لم يكن تعلم اللغة الوطنية واستخدامها في البحث الميداني يتمم– وفقًا ل**وسترمارك**– مهمة الباحث الميداني، وإنَّما كان يمثل– بالنسبة له– هدفًا قويمًا بحد ذاته.

لقد كان تعلم اللغة الوطنية واستخدامها في البحث الأنثروبولوجي الميداني يمثل– في الواقع– الحد الفاصل بين الأنثروبولوجيا الميدانية والأنثروبولوجيا الفريزرية (نسبة إلى **فريزر**) القديمة،

ولقد صار الأسلوب المنهجي الجديد رمزًا مهنيًا لكل ما اعتقدت المدرسة الأنثروبولوجية الوظيفية فيه، وأصبح تعلم اللغة الوطنية واستخدامها في البحث الميداني أشبه ما يكون بمسألة شرف، وأصبح تعلمها في الميدان دون أدنى مساعدة خارجية، هو الأحق بالتفضيل، هذا وإن لم يكن الباحث يتمتع بالموهبة الطبيعية ذاتها التي اشتهر بها **مالينوفسكي** في كسب اللغات الأجنبية.

وهكذا أصبح من المحتم علي الباحثين الأنثروبولوجيين أن يثبتوا في مقدمات أبحاثهم الخطوات اللغوية التي اتبعوها فى تعلم اللغة بغية البرهنة على صدق المواد المقدمة في بقية الأبحاث، ولقد كان إنكار الباحث في مقدمة الكتاب لتلقيه أية مساعدة خارجية في تعلم اللغة الوطنية، أو الاستعانة بأية وسيلة أخري غيرها في جمع المادة المقدمة في الكتاب أمر يتعلق بالكبرياء، والاعتزاز بالنفس، ولذلك كتب **فيرث** R.Firth في مقدمة كتابه تيكوبيا Tikopia الفقرة التالية:

"لم أمارس طوال فترة إقامتي الميدانية إلَّا اللغة الوطنية، وقد تخليت بعد الأسابيع الثلاثة الأولى عن الوسيط اللغوي الذي كنت استخدمه فى إجراء المحادثات، وهو عبارة عن مزيج من لغة الماؤري[1] وإحدى رطانات الإنجليزية، ولم يتصادف أن استعنت بأحد من المترجمين الدائمين– قط"(Firth,R.,1936) .

أما **فورتشن** R.F.Fortune فقد نظر لعملية اكتساب لغة الدوبو[2] Dobuan على أنها مرض مهني، ولقد اختار كلمة عدوى ontagion وصفًا لتلك العملية: **"لقد استخدمت لغة الدوبو في أبحاثي كلها، حين هبطت على الجزيرة، للمرة الأولى، لم يكن عليها سوى أربعين نسمة من الأحياء، ليس من بينهم مْنّ يعرف ما يزيد عن بضع كلمات من الإنجليزية، وابتداء من اليوم التالي لوصولي الجزيرة وحتى مغادرتي لها لم استخدم اللغة الإنجليزية في الأحاديث، ولم استعن بأي مترجم على الإطلاق، ولقد اكتسبت اللغة الوطنية بالعدوى"**

---

[1] الماؤرى هم أحد الشعوب البولينيزية الزراعية التي استوطنت نيوزيلندة فى نهاية القرن الثامن عشر، وهم شعب شديد الاعتزاز بحضارته وفنونه التقليدية، ومن أهمها الحفر على الخشب– المترجم

[2] الدوبو هم إحدى القبائل الماليزية التى تعيش فوق جزيرة توبو القريبة من الساحل الجنوبى الشرقي لجزيرة غينيا الجديدة، ويتميز بناؤها الاجتماعي بالتعقيد، ويعيش أكثر من نصف سكانها على الزراعة، والثلث على صيد الأسماك، ويقوم بقية السكان بتربية الماشية– المترجم

(Fortune,R.F,1932:i)، ولقد كان إدعاء **فورتشن** البراعة في تلك اللغة لافتا للنظر، إذ صرح: **"مع انتهاء الشهور الثلاثة الأولى من وصولي إلى الجزيرة لم يتصادف أن قال الوطنيون شيئًا أمامي، وفاتني استيعابه، حتى مشاجراتهم التي ينطقون أثناءها، عادة، بوابل من الصياح في وقت واحد تقريبًا"(Fortune, 1932;p.xi)**.

وعلى أية حال، فإنَّ هذه العادة (أقصد عادة إثبات الباحثين لإنجازاتهم اللغوية الوطنية في مقدمات الأبحاث) لم تقتصر على الجيل الأول من الباحثين الأنثروبولوجيين الميدانيين وحدهم، وإنَّما امتدت إلى الجيل الثاني منهم. ولذلك، منذ عهد قريب طمأن **بوهانان** Bohannan القراء (1954) على النحو التالي: **"لم استخدم فى البحث إلَّا لغة التيف[1] Tiv، ولم يحدث أن استعنت فى جمع المادة بأي من المترجمين"(Bohannan,1954:ix)**، ولقد نظر الباحثون الميدانيون إلى تعلم اللغة الوطنية، بوصفه إحدى المهام الملقاة على عاتقهم، مهمة لها بدايتها ولها هدفها النهائي المحدد، وهكذا عُدت اللغة الوطنية أحد الحصون الدفاعية المحيطة بالثقافة، ولقد كان تخصيص إحدى الفترات المحددة للقيام بحملة إثنوجرافية لتسلق أسوار هذا الحصن كفيلًا- في رأيهم- بسقوط الثقافة صريعة بين أيديهم.

وبالرغم من ذلك، لم يتردد عدد من هؤلاء الباحثين في التعبير عن شكوكهم في قدرتهم على التضلع في اللغة الوطنية، ومنهم **إيفانز بريتشارد** Evans-Pritchard الذي صرح في مقدمة كتابه "النوير" The Nuer قائلًا:

"لقد انحصرت العقبة الرئيسية في المرحلة الأولى في دعم قدرتي على التحدث بحرية مع النويريين Nuer، ولم استعن فى تلك المرحلة بأحد من المترجمين، ولم يكن من بين النويريين أنفسهم من يتحدث اللغة العربية (وهى إحدى اللغات التي أتقنها إيفانز بريتشارد وكتب فيها- المترجم)، وبصرف النظر عن المعاجم المنشورة (لغة النوير/الإنجليزية) لم أعثر على كتاب، أو قاموس ملائم للغة النوير يمكن أن اتعلم منه قواعدها النحوية، ولذلك قضيت بعثتي الميدانية الأولي، والجزء الأكبر من بعثتي الميدانية الثانية في تعلم هذه اللغة، بما يتناسب

---

[1] التيف هم إحدى القبائل الزراعية التى تقطن نيجيريا – المترجم

مع حرصي على إنجاز الأبحاث بها، ولن يُقدر مبلغ عظم هذه المهمة إلَّا مْنّ سبق لهم تعلم أحد الألسن الصعبة دون تلقي أية مساعدة من المترجمين، ودون وجود أية إرشادات مطبوعة ملائمة لهم"(Evans-Pritchard,1940:10)

ولعل المفارقة هنا هي أن أبحاث **إيفانز بريتشارد** (وهو مْنّ جهر بشكوكه في قدرته على تعلم اللغة الوطنية) هي الأبحاث الوحيدة، دون أبحاث معاصريه، التي كشفت عن فهمه العميق للغة المحلية.

أما الباحث الأنثربولوجي الثاني الذي شعر بالذنب لفشله في بلوغ المستوى المطلوب في هذا المضمار فهو **ماير فورتس** M.Fortes، إذ صرح:

"ونظرًا لعدم وجود أية مواد لغوية منشورة حول التالنزي Tollensi فقد كان علينا، أن نتعلم لهجتهم من النبش بالأظفار، مستعينين فى ذلك بأحد المترجمين شبه المتعلمين، وبالمادة الهزيلة المنشورة حول لغة المول Mole، ولغة الدجبان Dagbane، ولقد اقتضي الأمر ستة شهور كاملة حتى تعلمنا من لغة التالني Talni قدرًا يكفي بالكاد لتحقيق اتصالنا المهني اليومي مع الأهالي، ولم نصبح بارعين فى تلك اللغة إلَّا مع نهاية جولتنا الميدانية الأولي، بحيث استطعنا– آنذاك– الاستغناء عن المترجمين، وبالرغم من ذلك، فإنَّني على يقين أن ما تعلمناه من تلك اللغة لا يمثل سوى المستوى المتوسط فيها، هذا إذا أخذنا فى الاعتبار قاموس الظلال الدقيقة للتفكير والإحساس الذي يمكن التعبير عنه، أو تقديره في هذه اللغة" (Fortes,M.,1945:xii) (1)

لقد نشرت مجلة "الأنثربولوجي الأمريكي" في أواخر الخمسينات عددًا من المراسلات تبين ضيق أفق موقف الأنثروبولوجيين البريطانيين من هذه القضية، وتوفر تلك المراسلات الفرصة

---

(1) ولقد اقتبس أردنر **E.Ardener** الفقرة ذاتها فى التقديم الذي كتبه لمجلد "الأنثروبولوجيا الاجتماعية واللغة (1971)، ونحن ندين في تحليلنا الحالي لاتجاه الباحث الوظيفي نحو تعلم اللغة إلى التحليل الذي قدمه أردنر لهذا الموضوع فى المحاضرات التى ألقاها بجامعة اكسفورد، ولقد استقررأيه– فى تقديمه لمجلد جمعية الأنثروبولوجيين الاجتماعيين– على أن الاتجاه الوظيفي لم يعقد أية علاقة جوهرية مع الاداء الفعلى للكلام، على فرض أن اللغة قد ظلت داخل سياق النزعة الوظيفية موضوعًا ثانويًا تافهًا تقريبًا. انظر: (**Ardener**, **E**., **1970b**:**vii**)

لنا لمقارنة هذا الموقف مع نظيره لدى الأنثروبولوجيين الأمريكيين، لقد بدأت المراسلات حين كتب **بوهانان** للمجلة معترضًا على إحدى الملاحظات التي احتوتها المراجعة التي نشرتها المجلة لكتابه: "المزرعة ونمط الاقامة عند التيف"(1956)، ولقد أخذ المراجع على **بوهانان** أنه أعطي الانطباع للقارئ بتأثره بفلاسفة اللغة في جامعة أكسفورد، وقد اعتبر **بوهانان** هذا التعليق هجومًا من المراجع على الفكرة البريطانية الخاصة بتعلم اللغة الوطنية واستخدامها في البحث الميداني، ولذلك كتب للمجلة معلقًا: **"لكي تفهم الثقافة يجب علينا أن نفهم اللغة أولًا، أي علينا أن نتعلم التمييزات التي يعقدها الوطنيون بين مفاهيمهم الوطنية المتباينة، حيث تنحصر المشكلة الرئيسية عند الباحث الأنثروبولوجي فى قدرته على ترجمة المفاهيم الوطنية (إلى لغة القارئ الإنجليزية)، هذا علاوة علي أن هذا التأثير لم يأت من الفلاسفة البريطانيين، وإنَّما جاء من مالينوفسكي منذ جيل مضي"(Bohannan,1956:557)**

لقد كانت الفكرة البريطانية الخاصة بتعلم اللغة الوطنية تمثل- بذاتها- إحدى الأفكار المعتدلة بقدر ما تحققت بين الباحثين الميدانيين البريطانيين، ولقد تحولت لتصبح مقومًا من أهم المقومات المنهجية المميزة للأنثروبولوجيا الاجتماعية البريطانية، ولقد أكد **بوهانان** ذلك بقوله: **"لم يكن الهدف من هذا الخطاب الاحتجاج على تقييم الدكتور براون لبحثي، حيث كان تقييمه للبحث تقييمًا نبيلًا، وإنَّما توضيح ما يمثل الاختلاف المهم- حسب اعتقادي- بين الأنثروبولوجيا الأمريكية وأحد فروع الأنثروبولوجيا البريطانية"(Bohannan,1956:557)**، ولقد علق عالم الأنثربولوجيا الأمريكي **رالف بيلز R.L.Beals على** ملاحظة **بوهانان** الأخيرة بما يلي: **"يجئ هذا الإيضاح مثل الصدمة على مْنّ اطلع على الوصايا المنهجية التي قدمها بواس Boas حول استخدام المصطلحات والنصوص الوطنية، أو على مْنّ تعلم شيئًا حول هذا الموضوع على أيدي رجال من أمثال كروبر ولووي وسابير"(Beals,1957:16)**، ولقد أكد **بيلز** على ضرورة تجنب القوالب الأنثروبولوجية القومية، على فرض أن الأنثروبولوجيين الأمريكيين قد قرأوا أعمال **مالينوفسكي** أيضًا، وبالرغم من تحذير **بيلز** للأنثروبولوجيين من التميز القومي، تمسك

بوهانان باختلاف الموقف البريطاني عن مثيله الأمريكي من هذه القضية، ولقد أبدت بقية المراسلات تبرمها منه.

لقد عرض **بوهانان** في رده علي **بيلز** الاختلافات التي زعمها بين الموقفين البريطاني والأمريكي بالتفصيل، إذ يقول: "على حين استخدم الأمريكيون اللغة الوطنية، بوصفها أداة بحث ميدانية، وبوصفها مادة تخضع للتحليل اللغوي، وبوصفهما كليهما دليلًا علي الانتشار الثقافي ... إلخ، لم يتعلموا بالفعل اللغة الوطنية، وهو أمر يعادل- بالنسبة لي علي الأقل- اختبار أية ثقافة بشروطها الخاصة"**(Bohannon,1958a:161-2)**

وقد يكون هذا التعليق دقيقًا بالفعل حول أحد الاختلافات الميثودولوجية الجوهرية في الموقفين البريطاني والأمريكي من هذا الموضوع، إلَّا أن المُعلق لم يوضح قط كيف يستطيع الباحث الأنثروبولوجي البريطاني تعلم اللغة الوطنية بهذا القدر الكامل حتى يصبح بمقدوره في ضوئه اختبار الثقافة الوطنية **من خلال العيون الوطنية**، أو بالأحرى **من خلال الآذان الوطنية**، هذا علاوة على أن **بوهانان** لم ير أية فائدة في النظريات اللغوية التي صادفها في تعلم اللغة الوطنية، إذ يقول: **"ومن غير المتوقع أن تتناسب عملية تعلم اللغة الوطنية، مع علم اللغة Linguistics، كما يستخدم المصطلح فى الدوائر الأنثروبولوجية الحالية"(Bohannon,1958a:162)**

ولقد أشار **دوجلاس تايلور** D.Taylor في أحد الخطابات الممتازة التي نشرتها المجلة إلى بعض المغالطات في مدخل **بوهانان**، ولم يكن من الممكن- في رأيه- انكار أهمية اللغة المحلية كما زعم **بوهانان**، ولقد كان على الباحث الأنثروبولوجي معرفتها على نحو أفضل من معرفة أعضاء المجتمع المحلى الخاضع للدراسة لها، على فرض أن عليه معرفة كافة المتغيرات الاجتماعية والمهنية والجغرافية للغة، وإذا نظرنا إلى طول الفترة التي يستغرقها الباحث في تحصيل تلك المعرفة، في ضوء الاختلاف القائم بين لغته (الغربية) ولغة المجتمع المحلي المدروس، فإنَّ عليه تخصيص فترة لا تقل عن ثلاث سنوات، لا لشيء إلَّا لتعلم اللغة المحلية، هذا مع أن تعلم لغة أجنبية أشبه شيء بمهمة لا يمكن قياسها بأي حال من الأحوال، وعلى حين كانت معرفة اللغة المحلية معاونًا قيمًا على فهم الثقافة، فإنَّ فهم الثقافة لا يتوقف، بالضرورة، على كسب المعرفة باللغة، ولقد أنهى **تايلور** خطابه بفقرة عميقة قال فيها: **"لو سلم بوهانان بأن تعلم اللغة وحده هو الوسيلة اللازمة لكسب**

المادة الإثنوجرافية فى الميدان، لكان ذلك حريًا بأن نفهم موقفه الرافض لعلم اللغة Linguistics، لولا أنه يعتقد فى الوقت نفسه– مثلما اعتقد كذلك– أن اللغة الوطنية هي المفتاح المفيد للتحليل، وأنها المادة المبتكرة الجديرة بالاعتبار، وأنها المنهج الميداني الأساسي، وعلى ذلك قد نفترض أن بُنية اللغة يمثل موضوعًا جديرًا بالبحث، وذلك نظرًا للارتباطات المحتملة القائمة بينها، وبين بُنية المجتمع وثقافته بوصفهما كلًا متكاملًا، وعلى الرغم من ذلك، فإنَّ المرء لا يستطيع أن يخفى شكوكه في فشل بوهانان في تقدير قيمة التحليل اللغوي لبُنية اللغة، أو تقديره لمعناها، وذلك بعد قراءته لرأيه إذ يقول: ينتحل تعلم اللغة الوطنية مدخلًا لغويًا وحسب، مثلما تنتحل الدراسات الأنثروبولوجية للبُنية الاجتماعية المنهج الجينيولوجي عند ريفرز"(Taylor,1958)

وفي مواجهة هذا النقد عدل **بوهانان** من حججه، ولكن رده على **تايلور** كان يستند إلى موقف مختلف من علم اللغة، وهو ما يتضح في التعليق التالي: **"كون أنه في استطاعة الأشخاص الجاهلون بعلم اللغة القيام بالتحليل الثقافي للمادة اللغوية، لا يعنى أنه لا يمكن إنجاز أى تحليلات ثقافية أفضل لتلك المادة فى ضوء الوعي الكامل بعلم اللغة بذاته" (Bohannan,1958b:941-2)**، وعلى أية حال لقد دافع **بوهانان** عن اعتقاده الأصلي في إمكانية تعلم الباحث الأنثروبولوجي اللغة الوطنية مع عدم اهتمامه بعلم اللغة، ولقد عبر عن ذلك كما يلي: **"تتحدث بعض الشعوب لغاتها الخاصة بطريقة غير متقنة، ولذلك فنحن شغوفون بفهم اللغة في المراحل السابقة على استخدام الشعوب الأخرى للغاتها بطريقة دقيقة، فعلى حين يستخدم التيف Tiv لغتهم بطريقة غير دقيقة، كان الباليون (نسبة إلى جزيرة بالي بأندونيسيا) يتحذلقون فى استخدام القواعد الصحيحة للغة، وهناك اليابانيون الذين يعيدون أخطاءك أمامك تجنبًا لإحراجك"(Bohannan,1958b:942)**، إلَّا أنه بدلًا من أن ينظر لتلك الأمثلة كمادة صالحة لأحد علوم اللغة اللاتينية، لم يهتم سوى بالإمكانات التي تقدمها في تعلم اللغة الوطنية.

وعلى أية حال لم يكن لأية نظرية لغوية التأثير نفسه الذي مارسته نظرية **مالينوفسكي** هذه على الجيل التالي من الباحثين الأنثروبولوجيين، ولقد أشارت **لوسي مير** Mair عرضًا إلى نظريته

في المعني، حين قالت :"**لقد كشفت أعمال أوجدن وريتشاردز وجاردنر حول اللغة المتحضرة، وأعمال مالينوفسكي حول اللغة البدائية، بشكل مقنع، أن المعنى لم يكن موروثًا فى الكلمات، ولم يكن يتمتع بأي وجود مستقل، وإنَّما يجب البحث عنه في سياق تداعيات المعاني التي تشكل الخبرة الخاصة بالمتحدث والمستمع كليهما**"**(Mair,1935)**.

ولقد طبق **إدوين سميث** E.W.Smith بايجاز نظرية **مالينوفسكي** في المعنى في أحد المقالات العامة التي تناول فيها "الرمزية الأفريقية African Symbolism" إذ يقول: "**لا توجد أية صلة موروثة بين الرموز اللفظية ومراجعها، حيث تتحدد معاني الكلمات فى ضوء ما أطلق عليه مالينوفسكي تعبير "سياق الحال"، وهو أمر ينطبق تمامًا على الرموز غير اللفظية، حيث تعتمد معاني الموضوعات المادية على سياقاتها**"**(Smith,1952)**، ومع ذلك لا يشار لهذا المقال على الإطلاق.

كان **ريموند فيرث**– في الواقع– هو العالم الأنثروبولوجي البريطاني الوحيد الذي حاول الاستفادة من النظريات الأخرى عند **مالينوفسكي**، حيث قدم في تمهيده لكيفية ترجمة مصطلحات القرابة في كتابه "تيكوبيا"، تحليلًا حول كيفية ارتباط معاني هذه المصطلحات باللغة الوطنية، ولقد كشف هذا التحليل عن قبول ضعيف نوعًا ما لتعاليم **مالينوفسكي** في هذا المجال، ولقد ناقش **فيرث** مشكلة الترجمة وربط بينها وبين نظرية المعني عند **مالينوفسكي**، ولقد ذكر: "**في الدراسة الإمبريقية للغة، يمثل الموقف الكلامي الذي تظهر فيه الكلمة إحدى الدلالات الخاصة بها، وتتوقف مشكلة الترجمة على العثور (عن طريق المقارنة والتجريد) على المرادف اللغوي الملائم لتصوير هذا العدد غير المحدد من دلالات الكلمة، وما يتم عمليًا هو أننا نأخذ الصيغة الاحصائية لبعض المواقف الكلامية التي تظهر فيها الكلمة، ونؤلف– بالإحالة إلي هذه الصيغة الاحصائية– مرادفًا عامًا، أو مرادفًا أساسيًا لها، وهذا المرادف هو ما نطلق عليه عادة "معنى الكلمة**"**(Frith,1936:236)** .

ولقد قبل **فيرث** نظرية الجناس homophone عند **مالينوفسكي** أيضًا، واستخدمها في كتاب "الاقتصاد البولينيزى البدائي"(1939)، وبالمناسبة لقد ظهرت هذه النظرية مطبوعة

للمرة الأولي في كتاب "حدائق المرجان"، وذلك قبل ظهور كتاب "تيكوبيا" بعام واحد، ولقد أكد **فيرث**- في هذا الكتاب- على الطبيعة العملية للغة، وبالقدر نفسه من الافراط الذي نجده- عند **مالينوفسكي**- في كتاب "حدائق المرجان"، ولقد صرح: "**بصرف النظر عن إبداء الكلام البواعث المحتملة للعمل، فإنَّه يتمتع بأهمية قصوى عند استخدام المصطلحات التقانية، حيث تسمح تلك المصطلحات التقانية- التي تقوم بمهمتها بوصفها رموزًا للموضوعات والأشياء والأفعال- بتوفير الجهود، بحيث يكون من المستحيل أن تتحقق عمليًا الجهود الإنتاجية المركبة خارج نطاقه**"**(Frith,R.,1939:133)**، ولقد حذا **فيرث** حذو **مالينوفسكي** في شرطه عدم ترجمة النصوص الوطنية حرفيًا، واعترف في نهاية الكتاب بعدم اختلاف نظريته اللغوية عن نظريته، ولقد أحال القارئ كثيرًا إلى مقال "مشكلة المعنى"، وإلى كتاب "حدائق المرجان"، وإلى كتاب **جون روبرت فيرث** "الكلام"، وعبَّر عن أسفه بقوله: "**لم يكن هناك سبب للاعتراض على أي جزء من العرض النظري الدقيق المثير للإعجاب الذي وضعه مالينوفسكي للدراسة الإمبريقية الوظيفية للغة، ولكن معظم أنثروبولوجي هذا العصر اعتقدوا أن من غير الضروري الإشارة إلى علم اللغة المالينوفسكي على الإطلاق، وقد بدت "اللغة" لهم كما لو كانت تمثل أحد الاهتمامات الهامشية الثانوية قياسًا إلى الاهتمامات الرئيسية المركزية فى الأنثروبولوجيا الاجتماعية، ويبدو أنهم قنعوا بأن مالينوفسكي قد قال كل ما يمكن أن يقال فى هذا الميدان**"**(Frith,1939:237)**.

- اللغة والنظام الاستعماري:

لقد انسجم الموقف اللغوي العملي الذي تبناه بعض الأنثروبولوجيين الحكوميين الذين ارتبطوا بالحكم الاستعماري- في الواقع- مع تأكيد **مالينوفسكي** على تعلم اللغة الوطنية، وهو موقف كان سائدًا-كما لاحظنا في الجزء الأول من هذا الكتاب- منذ السنوات الأولى من هذا القرن، وهو ما يتضح في التقديم الذي كتبه **السير هارولد مكميشال** Sir H.Macmichael (وهو أحد الموظفين البريطانيين المدنيين الذين عملوا في حكومة السودان) لكتاب **سيلجمان** المعنون: "القبائل الوثنية في السودان النيلي" (1932)، فقد أثني **مكميشال** علي الأبحاث التي قام

الأنثروبولوجيون بها بغاية مساعدة الإداريين البريطانيين في فهم الشعوب الخاضعة لإدارتهم، ورأى أن تعلم اللغة المحلية من ألزم المؤهلات التي يجب أن يتحلي بها الإداريون بها، وفي ذلك يقول: **"كانت وسائل الاتصال فى السودان النيلي نادرة، باستثناء المناطق الموازية للطرق البرية التى تمتد من أحد المراكز الحكومية القيادية إلى ماعداها من المراكز المحلية الأخري، ولقد كان هناك تشعب لغوي ضاعف من الأعباء الملقاه على عاتق المحققين الحكوميين، ويُنسب لهذا العامل الأخير، بالتحديد،، معظم الصعوبات التى جابهتها حكومة السودان ابتداء من عام 1898، وبعض أخطائها أيضًا، إذ كيف كان يمكننا فهم وجهة نظر الرجل الهمجي، أو كيف كان يمكننا شرح موقف الحكومة له إذا كانت لغته الوطنية غير مفهومة أصلًا" (Seligman,C.G.& B.Z.,1932:xvii)**.

ولقد قدم **مكميشال** في تلك المقدمة عددًا من الأمثلة– التي استقاها من تجربته الشخصية– للأخطاء التى يقع فيها الإداريون (ومْنّ كانت معرفتهم بالثقافة الوطنية محدودة) حين يمارسون سلطاتهم، عادة، بالاستعانة بالمترجمين، أو باستخدام لغة ثالثة مشتركة lingua Franca

ولقد ظهر الاهتمام العملي باللغات الوطنية في المقالات التي نشرتها مجلة المعهد الدولي للغات، والثقافات الأفريقية المسماه "أفريقيا" Africa، ولقد ظهرت في الأصل فكرة إنشاء هذا المعهد في أحد الاجتماعات التي ضمت عددًا من المُنصرين البريطانيين، ومن غيرهم **(Smith,E.W,1934:1)**، وصدرت المجلة في عام 1927، ولقد انحصرت مهمة المعهد في الاهتمام بالاتصال المباشر بين أفريقيا والغرب، على أمل بلورة ضرب من الأنثروبولوجيا الجديدة للوطنيين الأفارقة المتطورين، ولذلك احتوت مجلة "أفريقيا" علي عدد كبير من المقالات الإثنوجرافية، التي كانت أشبه بالمسودات الأولية للفصول، التي حرص المؤلفون على ادراجها في كتبهم التالية، بالإضافة إلى الأبحاث العملية التي دارت حول السياسات التعليمية، وأساليب تدريس العادات الصحية، والأساليب الزراعية، والكتب المدرسية، ومشكلات التعليم التي ترتبط بالمسألة اللغوية، ولذلك ارتفعت الأصوات تنادي بأهمية الدراسة المنهجية للغات الأفريقية، وضبط إملائها، بوصفه مطلبًا ملحًا لتقدم العملية التعليمية واكتمالها، ولم يكن التعاون بين الحكومات القائمة والجمعيات التنصيرية، أو الخبراء العلميين قد ظهر بعد**(Smith,1934:1-2)** .

وعلى حين ظهرت المقالات الأنثروبولوجية واللغوية، جنبًا إلى جنب، في مجلة "أفريقيا"، نتيجة السياسة التحريرية لهيئة التحرير، بقيت أصول تأليف هذه المقالات منفصلة، وهو انفصال تُسأل عنه النظم الأكاديمية البريطانية ذاتها في الأساس، فقد كتب اللغويون المتخصصون (من أمثال **وارد** Ida C.Ward و**دوك** C.M.Doke) جميع المقالات اللغوية التي ظهرت بالمجلة تقريبًا، واهتما- وحدهما- بالمشكلات اللغوية العملية مثل: التوحيد القياسي لضوابط الإملاء، أو اختيار الشكل الممثل لها، وتحديد اللغات الأوسع انتشارًا في منطقة بالذات، وذلك لاستخدامها فى العملية التعليمية. وهكذا، فإنَّ التأثيرات اللغوية العملية للنظام الاستعماري لم تفض إلي تعزيز الاعتبارات اللغوية بين الأنثروبولوجيين المتخصصين، وقد استبد بهم هاجس تعلم "اللغة الوطنية"، واستخدامها فى الأبحاث الأنثروبولوجية الميدانية، مما أدي إلى اقصاء كافة ما عداها من الاعتبارات اللغوية العملية الأخري.

- استخدام المقولات الوطنية ولغة الوصف:

لقد كان رفض أنثروبولوجي القرن العشرين للنزعة المقارنة غير المقيدة التي لازمت أنثروبولوجي القرن التاسع عشر يمثل- في الواقع- إحدي النتائج المترتبة على تجربة البحث الميداني، وربما الباعث لتأييد البحث الميداني في الأصل، وهو أمر يتجلى بذاته في اتجاه بعضهم لاستخدام المصطلحات الوطنية كمقولات نظرية عامة، ويمكن ملاحظة بدايات هذا الاتجاه مباشرة فيما كتبه **رادكليف- براون** عام 1929، إذ يقول: "**إذا كانت كلمة طوطمية Totemism، تمثل إحدى الكلمات المفيدة فى الماضي، فإنَّ لنا أن نتساءل عما إذا كانت هذه الكلمة قد عاشت فترة أطول من فائدتها، أم لا.؟، فالثابت أنها لم تصبح مصطلحًا مفيدًا إلَّا حين ساعدتنا فى تصنيف الظواهر التي تنتمي للنمط العام نفسه- بصرف النظر عن الأشكال، أو الضروب المختلفة التي تظهر عليها في أقاليمها المختلفة- والمقارنة بينها، ولولا ذلك لبقيت الظواهر الطوطمية المتصلة ظواهر منفصلة ومعزولة، وما استطعنا أن نأخذها بعين الاعتبار معًا**"(Radcliffe-Brown,1929).

وعلى الرغم من ذلك، فإنَّ النزعة الوظيفية- بتأكيدها على الاعتماد المتبادل بين العناصر الثقافية داخل المجتمع الأنثروبولوجي في القرن العشرين- لم تقدم الأساس النظري اللازم لاجراء المقارنات الثقافية المتبادلة.

وفي الواقع، لقد كان **فيرث** من أوائل الأنثروبولوجيين الوظيفيين القلائل الذين اعترفوا بمشكلة المقولات المقارنة، ولقد شرع في تقديم حل جزئي لها حين عالج في بحثه: "تحليل المانا: مدخل إمبريقي" (1941) الاستخدام الأنثروبولوجي لمصطلح مانا mana، وناقش كيف أن غياب الشواهد المتعلقة باستخدام الثقافات لهذا المصطلح، أو اتجاهات أعضائها نحو معناه قد أدى إلى تمحور المناقشات النظرية حول التعريفات المعجمية، والترجمة المضبوطة له، ولذا جاءت النتائج مؤسفة**(Firth,R.,1941:189)** ، ولقد قدم الحل التالي:

"والهدف من هذا المقال هو تقديم قدر من المادة الإمبريقية المأخوذة من إحدى المناطق المحددة، منطقة تيكوبيا، ولذلك يحدوني أمل في تقديم أحد التصويرات السياقية للاستخدام الوطني المحلي لمفهوم المانا، وفي توضيح معناه الدقيق بالنسبة لهذا المجتمع المحدد، وفي ضوء المعنى "الوطني" المقدم، سوف نضع بعض الحدود المناقضة لمفهوم المانا العام"(Firth,,1941:194) .

لقد دعم **فيرث** تعريفه للمانا التيكوبية بعدد كبير من النصوص التيكوبية، ولقد احتوت هذه النصوص على بعض التصويرات التيكوبية للمانا التي قام باستنباطها بالاستجوابات المباشرة، في ضوء استخدام الكلمة في الممارسات الشعائرية، أو في المحادثات الجارية حول الزعماء المحليين والاوضاع الاقتصادية، ومختلف مظاهر الحياة التيكوبية الوطنية الأخري، ومع أن هذا التحليل الوظيفي التفصيلي لمفهوم المانا قد أدى إلى تغير واضح في نظرة الأنثروبولوجيين المعاصرين، وترحيبهم به، لم يكن شرح **فيرث** للمفهوم كاملًا، وإنَّما كان شرحًا قصصيًا، وفي الواقع، لقد قرر هذا الحل الوظيفي أن يركز الباحث الأنثروبولوجي اهتمامه على منطقته الميدانية الخاصة، وأن يقصر جهوده عليها، على أمل أن تحل مشكلة شرعية المقولات اللازمة المقارنة نفسها بنفسها في ضوء تزايد المادة الإمبريقية الموثقة.

أما **إيفانز بريتشارد** فقد استهجن عجز الأنثروبولوجيين عن تطوير لغة للوصف، ولقد قال: **"ومما يؤسف له عدم اتفاق المتخصصين حول المصطلحات التقانية في الأنثروبولوجيا الاجتماعية، وبالأخص فى دائرة الاختصاص التى تهم هذا الكتاب (أعني العرافة والكهانة والسحر)، إننَّا كثيرًا ما نسمى الشيء بأسماء مختلفة، وكثيرًا ما ندعوا الأشياء المختلفة بالاسم ذاته، ولقد أدي هذا الخلط إلى جدل عقيم حول الكلمات، حين كان يجب أن نتجادل– إذا كان لهذا الجدل ضرورة– حول الحقائق"(Evans-Pritchard,1937:8)** ولقد كان حلَّ **إيفانز بريتشارد** لهذه المشكلة مماثلًا لحل **فيرث** لها، إذ يقول: **"لقد ركزت– فى هذا الكتاب– على التفكير الزاندي Zande المألوف، وبوبت تحت العنوان الواحد ما يسميه الزانديون بالكلمة الواحدة، وميزت بين أنماط السلوك التي يعدونها مختلفة، ولست متلهفًا على تحديد العرافة والكهانة والسحر، بوصفها تمثل الأنماط المثالية للتفكير بين الزانديين، بل تجدني أحرص علي وصف ما يفهمونه من الكلمات الزاندية ngua, Soroka, mangu"(Evans-Pritchard,1937:8).**

ولقد عاد **إيفانز بريتشارد** إلى الموضوع نفسه في عام 1956 منبهًا– هذه المرة– إلى مغزى سيطرة المصطلحات المستعارة من **اللغات الغرائبية** exotic على الكتابات الأنثروبولوجية: **"فبالرغم من أن التراث الضخم الذي ظهر فى أواخر القرن الماضي، وفي السنوات الأولى من هذا القرن حول الأديان البدائية قد جعلنا أكثر فهمًا لمصطلحات مثل "أنيميزم" و"فيتشية" و"طوطمية" و"مانا" و"تابو" و"شامانية" فإنَّ معناها لايزال غامضًا، والحقيقة الواضحة هي أن بعض هذه المصطلحات قد أُستعير من اللغات البدائية، وهذا دليل على الإخفاق فى تأسيس مجموعة المصطلحات التقنية الملائمة المتفق عليها في ميدان الدين المقارن"(Evans-Pritchard,1956a:vi)**، ونتيجة لهذا الاخفاق كان من الألزم على الباحث الأنثروبولوجي تأويل مصطلحات مثل "روح" و"نفس" تأويلًا مختلفًا.

وهكذا، فقد أدت كراهية الأنثروبولوجيين الوظيفيين للمصطلحات العامة الغامضة المضللة التى قدمها الأنثروبولوجيون المقارنون إلى انسحابهم إلى الطرف المقابل من المصطلحات

النوعية الغامضة المضللة كذلك، ولقد حرص بعضهم على تطعيم "مونوجرافاتهم" بكلمات محلية دراجة غير مترجمة، على فرض أنها متحررة من تداعيات المعاني الوطنية المهمة، ولقد كان هذا النمط من الكتابة الأنثروبولوجية هو الذي أدي، فى الواقع، إلى ظهور النقد الأول لكتاب **بوهانان** "المزرعة ونمط الإقامة عند التيف" في مجلة الأنثروبولوجي الأمريكي (ولقد سبق أن أشرنا إليه في بداية هذا الجزء)، وعلاوة على ذلك، فإنَّ الأنثروبولوجيين البريطانين لم يطرحوا- مع استثناءات قليلة- مشكلة العلاقة بين لغة الوصف الأنثروبولوجي واللغة "الدراجة" المحلية للمجتمع الموصوف، ولم يعترف بهذه المشكلة إلَّا القليلون، لقد تجسد التغير الوحيد- الذي طرأ على أنثروبولوجي القرن التاسع عشر واتجاههم نحو المقولات العالمية- في تلك النزعة النسبية الكاملة "القانطة" التي ميزت أنثروبولوجي القرن العشرين، واتجاههم الوظيفي، والاكتفاء بكتابة أدبيات إثنوجرافية تاريخية تفصيلية "معصومة" لشعوب محددة بالذات**(Leach,1961)** .

- أنساق القرابة:

من المنطقي أن يتوقع المرء أن يهتم أنثروبولوجي هذا العصر بأنساق مصطلحات القرابة بالتحديد، وذلك لارتباطها الوثيق- على الخلاف مما عداها من الموضوعات اللغوية- بالبُنية الاجتماعية، والأنساق السياسية، وعلى حين برهنت الانجازات التي حققها الأنثروبولوجيون في دراسة المجتمعات البسيطة الخالية من الزعماء السياسيين علي أهمية هذه المصطلحات في تحديد العلاقات الاجتماعية داخلها بوجه عام، شعر كثيرون من الأنثروبولوجيين بأن طريق تطوير نظرية مصطلحات القرابة كان مسدودًا، وذلك نتيجة لموقف **مالينوفسكي** معلمهم المخلص منها، فقد أنكر **مالينوفسكي** اهتمام الأنثروبولوجيا بالتسميات القرابية ذاتها، وأيد عوضًا عنها دراسة اتجاهات الأقارب البيولوجيين نحو بعضهم البعض، وسلوكهم المصاحب لها. وفي الحقيقة لقد كان موقف **مالينوفسكي** من دراسة مصطلحات القرابة التصنيفية موقفًا مناهضًا تمامًا، وقد زعم في القسم الأول من مقاله: "القرابة (1930)" أن: **"هناك فجوة عميقة بين أية معالجة رياضية زائفة- قد يقوم بها الباحث الأنثروبولوجي- للتسميات القرابية، وحقيقة الوقائع القرابية الفعلية داخل الحياة الوطنية"(Malinowski,1930:20)**، وعلى أثر ذلك سيطر المدخل العملي الذاتي على الباحثين الميدانيين المالينوفسكيين، ومارس تأثيره العميق عليهم، الأمر الذي دفعهم

للاهتمام بتسجيل "الحقائق القرابية الفعلية": الاتجاهات المرتبطة بالتسميات القرابية، والسلوك المصاحب لها، وإنكار الاهتمام باستنباط النظريات القرابية المجردة.

ولئن أيد الأنثروبولوجيون المالينوفسكيون نظرية **مالينوفسكي** القائلة بأن التسميات القرابية التصنيفية لا تمثل بذاتها شيئًا، وإنَّما هي امتدادات "مجازية" للتسميات القرابية داخل العائلة النواة، أنكر الأنثروبولوجيون غير المالينوفسكيين هذه النظرية، لقد بدأ **ليتش** Leach أحد مقالاته هكذا: **"يتضح لي أن كثيرًا من العقائد المصطنعة التي ظهرت أثناء تطور نظرية القرابة يعود مصدرها إلى الاستعداد المتحمس لدى الأنثروبولوجيين لترجمة المصطلحات القرابية الوطنية بطريقة عشوائية إلى المرادفات الأولية لها في اللغة الإنجليزية"(Leach,1945:59)**، فإذا وجدنا أن "الأب" واحد من الأقارب الذين يتم تسميتهم بالاسم نفسه، فإنَّ ذلك لا يعني- كما يقول **مالينوفسكي**- أن المعنى الأصلي، أو الأولي للاسم هو المعنى الذي يشير للأب، وإنَّما يعني أن: **"هذه التسمية تشير إلى جميع الأقارب الذين تمت تسميتهم بها بالتساوي، وأن هذه التسمية مؤهلة- نظرًا لتعدد خصائصها- للقيام بتلك المهمة، والتمييز بين مقولات الأقارب الذين تمت تسميتهم بها- في الواقع"(Beattie,1957:321)** .

أما **هوكارت** Hocart، فقد أشار إلى تناقض موقف **مالينوفسكي** من مصطلحات القرابة في معرض مقارنته بين استخدام الفيجيين لكلمة tama للإشارة إلى "الأب"، واستخدام الفرنسيين لكلمة femme للإشارة إلى "الزوجة"، واستخدام الإنجليز لكلمة "حاكم" للإشارة إلى "الأب" على سبيل المزاح، بما يلي: **"من الغريب أن تتلقي عقيدة مالينوفسكي- وهي تعد عقيدة تاريخية لأنها تصف عملية التطور الماضي- هذا التأييد القوي ممّنْ يتمسكون بالأصول والتطور وإعادة التركيب التاريخي باستمرار، ونحن نتساءل: ألا تعد تلك العقيدة إحدى عقائد إعادة التركيب التاريخي (لمصطلحات القرابة)، وإلَّا فماذا تُعد إذن" (Hocart.1970:174)**، وفي الواقع، لقد كانت هذه المسألة هي إحدى المسائل القليلة التي اختلف فيها **فيرث**- بشكل صريح- عن **مالينوفسكي**.

كان **رادكليف براون** في الحقيقة هو الأنثروبولوجي الوحيد الذي أظهر– من بين كل أنثروبولوجي العصر– الاهتمام البالغ بمصطلحات القرابة، وفي المجلد نفسه من مجلة "الإنسان Man" الذي نشر فيه **مالينوفسكي** مقال "القرابة" (1930)، وشهد هجومه على "جبر القرابة" عند موك Mock نشر **راد كليف براون** مقالًا حول نسق تنويت العلاقات القرابية وتسجيلها، استفاد فيه من الرموز المجردة لتعيين مختلف العلاقات القرابية المتوارثة، بدلًا من التسميات المركبة، مثل تسميات "شقيقة الأب" و"ابنة شقيق الأم"، ولقد عدَّها تسميات قرابية خائنة، ولقد قطع **رادكليف– براون** شوطًا طويلًا في هذا المقال نحو تحليل التصنيفات الأساسية الكامنة في أنساق القرابة، في ضوء مبدأ تكافل جماعة النسب ووحدتها، ومبدأ تكافل العشيرة ووحدتها، ومبادئ التباين في ضوء الجيل والجنس، وبالرغم من ذلك، لم يقدم تحليلًا منهجيًا كاملًا يماثل التحليلات التجزيئية Componential التي قدمها بعض الأنثروبولوجيين واللغويين الأمريكيين لمصطلحات القرابة، والتي تنبأ **كروبر** بها من زمن بعيد (في مقال عام 1909)، على فرض أن **رادكليف براون** لم يكن مستعدًا لقصر نفسه على الأدلة القرابية الإمبريقية المستمدة من أحد المجتمعات بغية إثباتها، نظرًا لشغفه بعقد المقارنات العريضة للأنماط البنائية، واستنباط المبادئ النظرية العامة منها.

وفي الواقع، لم يكن اهتمام **رادكليف براون** بمصطلحات القرابة يعكس اهتمامه بالأنساق القرابية بذاتها، بقدر ما كان يعكس اهتمامه بما يمكن أن تخبره بهذه الأنساق القرابية عن البُنية الاجتماعية، ومن هذا المنظور، فإنَّ وظيفة النسق القرابي قد انحصرت– عنده– في توجيه السلوك الاجتماعي، وفي توريثه، ولقد عدَّ النسق القرابي: **"منهجًا يمكن في ضوئه تقسيم الأقارب في مقولات لتحديد العلاقات الاجتماعية التي تتجلي أثناء الاحتكاكات اليومية المباشرة، أو تؤثر فيها"(Radcliffe-Brown,1950:9)**، ونظرًا لأنه تحدث– بغية التفوق على **مالينوفسكي**– عن امتداد اتجاهات أعضاء العائلة النواة إلى بقية الأقارب الذين يشاركونهم التسميات القرابية المماثلة، فقد زعم في مقاله المشهور: "شقيق الأم في جنوبي أفريقيا" (1924) أن التسمية المستخدمة للإشارة لهذا القريب (شقيق الأم) تعني في معظم لغات المنطقة "الأم الذكر male mother"، وهذا هو سبب اشتراك "شقيق الأم" في المعاملة نفسها التي تتلقاها "الأم" من ناحية "الأنا ego"، ولقد زعم أن مبدأ تكافؤ المصطلحات التصنيفية للأشقاء، قد أدي إلى النظر لـ"شقيق الأب"

بوصفه نوعًا من "الأب"، والنظر لـ"ابنائه" بوصفهم أقارب من النوعية نفسها، أي بوصفهم أشقاء لـ"الأنا"(Radcliffe-Brown,1924)، ولقد ترتب على استخدام المجتمعات البدائية للمصطلحات التصنيفية، وعلي امتداد الاتجاهات المرتبطة بها إلى جميع الأقارب المشتركين في التسمية نفسها أن أصبح بمقدورها "**التوصل إلى أنماط محددة من السلوك تجاه الأعمام والأخوال والعمات والخالات وأبناء العمومة والخئولة وبناتها من الأنواع نفسه**"(Ibid.,18).

وبالرغم من ذلك، فإنَّ من الواجب التسليم بأن **رادكليف براون** قد عدّل في نظرية امتداد الاتجاهات في أبحاثه التالية لهذا البحث، وإن لم يغير من موقفه الأساسي تجاه مصطلحات القرابة بوصفها "منهجًا" لتصنيف الأقارب، وتحديد حقوق أعضاء المجتمع وواجباتهم تجاه بعضهم البعض، وعلى حين قارن قائمة تسميات القرابة بـ"اللغة"، تقيدت وجهة نظره في "اللغة" بموقفه من مصطلحات القرابة ذاتها، على فرض أن "اللغة" تقوم– في رأيه– بوضع التمييزات المحددة، وأداء الوظائف المحددة بالذات، وفي ذلك يقول: "**وأيضًا على نسق القرابة أن يؤدي مهمته طالما كان موجودًا، وطالما أنه مستمر فى الوجود، عليه إذًا أن يقدم نسقًا مرتبًا فعالًا من العلاقات الاجتماعية التى تحددت بفعل الاستخدام الاجتماعي له**" (Radcliffe-Brown,1941:62) .

وهكذا فلقد أعمت النزعة الوظيفية الضيقة (واهتمامها بتفسير الأشياء منفردة في ضوء الإسهام الذي تقدمه في دوام النظام الاجتماعي) **رادكليف براون** عن الاعتراف بأن نسق مصطلحات القرابة– مثل غيره من الأنساق اللغوية– يتمتع بأنماطه المستقلة، ومنطقه المستقل الخاص الذي لا يرتبط بأية وظائف اجتماعية يمكن أن يقوم بها داخل المجتمع.

إذًا لقد كان من المحتم على **رادكليف براون** أن يعترض على وجهة نظر **كروبر** في هذا الموضوع، إذ يقول: "**على النقيض من كروبر ... أعتقد أن هناك في سائر أنحاء العالم تطابقًا مهمًا بين قائمة مصطلحات القرابة والممارسات الاجتماعية**"(Ibid.,:61)، على فرض أن من غير الممكن التسليم بوجود أنماط قرابية يتعذر تفسيرها، وحسب تعبيره: "**فى تصوري الشخصي تُعد قائمة مصطلحات القرابة جزءًا جوهريًا من نسق القرابة، مثلما تُعد جزءًا جوهريًا– بطبيعة الحال– من اللغة أيضًا**"(Ibid.,:61).

ولقد كان من المحتم أن يهاجم **رادكليف براون** أيضًا نظرية المصاهرة alliance عند **دوما** L.Dumont ، فقد رفض **دوما** في عام 1953 تأويل مصطلحات القرابة من وجهة نظر "الأنا"، وتمسك بتحليلها من وجهة النظر المقابلة، أي من وجهة نظر "الجماعة" بوصفها كلًا، على فرض أن المبدأ الرئيسي الكامن في مصطلحات القرابة هو مبدأ التعبير عن المصاهرات بين الجماعات، ولقد زعم **دوما**– في ضوء دراسته لبعض الأنساق القرابية الدرافيدية[1] Dravidian أنه نجح في استنباط النمط الأساسي الكامن لمصطلحات القرابة، غير معتد بـ"الخصوصيات اللغوية" لهذه الأنساق، ولقد وازن بين ما انتهي إليه في هذه الدراسة، وما يقوم به "عالم الأصوات"، الذي لا يهتم من بين جميع الخصوصيات الصوتية للغة سوى بالخصوصيات الصوتية التي يتم التمييز– في ضوئها– بين المعاني، والمهم هنا هو اعترافه بخضوعه للتأثير الملهم لـ**ليفي شتراوس**، ولذلك لم يكن لنظريته الغريبة– بما تضمنته من رسوم بيانية، واستخدام للمصطلحات البنيوية مثل مصطلح " تقابل opposition"– أي مكان في مجلة "الإنسان Man"، وسرعان ما كتب **رادكليف براون** للمجلة معترضًا على هذه النظرية. أما **دوما** فقد أشار في رده عليه إلى خلطه بين قائمة مصطلحات القرابة والسلوك، ولقد قرر: "**يصر الأستاذ راد كليف براون على معرفة كيف يفكر الناس فى "الخال"، وأؤكد له أن هذه المسألة لا تعلق بقائمة مصطلحات القرابة، بقدر ما تتعلق بالسلوك، وأن هذين المدخلين المختلفين يتعارضان في تناولهما للموضوع. من منظور المدخل الأول يتناول الأستاذ راد كليف براون "الخال"، بوصفه نموذجًا أصليًا، أو أوليًا لفئة كاملة من الأقارب، ثم ينصرف بعدئذ للبحث عن الشكل اللغوى الذي يجسد التسمية (أعني "الأم الذكر" ... الخ)، وعن الطريقة التى يفكر بها الناس فى هذا القريب بالتحديد. ومن منظور المدخل الثاني فنحن نحرص على تناول نسق قائمة مصطلحات القرابة بوصفها كلًا، ثم نحاول بعدئذ– انطلاقًا من بنائه الخاص– تحديد محتوى كل مقولة من مقولاته"(Dumont,1953b:143)**.

---

[1] عائلة اللغات الدرافيدية هى إحدى العائلات التى يتكلم بلغاتها بعض سكان جنوبي شبه القارة الهندية، ووسطها والساحل الشرقي منها، وسكان شمالي سيلان، وشرقي بلوجستان فيها. ومن أهم لغاتها التاميل والكروخ والكدى والكدى لوندى وأكبراهوى والكاناريسية– المترجم.

أما بقية الأنثروبولوجيين، فإنَّهم نظروا لقائمة التسميات القرابية، بوصفها تمثل العرف المنظم للسلوك والعاكس له، وهى فكرة سبق وأن ظهرت- وإن لم يكن في شكلها المتطور- عند **مالينوفسكي**، إذ ذكر: "**من الحقائق المعروفة فى الأنثروبولوجيا أن التسميات المستخدمة فى تقدير القرابة تعكس الصورة المألوفة للعرف الاجتماعي**"**(Fortune,1932:271)**، ولقد أطلق **فيرث** على التسمية القرابية تعبير: "**المرشد لمعيار السلوك**"**(Firth,1936:271)**، وقرر أن استخدام التسمية القرابية كافيًا بذاته "**لاستقراء ردود الأفعال المرغوب فيها فى الحياة الاجتماعية**"**(Ibid.,:273)**، هذا بالرغم من عدم اقراره تفسير مظاهر النسق القرابي- كما فعل **مالينوفسكي**- في تعبيرات وظيفية، إذ صرح: "**تُعد مصطلحات القرابة الملازم الطبيعي للوظائف الاجتماعية، إلَّا أنها لا تمثل بالضرورة الانعكاس الصادق لها**"**(Ibid.,:250)**، ولذلك قصر اهتمامه بمصطلحات القرابة علي توضيح الارتباط القائم بينها وبين الوظائف الاجتماعية، وفيما عدا ذلك لم تكن لتلك المصطلحات- في رأيه- أية صلة وثيقة بالأنثروبولوجيا، وفي ذلك يقول: "**لا يمكن النظر إلى هذا الفصل بوصفه مقالًا في علم اللغة، وذلك لأن به قسمًا خاصًا يدرس القرابة، والمشكلة التي يتناولها هي مشكلة تحديد معاني مفردات السلوك اللفظي المتعلقة بأنسباء المرء في تيكوبيا، وبالأخص تعريف معنى السلوك المتداخل مع استخدام التسميات القرابية التيكوبية**"**(Ibid.,:273)**، أما **ليتش** فقد استهجن معادلة **رادكليف- براون** بين التسميات القرابية والتوقعات السلوكية، فقد فرضت تلك المعادلة- في رأيه- شكلًا من الصرامة الشكلية التي لا نعثر عليها أثناء الممارسات الفعلية**(Leach,1945:70)**، ولقد اقترح مشروعًا بديلًا يمكن في ضوئه التمييز بين الأنماط المثالية من السلوك والأنماط الفعلية المألوفة له.

وفيما عدا هؤلاء، فلقد قنع بقية الأنثروبولوجيين البريطانيين بترك تحليل "مصطلحات القرابة" وتفسيرها إلى **رادكليف براون**، مثلما قنعوا- من قبل- بأن **مالينوفسكي** قد عالج "اللغة" بالقدر الذي يلائم الأنثروبولوجيا الاجتماعية، وعلي ذلك بدت دراسة مصطلحات القرابة دراسة غامضة ليس لها أية صلة بالأنثروبولوجيا الاجتماعية، وانحصرت مهمة الباحثين الأنثروبولوجيين في تقديم: "**معالجة للبُنية الاجتماعية للأقارب الذين يدرسونهم، وعلي هذا الأساس استطاعت الأنثروبولوجيا الاجتماعية دراسة الأنساق الوظيفية المستقلة كالقانون، والاقتصاديات،**

والدين، والمركبات التنظيمية المحددة، والميكانيزمات الاجتماعية، أو الثقافة بوصفها كلًا" **(Fortes,M.,1945:ix)** .

– راد كليف براون ومشكل الدليل السالب:

يمكن النظر لتقييم **فورتس** M.Fortes لأولويات الباحث الأنثروبولوجي الاجتماعي **(Fortes,M.,1945:ix)**، بوصفه تقييمًا لجيله بأكمله، هذا بالرغم من صعوبة إثبات مدى مسئولية هذه الأولويات عن اقصاء الاهتمام باللغة، وذلك لأن أدلة الإثبات أدلة سالبة لا يمكن اقتباسها أو تقييمها بأية حال من الأحوال، في حين أن الأمثلة القليلة المبعثرة التي تقدم الأدلة الموجبة للاهتمام باللغة تشوه أية مناقشة بمجرد إيرادها، بل وتثبت ما يناقض فرضيتي، ومن ثم فإنَّ كل ما يستطيع المرء أن يقوله بشأن التأثير الذي مارسه الاهتمام بالبُنية الاجتماعية والأنساق السياسية هو إنَّه أدي إلي اختفاء الفصول الخاصة باللغة والأساطير والخرافات التي كانت تظهر– عادة– في نهاية المونوجرافات الأنثروبولوجية.

وربما كانت حالة **رادكليف براون** تمثل بذاتها مثالًا طيبًا على صعوبة اقتباس الأدلة السالبة وتقييمها، ذلك لأنه المسئول الرئيسي عن توجيه اهتمام الأنثروبولوجيين الاجتماعيين نحو البُنية الاجتماعية، ومع ذلك، فإنَّ حجم اهتماماته اللغوية التي أظهرناها في القسم السابق، بالإضافة إلى حجم اهتماماته اللغوية التي سنقدمها فيما يلي قد تظهره كما لو كان مدافعًا– وعلي العكس من الواقع– عن الاستخدام القصي لعلم اللغة داخل الأنثروبولوجيا الاجتماعية. وفي الحقيقة، فإنَّه لم يكن مهتمًا حتى بتعلم "اللغة" بوصفها أداة بحث ميدانية، كما أشار **وستر مارك** في مدحه لتلك الممارسة إذ يقول: **"من الواضح أن هذه المعرفة التي شغلت تلك المكانة الرفيعة فى المتطلبات العقلية للباحث الأنثروبولوجي الميداني المدرب كانت غريبة على رادكليف– براون، ولم يطالب بها الباحثين الميدانيين قط"(Westermark,1936:242)**

وبالرغم من ذلك، فقد شرح **رادكليف براون** في أحد مقالاته التقويمية (1931) الدور الذي تقوم به دراسة اللغة في حل الخلافات الدائرة حول التباين السلالي والثقافي، وقبيل نهاية المقال أورد إشارته الصريحة الوحيدة للصلة الوثيقة بين هذا الموضوع وعلم اللغة، هذا بالرغم من

عدم توسعه فى الحديث عنها، إذ قال: **"هذا مع أنني لم أقل شيئًا حتى الآن حول دراسة اللغة، فقد شهدت العقود المعاصرة تطورًا لعلم اللغة، ولقد أحرز هذا العلم وضعًا متميزًا مستقلًا، وأعتقد أننا نأمل في أن يتواصل الارتباط الوثيق بين علم اللغة والسوسيولوجيا المقارنة، واعتذر لضيق الوقت في هذه المناسبة عن مناقشتنا للعلاقات التفصيلية القائمة بين هذين العلمين"(Radcliffe-Brown,1931:29)**، ولسوء الحظ، فإنَّه لم يجد الوقت الكافي لمناقشة العلاقات القائمة بين هذين العلمين فى أية مناسبة أخري على الإطلاق.

إلَّا أنه وعلي أثر فحصنا لأعماله نكتشف أنه عقد كثيرًا من المقارنات بين معنى عنصر الثقافة ومعنى الكلمة، إذ ذكر في أحد المقالات: **"يشير معنى الكلمة إلى مجموعة من الأفكار التي تستدعيها الكلمة مع ما عداها من كلمات داخل عقل المرء، وعلى ذلك فإنَّه يمثل الموضع الذي يشغله في تفكيره وحياته الذهنية بوصفها كلًا"(Ibid.,:16)**، وبالطريقة نفسها يمكننا **"تحديد معني عنصر الثقافة في العلاقة بين العنصر الثقافي المعنى، والعناصر الثقافية الأخرى في الموضع الذي يشغله فى حياة المجتمع بوصفها كلاً"(Ibid.,:16)**، وبالرغم من ذلك فقد عادل- مثل **مالينوفسكي**- بين المعنى والوظيفة، وتكشف إشاراته العديدة للمعني عن إعجابه بالموضوعية العلمية الصريحة لعلم اللغة، إذ ذكر في تقديمه لكتاب "سكان جزر الأندمان" (1922): **"ومن ثم يتضح لي أهمية أن تحرص الإثنولوجيا على تزويد نفسها بنفسها بمنهج فعال يمكن في ضوئه تحديد المعاني، وعلى عدم تقييد الإثنولوجيا نفسها بنفسها بالمعادلة ذاتها التي تتميز بها مناهج علم اللغة، التي يجد عن طريقها عالم اللغة معاني الكلمات، أو المورفيمات في اللغة حين تدرس للمرة الأولى"(Radcliffe-Brown,1933:ix)** .

وعلاوة على ذلك، فقد اعترف **رادكليف براون** بجوهر البُنية اللغوية، وبجوهر الأنساق السيميوطيقية Semiotic الأخرى، إذ ذكر: **"مثلما نقر بأن ثمة معان للكلمات، هكذا يمكن أن نقر بأن ثمة معان لبعض الموضوعات الثقافية الأخرى، مثل الإيماءات الاصطلاحية، والأفعال الشعائرية، ومظاهر التقشف (الامتناع عن الملذات)، والموضوعات الرمزية، والأساطير، على فرض أن سائر هذه الموضوعات الثقافية تُعد بذاتها علامات تعبيرية**

expressive signs ، وأن "معنى" اللغة، أو الإيماءة، أو الشعيرة يكمن فيما تعبر عنه من معنى بفعل توحده داخل نسق الأفكار، والعواطف، والاتجاهات الذهنية"(Ibid.,:viii) .

وبالرغم من ذلك فقد كان النموذج اللازم لتحليل البُنية الاجتماعية نموذجًا عضويًا، كما ظهر في مقال: "حول مفهوم الوظيفة في العلم الاجتماعي" (1935)، وهو لئن قرأ أعمال **دوركايم** وأعجب به، لم يقرأ كتاب **دوسوسير**، أو أي من أعمال علماء اللغة الفرنسيين الذين ارتبطوا بالحولية السنوية للسوسيولوجيا L´Année Sociologique ، ولقد لاحظ **ليتش** أثناء مراجعته لترجمة **بوكوك** D.F.Pocock لكتاب **دوركايم**: "السوسيولوجيا والفلسفة" الانتقائية الغريبة لهذين العالمين العظيمين فيما يتصل بمدى ولائهما المعلن للمدرسة الدوركايمية:

"يمكن النظر إلى رادكليف– براون ومالينوفسكي، وهما مبدعا الأنثروبولوجيا الاجتماعية البريطانية الحديثة– في ضوء أساليبهما المتباينة– بوصفهما أتباعًا لدوركايم، ولهذا وجدت الأمر محيرًا، ولقد كنت أشعر– أثناء ارتقائي الفكري– بتعاطف متزايد مع دوركايم، وبتعاطف متناقص مع كل من رادكليف– براون ومالينوفسكي، ولم يقتصر هذا الارتقاء الفكري عليَّ، وإنَّما أظن أنه أشبه بنزعة عامة بين الأنثروبولوجيين الممثلين للجيل الذي أنتمي إليه، ولقد ارتبط هذا الارتقاء الفكري بإحياء الاهتمام بأنساق الفكر وبالنماذج بذاتها، على النقيض من النزعة الإمبريقية المتطرفة التي تمثلت، على سبيل المثال، في مالينوفسكي"(Leach,1954)

– بعض الاستثناءات:

يمكن العثور في أدبيات هذا العصر على بعض المقالات التي تثبت اهتمام الأنثروبولوجيين **بربط** مشكلة المعنى بـ**السياق** الاجتماعي، أو بدراسة استخدام **اللغة**، وبالرغم من ضآلة مثل هذه المقالات، فقد تماثلت في نمطها العام مع نمط "علم اللغة الاجتماعي" الذي عنونه **دل هايمز** D.Hymes بـ"إثنوجرافيا الاتصال"، وهو ميدان يهتم– وفقًا له– بـ**الكلام** Parole، و**باستخدام اللغة** في سائر السياقات الاجتماعية، وبالوصف المنهجي لكيفية استخدام اللغة، أو بـ**الكلام بوصفه نسقًا من أنساق السلوك الثقافي(Hymes,1971:51)** .

وأولى هذه المقالات هو مقال **لوسي مير** L.Mair: "علم اللغة دون السوسيولوجيا"، (1935)، التي أعلنت فيه عن عدم رضائها عن كثير من الترجمات التى تضمنها قاموس لوجاندا Lugande القياسي **(Mair,1935)**، على فرض أنه لم تكن لمصنفي القاموس الدراية الكافية بالعوالم السوسيولوجية للكلمات اللوجاندية، وأنهم قاموا بترجمتها إلى اللغة الإنجليزية منعزلة عن التصورات المحلية التي ارتبطت بها، ويتضح النقص البين في فهم المصنفين لثقافة الباجاندا**(1)** Baganda– على نحو خاص– في المرادفات الإنجليزية التي وضعوها للتسميات القرابية اللوجاندية، لقد قدم القاموس كلمتين هما obuko (وتعنى المهر المدفوع للزوجة) و obuko وتعنى (ارتجافات الشلل)، بوصفهما جناسًا في اللوجاندا، ولقد أشارت **مير** إلى أن كلمة muko تشير في هذه اللغة إلى أم زوجة الرجل (أو الحماة)، أما كلمة buko فإنَّها تشير إلي أحد المفاهيم العامة المجردة، التي صيغت على غرار كلمة muko للإشارة إلى العلاقة المحترمة التي يقتضيها الزواج، وحين يستخدم الباجانديون كلمة buko للإشارة إلى "المهر"، فإنَّهم يستخدمونها كاختصار لعبارة ebintu bya buko ، وتعني الأحوال العامة للزواج، أما كلمة obuko فإنَّها تعني لديهم معنى الشلل الإرتجافي، أو الشلل الرعاش، ومن ثم كانت تعبر– في خلدهم– عن استخفاف الرجل بالوضع اللائق للعلاقة الزوجية، ومن ثم فإنَّها تعبر عن الحالة المعتلة العامة للزواج، وتشير اللوجاندا إلى ذلك بعبارة Kulwala buko.

وبشكل عام، لقد كان هذا المقال تنفيذًا حرفيًا لتعاليم **مالينوفسكي** فيما يخص الترجمة، ولم تزعم الكاتبة أنها قدمت أية نظرية سوسيولوجية في اللغة، فالمقال لم يكن أكثر من مجرد محاولة منها لاستخدام معرفتها المتنامية بمجتمع الباجاندا لتحسين ضبط القاموس، وعلى أية حال، فقد اظهر المقال اهتمامًا أنثروبولوجيًا بـ"اللغة" بحد ذاتها، وهو أمر كان نادر الحدوث فى هذا العصر.

والمقال الآخر المماثل لهذا المقال– وإن ظهر بعد فترة طويلة من ظهوره– هو مقال **مـاكس جلوكمـان** M.Gluckman: "المفـردات التقانيـة في قـانون باروتسـه" (1959)**(1)**،

---

(1) الباجاندا هى إحدى قبائل البانتو التى تقطن شرقي أفريقيا، ويتحدث أعضاؤها لغة اللوجاندا– المترجم.

(1) باروتسه هى إحدى قبائل البانتو التى تقطن الإقليم الغربي من زامبيا بجنوبى أفريقيا، يتحدث أعضاؤها لغة لوزى Lozi– المترجم.

(Gluckman,1959)، فلقد كلفت الحكومة القضاء النظر في نزاعات ملكية الأراضي بين أهالي قبيلة باروتسه، ونزاعات الملكية بشكل عام، وفي الوقت نفسه، لم يكن في اللغة الخاصة بهذه القبيلة (وتسمي لوزى Lozi) إلَّا عدد محدود من المفردات التي تشير لمعنى الملكية بوجه عام، إذًا كيف يمكن للقضاة القيام بإثبات صحة إدعاءات الملكيات دون لبس.؟.

وبشكل أساسي يقدم هذا المقال تحليلًا عميقًا لمصطلح mung'a، وعلى حين ترجمه **جلوكمان** مؤقتًا- تيسيرًا للمناقشة- بكلمة مالك owner، أكد على دلالته النسبية، على فرض أنه لم يكن يشير في اللغة المحلية إلى الحقوق المطلقة للمالك كما هو مفترض دائمًا، وإنَّما إلى الأوضاع النسبية للمتنازعين، وفي ذلك يقول: **"لا تشير علاقة المالك bung'a (وهى شكل مجرد من mung'a) إلى المعنى المباشر الذي يفهم، عادة، من إدعاء شخص ملكية قطعة من الأرض، وإنَّما تشير إلى حقوق مْنّ يشغل مكانة اجتماعية محددة في مركب الحقوق الكلي الذي يشترك فيه معه آخرون مْنّ يشغلون مكانات اجتماعية أخري محددة في مركب الحقوق الكلي ذاته- كذلك، وذلك على فرض أن حقوق المتنازعين حقوق نسبية، تتحدد تفاصليها بالقياس إلى المكانة الاجتماعية التي يشغلونها قياسًا على المكانات الاجتماعية التى يشغلها مْنّ عداهم، وبالرغم من ذلك، فقد كانت اللغة المحلية تشير لهم جميعًا بالمصطلح نفسه"(Gluckman,1959)**.

لم يكن لدي قبيلة باروتسه مصطلحات تمييزية للملكية، أو مصطلحات مطلقة تشير للملاك، وذلك على فرض أنها لا تنظر للملكية، أو للملاك بهذه الطريقة، وإنَّما كانت تنظر لها بوصفها مركبًا من الحقوق والواجبات التي تعتمد علي علاقات المكانة الاجتماعية التي يشغلها كل شخص من المتورطين في النزاع، ولذلك كانت علاقة المالك bung'a بما يمتلكه يمثل مصطلحًا نسبيًا في تطبيقه العام، وعلي حين لم يزعم **جلوكمان** أنه يقدم أي مستوى من التجريد في هذا المقال، كان المقال- من بدايته وحتى نهايته- يمثل إحدى المحاولات السوسيولوجية الناضجة لتفسير إحدى المشكلات اللغوية الصريحة.

ومن الموضوعات اللغوية التي اهتم الأنثروبولوجيون بها لصلتها الوثيقة بالأنثروبولوجيا الاجتماعية كان نسق تسمية الأبناء، ولقد وضع **وايتهد** G.O.Whitehaed في عام 1947

أحد المقالات الرائعة في هذا الميدان، حلل فيه استخدام قبيلة باري Bari (وهي إحدى القبائل النيلية الزنجية التي تقطن جنوبي السودان- المترجم) للأسماء الشخصية، فقد كان كل شخص من أعضاء هذه القبيلة يحمل ثلاثة أنماط من الأسماء، النمط **الأول**: الاسم المتسلسل Serial، وهو يشير إلى ترتيب ميلاد الأطفال من الجنس نفسه، ومن الأم نفسها، وإلى علاقة ترتيب الأطفال بترتيب الأطفال من الجنس المقابل، أما التوائم فقد كانوا يمنحون أسماءً مختلفة، وكذلك مْنَّ يولدون عقب ولادة التوائم، ولقد تم تسجيل حالات الوفيات السابقة داخل قائمة الأسماء الملائمة. والنمط **الثاني**: اسم النسب genealogical، وهو اسم يُنتحل عمومًا من أحد الأقارب المتوفين من فرع الأب، ويطلق على الطفل، ويشترط أن يكون للسلف المتوفى المختار اسمًا متسلسلًا مماثلًا للاسم المتسلسل للطفل الذي يطلق عليه اسم النسب ذاته. والنمط **الثالث**: الاسم الثانوي، أو العرضي، ويرتبط هذا الاسم- عادة- بالأحوال المحلية العامة مثل موسم توقيت عملية الولادة، أو وقوع حدث قبل هذه العملية مباشرة ... وهكذا، ولقد خلُصَ **وايتهد** في مقاله إلى: **"هكذا لم تكن الأسماء الشخصية عند قبيلة باري أسماءً تمييزية للأفراد وحسب، وإنَّما هي تصوير دقيق لأعضاء العائلات، وتعريفًا دقيقًا لهم نتيجة استخدامهم الأسماء الملائمة، ولذلك لم يكن نسق التسمية في قبيلة باري يمثل أحد المظاهر النظرية المفيدة وحسب، وإنَّما كان يوفر إطارًا تصنيفيًا، أو ضربًا من الفهرسة التي يجب على الأفراد التلاؤم داخلها، نظرًا لأن من الواجب النظر لهم، ووصفهم، بما يتلائم بعلاقاتهم مع بقية العائلة، ولقد كان بالإمكان النظر للأسماء الشخصية- آنذاك- بوصفها امتدادًا لتسميات القرابة، وذلك على فرض أنها تعزز مبدأ التصنيف بقدر ما يمكن لهذا المبدأ أن يمتد"(Whitehead,1974)**.

لقد كان هذا التحليل البنائي للأسماء الشخصية في قبيلة باري الذي تقدم به **إيفانز بريتشارد** إلى مجلة "الإنسان Man" لنشره بعد وفاة المؤلف، يشترك مع أبحاثه "هو" في كثير من الخصال، ولقد قدم **بريتشارد** بعد عام واحد من نشر مقال **وايتهد** مقالًا مماثلًا بعنوان: "نماذج الخطاب عند النوير" (1948)(Evans-Pritchard,1948) ، ناقش فيه الأسماء الشخصية التي يستخدمها الأقارب الحميمون ورفقاء العمر من الجنس نفسه، وأسماء الثيران المستخدمة في مخاطبة بعضهم البعض، أو المحظور استخدامها في مخاطبة مْنّ هم أكبر سنًا منهم، وأسماء الرقص، ولقد

بيْنَّ **إيفانز بريتشارد** أهمية الاعتراف بمبدأ النسب الأبوي agnatic عند النويريين، وهو مبدأ يتمثل في استخدام تعبير "ابن فلان" تكريمًا للرجل، وفي استخدام تعبير "أم فلان" تكريمًا للمرأة، حيث كانت النساء تتمتعنَّ بمكانتهنَّ داخل العشيرة الأبوية من خلال ابنائهنَّ، ولقد شرح كيف يتم التعبير عن فوارق العمر والجنس في الخطاب، لقد كان تحليل **إيفانز بريتشارد** لنماذج الخطاب عند النوير تحليلًا موجزًا واضحًا، بيْنَّ فيه كيف ترمز نماذج الخطاب إلى المكانة الاجتماعية للرجل في علاقته بمْنّ يحيطون به، وكيف تكشف عن مكانة المتحدث بالنسبة للمخاطب، وعلى أية حال يمكن مقارنة تحليل **إيفانز بريتشارد** لتلك النماذج مع أي تحليل بُنيوي حديث.

لقد أثبت **إيفانز بريتشارد**، على وجه التحديد، في كثير من أعماله المنشورة اهتمامه الدائم بـ"اللغة" بحد ذاتها، ففي عام 1954 نشر تقريرًا في مجلة "الإنسان Man" سجل فيه استخدام صغار أمراء الطبقة الارستقراطية الحاكمة للأزاندي لأحد أنماط اللغة العامية القديمة **(Evans-Pritchard,1954)** ، وفي عام 1956 وصف أسماء العشائر الزاندية، بوصفها نموذجًا مناظرًا للإيتمولوجيا الشعبية التي سماها **ماكس موللر** "مرض اللغة"**(Evans-Pritchard,1956b)**، وذلك في ضوء التفسيرات التي قدمها الأزاندى له لمعاني أسماء عشائرهم. وعلى العموم لقد قام **إيفانز بريتشارد** بجمع الأمثال، وأيد نشر النصوص اللغوية الأفريقية انطلاقًا من اهتمامه بـ"اللغة" بحد ذاتها، وهكذا تقدم بعض أعماله أمثلة دقيقة لنمط ناجح من "إثنوجرافيا الكلام"، ولقد وصف في مقاله: "لعنات النويريين، وانتقامها الروحى"**(Evans-Pritchard,1949)** اعتقادهم في تأثير لعنة الشخص المظلوم، حتى وإن لم ينطق مْنّ تعرض للأذى باللعنة، وإنَّما فكر فيها فقط، وتعرف هذه اللعنة بينهم بلعنة القلب Biit loac ، ولقد وصف كيف يميز النويريون بين "لعنة الأب" و"لعنة الخال"، وكيف ينظرون إليهما، وهم يعتقدون في أن لعنة الخال أخطر من لعنة الأب، على فرض أن الأب لا يجرؤ على لعن ابنه في ماشيتة التي يمتلكها على سبيل المثال، لأنها لا تخصه وحده، وإنَّما تخص العشيرة– التي تضمهما– بالكامل، وأن الخال من خارج العشيرة، ومن ثم، كان بإمكانه أن يتلفظ بأغلظ اللعنات، وأن يفلت من العقوبة، وتتماثل لعنة الخال عندهم مع انتقام الرجل الذي مات ظلمًا.

وربما كان مقال **إيفانز بريتشارد** حول: "سانزا، أحد المظاهر المميزة للغة الرجل الزاندي وتفكيره"**(Evans-Pritchard,1956c)** مثالًا دقيقًا لاهتمامه بـ"اللغة" بحد ذاتها، وقد استهله بتقديم بعض التعريفات المعجمية للسانزا، تعريف يدل علي الحسد والضغينة والغيرة، وآخر يدل على الحكايات الرمزية، أو أحد الأمثلة السائرة لها، ولقد انتهى إلى إثبات أن الأزاندي يعاملون السانزا بوصفها فكرة واحدة، وقدم أمثلة عديدة للسانزا اللفظية في اللغة المحلية حينًا، ومترجمة حينًا آخر، ومصحوبة بتفسيرات شاملة لمعانيها، واستخداماتها أحيانًا أخر، ولقد عرف معنى السانزا بما يلي: "**يتخطى معنى السانزا ما نعنيه نحن بالأمثال، أو بالأقوال المأثورة، حيث يتضمن معناها أية ملاحظة– أو أي فعل– كان المقصود منه أن يكون منحرفًا، أو مبهمًا، أو غامضًا، فالسانزا هي الكلمات أو الإيماءات، التي قُصد بها أن توحي بمعني يختلف عن معناها بذاتها، وأن يكون لها معنى مزدوج، معنى صريح والآخر مستتر**"**(Evans-Pritchard,1956c:166)** وعلى حين لم تكن السانزا كلمات حقودة بالضرورة (حيث كانت تستخدم في المواقف الاجتماعية التي لا يمكن التعبير فيها عن المعاني صراحة) إلَّا أنها كانت تفهم بين الأزاندى على نحو من ذلك، ومن هنا، كان التعريف المعجمي لها بالحسد والضغينة والغيرة، ولقد بيّنَّ **إيفانز بريتشارد** مدى ارتباطها بالمفاهيم الزاندية للمكانة غير المتساوية، ومدى تلاؤمها مع معتقداتهم السحرية، ولقد اختتم المقال بتصوير رائع للتأثير الذي نتج عن وجود هذا الطبع الملتوي للعقل الزاندي في الحياة اليومية، ذكر فيه: "**بالفعل لم يكن احساس الباحث الأنثروبولوجي بالأمان متحققًا، وقد اهتزت ثقته بنفسه، فهو قد تعلم اللغة، واستطاع أن يعبر فيها عما يريد التعبير عنه فيها، وبمقدوره أن يفهم كل ما يسمعه منها، ولكنه– مع ذلك– يبدأ في الشك فيما إذا كان قد فهم بالفعل، وذلك حين يري كيف يأخذ الأزاندي أنفسهم دائمًا كشيء مسلم به بينهم أن "ما يقال" يعنى شيئًا آخر غير ما يعنيه "ما قد قيل"، وحين يفقد القدرة على التأكد– مثل الأزانديين أنفسهم– مما إذا كانت هناك فوارق ضئيلة للكلمات، أو ما إذا كان شخص ما يتصور أنها كذلك، أو يتعين عليه الظن أنها كذلك**"**(Ibid.,:180)**، لقد خطا **إيفانز بريتشارد** فى ضوء هذا المدخل العقلاني لاستخدام اللغة خطوة بعيدة المدى عن الاستغراقات الوظيفية فى الأنثروبولوجيا المالينوفسكية لتعلم اللغة. وعلى أية حال، لم تكن المقالات المتخصصة الموجزة التي

قدمها **إيفانز بريتشارد** تمثل المواضع الوحيدة التي أثبتت اهتمامه بـ"اللغة" بذاتها، بقدر يفوق أعمال معاصريه من الأنثروبولوجيين، وذلك لأن مونجرافاته الإثنوجرافية الرئيسية قد قامت بذاتها على **تحليل الأنساق المنطقية** للشعوب المعنية، لقد ربط **إيفانز بريتشارد** في كتاب النوير The Nuer (بصرف النظر عن كونه تحليلًا وظيفيًا خالصًا للتكامل الاجتماعي) بين الزمر الاجتماعية القائمة، واعتقاداتهم الخاصة في بُنية مجتمعهم، وبيْنَّ كيف ارتبطت البُنية الاجتماعية بالتصورات الخاصة بالمكان والزمان، ولقد أشار المعلقون كثيرًا إلى تفوقه في تحليل معنى cieng (فكرة البيت)، وربطه بين استخدام هذه الكلمة والتفاوت الاجتماعي، وفي هذا يقول: **"لا تعود الاختلافات القائمة في استخدام معنى الكلمة (cieng) إلى تناقضات اللغة، بقدر ما تعود، في الأصل، إلى نسبية قيم الجماعة التي تستخدمها"(Evans-Pritchard,1940:136)**، ولم يكن هذا الإيضاح- في الواقع- هو المحاولة الوحيدة له، على فرض أنه قام بمحاولات عديدة لوصف معاني الأفكار النويرية بمقابلتها بالأفكار التي ارتبطت بها داخل النسق المعرفي المنطقي المحلي، ولذلك استهل كتابه: "الدين عند النوير" (1956)، بتقديم تحليل تفصيلي لاستخدام النويريين لكلمة Kwoth في السياقين الديني والعامي **(Evans-Pritchard,1956a)**.

ويناقش كتاب "الدين عند النوير" بالتفصيل الموضوع الذي تجنبه الأنثروبولوجيون البريطانيون على الدوام، أعني مشكلة المعنى وطبيعة الرموز، ولقد حلل فيه كيف يعتقد النويريون في أن القثاء cucumber كانت في الأصل ثورًا ox ، وكيف يعتقدون في أن التوائم طيور، ولقد قدم إيضاحه حول هذه المسألة على النحو التالي:

"إذا توخينا الدقة في الإفادات التي سجلها ملاحظو الشعوب البدائية الأوائل في هذا الميدان، وهي الإفادات التي أقام عليها ليفي بريل Lévy Bruhl نظريته حول عقلية الشعوب السابقة على المنطق، سوف نجد أن السمة الرئيسية لتلك العقلية- في نظره- هو أنها تسمح بوجود مثل هذه التناقضات الصريحة، وبالرغم من ذلك، فإنَّ سماح هذه العقلية بوجود التناقضات الصريحة لم يكن متناقضًا مع ذاتها، وإنَّما كان تفسيرها للمتناقضات- وعلى الخلاف مما ذهب إليه ليفي بريل- تفسيرًا مقنعًا- حقًا، بل تفسير صادق حتى

للشخص (الأوروبي) الذي يستحضر الفكرة لنفسه في لغة النوير داخل نسق تفكيرهم الديني الخاص"(Ibid.,:131) .

لقد كان اهتمام **إيفانز بريتشارد** بإثبات منطقية بُنية معتقدات الشعب الخاضع للوصف واتساقها المنطقي، بمثابة إحدي العلامات المميزة له في جميع أعماله، ولقد كان استنتاجه لمعادلة النويريين بين التوائم والطيور كما يلي: **"لا تعبر هذه الصيغة عن إحدى العلاقات الثنائية القائمة بين التوائم والطيور، وإنَّما تعبر عن العلاقة الثلاثية القائمة بين التوائم والطيور والإله"(Ibid.,:132)**، ولقد أثارت مناقشته المتميزة للمعادلة النويرية بين التوائم والطيور جدلًا واسعًا استمر لسنوات طويلة، وشارك فيه كل من **ليفى شتراوس** و**ريموند فيرث**، و**إدموند ليتش** و**ميلنر (Lévi-Strauss,1962;Firth,R.,1966;Leach,1966;Miliner,1969)** .

على أية حال لقد عبرت الأدبيات الإثنوجرافية التى قدمها **إيفانز بريتشارد** عن خروجه الجذرى عن تقاليد الأنثروبولوجيا الإمبريقية، كما أشار بذلك **بوكوك** D.F.Pocok في كتابه الرائع "الأنثروبولوجيا الاجتماعية" (1961)، لقد زعم **باكوك** في هذ الكتاب أن كتابات **إيفانز بريتشارد** كانت تمثل في تاريخ الأنثروبولوجيا البريطانية **"التحول من الوظيفة إلى المعنى" (Pocock,1961:72)**، وبالرغم من ذلك فإنَّه لم ينظر نفسه على أنه ثوري كما فعل **مالينوفسكي**، ولقد علق على ذلك بقوله: **" لقد كان لرفض المؤلف (إيفانز بريتشارد) توضيح التحول الذي تم فى الأنثروبولوجيا ميزاته التكتيكية، وذلك لأنه لا يمكن لعاصفة مهما عصفت أن تحجب الصورة البارزة خلف سحابة ضباب زائلة، لقد احتكرنا لأنفسنا الإحساس بالديمومة، وبالرغم من ذلك فإنَّ بمقدور كثير من الأنثروبولوجيين الأصغر سنا رؤية الصلة الوثيقة العميقة القائمة بين "اللغة" وموضوع دراستهم"(Ibid.,:79)** .

لقد ارتبط اهتمام **إيفانز بريتشارد** بأنساق المعنى بإصراره على ضرورة إدراج الأنثروبولوجيا ضمن الإنسانيات، وتكاملها مع التاريخ، وإلَّا فإنَّ مصيرها سيؤول إلى الاخفاق، وسوف تصبح، آنذاك، أشبه بالعلم الزائف، وهو ما حرص عليه **إيفانز بريتشارد**، ولقد أشار **أردنر**– في تقييم مماثل لتقييم **باكوك**– إلى المغزى البعيد الكامن في تشجيع **إيفانز بريتشارد** لترجمة

النصوص السوسيولوجية الفرنسية المهمة في جامعة أكسفورد، بغية تقديمها للأنثروبولوجيين البريطانيين الذين تجاهلوها كلية نتيجة لعدم تيسرها لهم في لغتهم الإنجليزية، ولقد استنتج: **"لقد كان إيفانز بريتشارد يقينا– وليس مالينوفسكي– هو مُنّ حدد الشروط التدريسية اللازمة لمشاركة الأنثروبولوجيا الاجتماعية البريطانية بشكل جاد فى مشكلات اللغة، مشاركة فاقت التراث المالينوفسكي بأكمله، وتجاوزته، وإن جاءت تلك المشاركة متأخرة بعض الشيء" (Ardener,1971:lix)**.

أما العالم الأنثروبولوجي الثاني الذي لم تتسق أفكاره مع المدخل الأنثروبولوجي البريطاني المعاصر له فهو **نادل** S.F.Nadel، ويعد كتابه: "أسس الأنثروبولوجيا الاجتماعية" (1951) كتابًا استثنائيًا في العصر الذي نُشر فيه، هذا مع أنه كان– وللحقيقة– مؤلفًا نظريًا خالصًا، ولم يكن مونوجرافًا يمكن أن يندرج في الأدبيات الإثنوجرافية الإمبريقية التي ظهرت في هذا العصر، لقد تضمن الكتاب مناقشة عميقة لـ"اللغة"، ولصلتها الوثيقة بالأنثروبولوجيا، أحرز به **نادل** الألماني الأصل انتصارًا عبقريًا على علم اللغة المالينوفسكي، والمهم أنه اتخذ موقفًا بعيدًا عن الموقف البريطاني نوعًا ما، منح فيه علم النفس الدور المحوري في الأنثروبولوجيا الاجتماعية، هذا بالرغم من كراهية مدرسة **راد كليف براون** لذلك، ووصل أفكاره بأفكار الأنثروبولوجيا الثقافية الأمريكية.

لقد أظهرت أفكار **نادل** وعيه المكثف بتداخل "اللغة" في كل مناحي عمل الباحث الأنثروبولوجي والمشكلات التي تطرحها أمامه، ولذلك رفض ما ذهبت إليه **مارجريت ميد** M.Mead في مقالها: "اللغة الوطنية بوصفها أداة بحث ميدانية" (1939)، وحصر أهمية اللغة للأنثروبولوجيا في كونها "أداة" للبحث الميداني، وعلق على ذلك بدقة بالغة، إذ قال: **"دون شك تُعد اللغة واحدة من أهم "أدواتنا" المنهجية للتوصل للحقائق، وبالرغم من ذلك فإنَّها تُعد– من جديد– واحدة من تلك الحقائق التي يجب أن نتوصل إليها عن طريقها، وليس المقصود بذلك الإيضاحات التى يقدمها لنا الاخباريون (الذين يتم اختيارهم– عادة– وفقًا لمواصفات خاصة)، وإنَّما الإيضاحات التى يقدمها الأهالي لبعضهم البعض في مختلف السياقات التي نلاحظها، بوصفها جزءًا من تلك السياقات"(Nadel,1951:39-40)**، ولقد توسع **نادل** في التعليق

ليثبت أن السلوك الاجتماعي بأكمله ما هو إلَّا **سلوك لفظي**، وحدد **الوضع المتناقض** للباحث الأنثروبولوجي في عبارة دقيقة: "**بمعنى أن وضع الباحث الأنثروبولوجي يعد وضعًا فريدًا كذلك، وذلك لأن موضوع تخصصه يتألف فى جانبه الأكبر من اللغة (لغة المجتمع الأجنبي المدروس)، ولأن الأسلوب الوحيد الذي يملكه لتمثيل هذا الموضوع يمر عبر اللغة (لغة الباحث الدارس ذاتها)، ولذلك كان من الواجب وجود ترجمة**"(Ibid.,:40) .

وبالرغم من انطلاقه من الموقف المالينوفسكي التقليدي من "اللغة"، فقد صرح بأن **مالينوفسكي** لم يصرح قط (وبالأخص في أي شكل مطبوع)، ولم يصرح معظم اتباعه كذلك بأن لغة الوصف الأنثروبولوجي تطرح أمام الباحث الأنثروبولوجي إحدى القضايا النظرية الجوهرية التي لا يمكن التغلب عليها، أو إخفائها بأية حال في ضوء النزعة الإمبريقية، فلقد أخفق الأنثروبولوجيون البريطانيون في الاتفاق فيما بينهم حول النطاق الذي يمكنهم داخله الاستعانة بالتسميات الأهلية الدراجة في معالجتهم الإثنوجرافية، ولقد استخدم الباحثون الأنثروبولوجيون- حين لم يستعينوا بالتسميات الأهلية الدراجة- تسميات وصفية غامضة، ولقد بالغ **نادل**- مثل **مالينوفسكي**- في الطبيعة العملية الغالبة لـ"اللغة"، بوصفها المتحكم الرئيسي في الفعل الاجتماعي والمحرض له، وبالرغم من ذلك، فقد كان تحليله للغة- وعلى الخلاف من تحليل **مالينوفسكي**- تحليلًا مصقولًا، ولقد اعترف بالقوى التصنيفية للغة، وبإمكانية استخدام اللغة بوصفها مؤشرًا مهمًا لتمييز الجماعات الاجتماعية وتحديدها.

وفي معرض تحديده لمقولات الوصف الأنثروبولوجي قابل بين المجتمع والثقافة، وصرح بأنه تقابل بين البناء والفعل، وأضاف: "**يوجد ترتيبان آخران للحقائق، وهما متدخلان إلى حد بعيد، بحيث يمكن القول إنَّ أي حدث اجتماعي ينتسب إليهما، وأنه يتمتع بموضع محدد داخلهما، إنني أفكر في "اللغة"، وفى التركيبات المعرفية، أو في الأفكار الوطنية السائدة، وبايجاز إنَّني أفكر فى أنساق الفكر Idea systems داخل المجتمع**"(Ibid.,:83)، وهكذا ربط **نادل أولًا**: بين اللغة والأنساق الفكرية ربطًا وثيقًا، طالما كانت اللغة ضرورية لإيصال الأنساق الفكرية للمجتمع، والأهم من ذلك هو اعترافه بأنهما يمثلان نمط النسق الرمزي نفسه، ويعد هذا الجزء من كتاب **نادل** المشار إليه جزءًا سيميوطيقيًا Semiotic عبقريًا، هذا بالرغم من عدم

إشارته إلى **فرديناند دوسوسير**، ولقد اتضحت أصالته فى اعتقاده **ثانيًا**: في عدم مطابقة هذا البناء المنطقي الداخلي بالضرورة مع أي وجه من أوجه النسق الاجتماعي الذي اعتاد تمثيله في الواقع، وفي ذلك يقول: **"وهكذا يتباعد هذان الإتساقان المنطقيان، الاتساق الأول: هو الاتساق الحاصل بين النسق الرمزي وقائمة الأشياء الموضوعية التى يرمز إليها من ناحية، والاتساق الآخر: هو الاتساق الحاصل داخل النسق الرمزي ذاته من ناحية أخري فى نقطة ما، وهكذا لم تكن مصطلحات القرابة التصنيفية (التى تعمل بشكل متسق مع مبدأ الجيل) تعبر عن التمييزات العملية، أو عن الاختلافات المهمة بين الأقارب، وإن دل ذلك على شيء– وهو شيء تخبرنا به البديهة البنيوية أيضًا– فإنَّه يدل على أن الاتساق لا يمكن أن يكون العامل المهيمن على كل حدث، وفى الوقت نفسه على أن الدافع على تنظيم أحد مجالات السلوك قد يعمل مستقلًا عن الاعتبارات النفعية والغرضية" (Ibid.,:264)** ، وهكذا طور **نادل** في مجال أنساق القرابة والأنساق الرمزية المماثلة الأفكار التي اقترحها **كروبر** في عام 1909، ولم يأخذها بعين الاعتبار من بين الأنثروبولوجيين البريطانيين سواه، ولذلك ظلت معالجته لأفكار **كروبر**، وللقضايا اللغوية الأخرى ذات الصلة الوثيقة بالأنثروبولوجيا الاجتماعية أشبه بالمعالجة المنعزلة بين الأنثروبولوجيين البريطانيين في الخمسينيات من القرن العشرين.

– علامات التغير فى الموقف:

من موقعنا التاريخي الحالي، وذلك بعد أن مرَّ ما يزيد عن عشر سنوات على انتهاء العصر الذي اخضعناه للمناقشة في هذا الجزء من الكتاب، يمكننا أن نلمح بعض الشواهد النحيلة التى تدل على تغير الموقف بين بعض الأنثروبولوجيين البريطانيين من قضايا "اللغة" و"المعنى" و"البناءات المعرفية"، وبالرغم من ضآلة عدد المقالات التي ظهرت في هذا الميدان منذ انتهاء الخمسينيات حتى الآن، فإنَّها تساعدنا في تحديد علامات بداية التغير في الموقف البريطاني، وفي فهم الكيفية التي طور بها مؤلفوها أفكارهم فى هذا الميدان.

في عام 1954 اختتم **ميلنر** (ولقد تمتع بمكانة متميزة بين الأنثروبولوجيين البريطانيين نظرًا لخلفيته اللغوية) مراجعته لكتاب **باروت** Perrot: "علم اللغة La Linguistique" بملاحظة لها

دلالتها يقول فيها: **"أُذكى هذا الكتاب بشكل خاص لمْنّ ليس لديهم الوعي الكافي بالتطور المتماثل الذي حدث فى الأنثروبولوجيا وعلم اللغة فى المائة عام الأخيرة"(Milner,1954)**، ففي منعطف هذا القرن انتقل هذان العلمان من التركيز على الدراسات التعاقبية Diachronic والانتشارية Diffisional، إلى الاهتمام بالدراسات التزامنية Synchronic والوظيفية، والبنائية، ومع ذلك لم يهتم الأنثروبولوجيين واللغويون في المملكة المتحدة– على ما يشير **ميلنر** في المقال نفسه– بالمقارنة بين مناهج العلمين، أو لم يهتموا بتقييم نتائج أبحاثهم مقترنة بالأبحاث التي كانت تتم في العلوم الاجتماعية المعاصرة، والاستفادة من المسلمات المنطقية لهذه العلوم(Ibid.,:172)، ولقد كان استنتاج **ميلنر** استنتاجًا متشائمًا، إذ ذكر: **"لم تتفق الأنثروبولوجيا الاجتماعية وعلم اللغة على الاستخدام الصحيح للأدوات المتهجية والنظرية، ولم يتفق العلماء– داخل كل علم منهما– على ذلك، ولذلك فبالرغم من التشابه الصريح فى المصطلحات المستخدمة، فقد كان الحديث عن هذين العلمين باللغة نفسها يؤدي حتمًا (كما أشار ليفي شتراوس منذ عامين) إلى سوء الفهم والإحباط" (Ibid.,:172)**، وفي عام 1951 أرسل **روبينز** رسالة تذكيرية مماثلة من المعسكر اللغوي أكد فيها على تماثل المشكلات والتقنيات على علم اللغة والأنثروبولوجيا الاجتماعية (وهي رسالة سبق وأن ناقشتها في الجزء الثاني من هذا الكتاب).

على أية حال، من المقالات المهمة التي ظهرت بين علماء الأنثروبولوجيا الاجتماعية خلال الخمسينيات مقال **أردنر**: "بعض اتجاهات قبيلة الإيبو نحو تخضيب البشرة" (1954) **(Ardener,E.W.,1954)**، ومقال **دوجلاس** "الحيوانات في ضوء الاتجاه الرمزي الديني لقبيلة ليلا" (1957) **(Dougles,M.,1957)**، في المقال الأول انتهى **أردنر** إلى أن تفضيل زنوج قبيلة الإيبو[1] Ibo لتفتيح بشرتهم (السوداء) كان تفضيلًا أهليًا Indigenous **قبل أوروبي**، وأن تسميات اللونين (الأبيض) و(الأسود) اعتمدت على نوعية زهوة اللون Brightness المستخدمة لديهم،

[1] **قبيلة الإيبو هى إحدى القبائل التى تقطن نيجيريا، ويعيش أعضاؤها على الزراعة، ومزاولة بعض الحرف التقليدية (كالحفر على الخشب، وصناعة الفخار)، وهم يشتهرون بالموسيقي والرقص وشغفهم بالرسم– المترجم.**

ولقد ربط **أردنر** بين ذلك ونسق القيم السائد لكي يبين سبب تفضيل أعضاء هذه القبيلة للأقمشة الناعمة زاهية الألوان. أما المقال الثاني فقد تضمن جزءًا كبيرًا من المادة الأساسية التي اعتمدت عليها **دوجلاس** في تأليف كتاب:"النقاء والخطر" Purity & Danger (1966)، ولقد اهتمت في هذا المقال بالمقولات التي تُعرف الحيوانات بها، والحيوانات التي شذت عنها، ونطاق هذا الشذوذ، ولقد كان البنغول[2] Pangolin من أكثر الحيوانات شذوذًا عن هذه المقولات، ولقد انتهت **دوجلاس** إلى أهمية هذه المقولات بالنسبة لأعضاء قبيلة ليلا[3]، وإلى اعتقادهم في عالمها الواضح القائم بذاته، حيث شكل هذا الاعتقاد أساس نظرتهم إلى الكون. وفي ذلك تقول:" **عند إجابة اعضاء القبيلة على استفساراتي أجدهم يكررون الصفات المميزة للحيوان الذي استفسر عنه وحسب، كما لو كان بإمكاني إدراك صفاته المميزة بشكل فوري، وكما لو أن تلك الصفات تقدم الإجابة المناسبة على السؤال المطروح" (Douglas,1957:49)**.

أما **بيتي** Beattie فقد اعترف في مقال له بعنوان :"تيارات معاصرة في الأنثروبولوجيا الاجتماعية البريطانية" (1955)، بضرورة أن يتبنى الأنثروبولوجيون مدخلًا ملائمًا يفي بحاجتهم لدراسة الاهتمامات الجديدة (العقائد وأنساق الفكر) في الأنثروبولوجيا الاجتماعية البريطانية، وفي ذلك يقول: **"لايزال الأنثروبولوجيون يركزون على الأساليب الوظيفية التي تربط بين الأنساق الفكرية والاجتماعية، وعلى الرغم من ذلك، فلقد اتضح لهم عدم إمكانية تأسيس العلاقات الوظيفية القائمة بينها دائمًا، ولذلك لم تكتف الدراسات المعاصرة في دراستها لتلك الأنساق بوجهة النظر الوظيفية هذه، وإنَّما تعدتها إلى دراستها كأنساقً بذاتها، وهكذا أُلحق التحليل الوظيفي داخل الأنثروبولوجيا الاجتماعية بالتحليلات الوافدة من التخصصات الأخرى كالمنطق والأخلاق وفلسفة الدين"(Ibid.,:9)**

أما **إدموند ليتش** فإنَّه يُعد العالم الأنثروبولوجي الوحيد الذي تعبر أعماله على تغير الموقف في الأنثروبولوجيا الاجتماعية البريطانية، ففي المقال الطويل الذي كتبه حول:"الشعر

---

(2) البنغول (أم قرفة) هو حيوان من آكلات النمل، يكسو جسمه قشور أشبه بحراشف الأسماك.

(1) قبيلة ليلا هي إحدي القبائل التى تقطن جنوبي الكونغو، ويعيش أعضاؤها على الزراعة وتربية الحيوانات والصيد البري والمائي– المترجم.

السحري" Magical Hair عام 1958 **(Leach,1958b)** اهتم بتعيين الصلة الوثيقة القائمة بين تفسيري عالم النفس وعالم الأنثروبولوجيا لطبيعة الرموز ومعانيها، فمن ناحية، كان عالم النفس يضع عددًا من الافتراضات حول نسق البرهان الذي يستخدمه، وكان يقوم، غالبا، باستخلاصها من المجتمعات البدائية، وذلك لأنه يفترض **أولًا**: أن هذه المجتمعات البدائية "بدائية" بالمعنى التطوري للمصطلح، ويفترض **ثانيًا**: إمكانية معادلة رموزها الاجتماعية الوطنية برموز العصابيين (المصابون بالاضطرابات العصبية الوظيفية). ومع ذلك، إذا بدأ الباحث الأنثروبولوجي من الناحية الأخرى في استقصاء ما تضمره هذه الرموز الاجتماعية الوطنية فسوف يدرسها مباشرة بوصفها عناصر في نسق الاتصال المحلي القائم، وقد يتوصل إلى الاستنتاج نفسه الذي توصل إليه المحلل النفسي في ضوء تقنيات الحدس المفرط، أو المفقود عنده**(Ibid.,:149)**، وعلاوة على ذلك، فقد حاول **ليتش** في المقال نفسه التمييز بين المحتوى العملي للرموز ومحتواها الاتصالي **(Ibid.,:149)**، فعلى حين أكد **مالينوفسكي** على النظر للغة بوصفها أداة عملية محضة، وذلك كرد فعل منه على الاتجاهات النظرية السائدة منها، لم يكن بمقدور هذا التأكيد العملي- في رأي **ليتش**- تفسير القوى العاطفية للرموز، وهي القوى التي يجب أخذها في الاعتبار في التفسير الأنثروبولوجي للرموز. ولقد طرح **ليتش** (في معرض مناقشته لتفسيري عالم النفس **ديرج** Dr.Derg و**مالينوفسكي** لعادة الحداد Mourning عند التروبرياندين) القضية التالية: **"على حين تبدأ مناقشة الدكتور ديرج من افتراض واضح يسلم بأن ما يقال في شكل رمزي يعكس دائمًا الحالة السيكولوجية الفعلية للقائل، يؤكد مالينوفسكي على أن بُنية الموقف الاجتماعي تقتضي وجود القائل للأقوال الرمزية الرسمية، وعلى أن الأقوال المقدمة لا تعني بالضرورة أنها صادقة (أو أنها تعبر بصدق عن الحالة النفسية للقائل)"** **(Ibid.,:153)**، وعلى حين لم يتوصل **ليتش** إلى أي استنتاجات صالحة للتطبيق وللاستثمار، فقد صادف مقاله الترحيب.

وربما كان مقال **ليتش** المعنون:"فيما يختص بعشائر التروبرياند وفئة القرابة 'تابو "' (1958) **(Leach,1958a)** من أكثر المقالات التي قدمها هذا العصر أهمية، لقد بدأ المقال بمقدمة تماثل المقدمتين التي قدم بها **مير** و**إيفانز بريتشارد** لمقالهما في عامي 1935و1956 على التوالي

[1]، مفترضًا أن **مالينوفسكي** قد أخطأ- بالرغم من إقراره بأنه عالم لغوي متميز- حين افترض أن اختلاف مراجع Referents الكلمة التروبرياندية "تابو"، أو إحالاتها تثبت اهتمام الباحث الأنثروبولوجي بـ "الجناس"، وذلك استنادًا إلى عدم تماثل الفكرة التي تشير إليها الكلمة في اللغة الكيروينية وترجمتها الإنجليزية، لقد بدأت مشكلات **مالينوفسكي**- في رأي **ليتش**- مع افتراضه أن كلمة tama تفيد في اللغة الكيروينية المعنى الذي تفيده كلمة "أب" في اللغة الإنجليزية، في حين كانت تعني في هذه اللغة: **"الذكر المقيم في قرية العشيرة المجاورة لقرية عشيرة أبي" (Leach,:123)**، فقد كانت التسميات القرابية في اللغة الكيروينية تشير إلى فئات وليس إلى أفراد، هذا علاوة على أنها كانت تعبر عن الاختلافات المتعلقة بمحل الإقامة، والمكانة القائمة على أساس السن، ولم تكن تعبر عن العلاقات القرابية المترتبة على سلسلة النسب **(Ibid.,:131)** ، لقد حلل **ليتش** فئة التابو في علاقتها بتغيير الذكر لمحل إقامته من قرية الأب إلى قرية الخال، وفي علاقتها بإتجاه دفع الهدايا urigubu، ولقد خلص إلى استنتاج مؤداه أن التروبرياندين يميزون بين المقيمين في هاتين القريتين، ومن وجهة نظرهم يوجد "أقارب يماثلونا"، و"آخرون غرباء"، وهم يمثلون بالنسبة لديهم مْنّ يتلقون الهدايا، ومْنّ يجب على المرء الزواج منهم، ولذلك كان الغرباء فئة محرمة tabu، فهم **"الأعداء الذي يجب أن يعاملهم المرء بوصفهم أصدقاء"**، **وهم"الأقارب الخطرين الذي يجب استرضاؤهم بتقديم الهدايا"**، وهذا هو السياق الذي يعكس نسق التابو taboo **(Ibid.,:129)**، وقد اكتشف **ليتش** وجود أربع فئات أساسية للأقارب، أو للأنسباء، تشير اثنتان منها إلى فئة "أقارب يماثلونا"، وتشير الأخريتان إلى "مْنّ عُدّ بنظرهم طبقة محرمة"، وقد اقترح **ليتش** أن هذه الفئات القرابية الأربع تفسر وجود أربع عشائر تروبرياندية، حيث لم يكن لها أي مدلول آخر، وقد خضع الزواج والإقامة لها، ولذلك خلص إلى أنها تمثل- إلى جانب تمثيلها

---

[1] **تقصد المؤلفة نمط المقدمتين اللتين سبق وأن كتبهما لوسي مير وإيفانز بريتشارد لمقاليهما "علم اللغة دون السوسيولوجيا" و"سانزا ..." على التوالي- المترجم.**

للجماعات العشائرية الأربع المستقرة على الأرض- نموذجًا معرفيًا يميز التروبرياندیون في ضوئه بين أربعة أنماط من الأشخاص[1].

وقبل أن نسدل الستار على العصر الخاضع للمناقشة يجب أن نشير- ولو بإيجاز- إلى المحاضرة التي ألقاها **ليتش** في الثالث من ديسمبر 1959 تأبينا لـ**مالينوفسكي**، ولقد نشرها في عام 1961 تحت عنوان "تأملات في الأنثروبولوجيا Rethinking Anthropology"، وقد أعلن في تلك المحاضرة عن عدم رضائه عن المسار الذي سارت فيه الأنثروبولوجيا الاجتماعية البريطانية، حيث اتضح أنها اعتمدت في كل مراحل تطورها على نزعة إمبريقية مبالغ فيها، إلى حدٍّ جعلها غير صالحة لتقديم أي تعميمات نظرية جديرة بالاعتبار، ولم يكن التعميم النظري الذي طمح إليه **رادكليف- براون**- ذات يوم- إلا تجميعًا للفراشات، ونحن نعلم أن ترتيب الفراشات في ضوء ألوانها وأنماطها يعد حشوًا كماليًا لا قيمة له، فهو يعيد بالكاد تأكيد أمر نحن نعرفه بالفعل، حتى وإن تم في أشكال مختلفة، وبالرغم مما جهر به **ليتش** فقد اساء الأنثروبولوجيون الاجتماعيون البريطانيون فهم رغبته المتسلطة لإنقاذ الأنثروبولوجيا الاجتماعية بالاستعانة بنقاء

---

[1] منذ عهد قريب أثبتت آن شاونتج **Ann Chowning** أن كلمتي تابو **taboo** (التي يُقصد بها الأقارب الذكور) وتابو **tubu** (التي يُقصد منها التحريم، والأشياء المحظورة ....الخ) تعدان جنسان ايتمولوجيان، على فرض أن الأقارب الذكور كانوا يمثلون أحد الأشكال الشائعة للتحريم **tubu** فى ماليزيا، ولقد قدمت شاونتج الأسباب التى جعلت من كلمة **tubu** أن تظهر بوصفها الكلمة **tabu** فى اللغة الكيروينية، وقد خلصت إلى أن المبشر وعالم اللغة كودرينجتون هو المسئول عن جعل كلمة تابو **taboo** إحدي الكلمات المعتادة لدى الأنثروبولوجين، إذ أن معظمهم لم يكن لديهم المعرفة المناظرة لمعرفته باللغات المحيطة **Oceanic** ولم يتبدي لمالينوفسكي أن هناك شيئًا محظورًا على الأقارب الذكور سماه التروبرياندیون" تابو"، ولقد كرس مالينوفسكي جهده لمعالجة المحتوى الفعلي لنسق القرابة، وليس المحتوي المتخيل له. انظر :

Chowning, Ann, 1970; Taboo. Man 5 (N.S); 309-10

إلَّا أن ذلك لا يبرر افتراض اهتمام مالينوفسكي بالجناس كما أشار ليتش في مواضع أخري، لأن هناك أساليب أخري لتجنب التأثير الذي تقوم به عملية التغير الصوتي في توحيد معنى الألفاظ المتجانسة، مثل استبدال مصطلح آخر بالمصطلح الذي سقط من الاستخدام، حتى وإن سلَّمنا بالتمايز الذي كان قائمًا بين مصطلحي القرابة والتحريم، إنَّ هوياتهما الآنية تبين أن هناك احساس بين التربوبرياندين بعدم تنافر استخدام كلمة "تابو" للإشارة إلى معنى المصطلحين، ولم تكن ملاحظة شاونتج تحبي- فى رأى أردنر- برهان مالينوفسكي، بقدر ما كانت تحيي سؤال المظهر التعاقبي للمقولات المعرفية، ولقد وضعت ملاحظتها- فى رأيه- المشكلة التى نتجت عن مقارنة ايتمولوجيات النجاة الجدد ونزعة تعليل أصول الألفاظ الشعبية فى البؤرة، حيث لا توجد فى الثقافات الشفاهية أية ايتمولوجيات تاريخية مهيمنة. انظر: **Ardener, E., 1971:lxxii**

الرياضيات: **"مهما اتسمت ترجمة الحقائق الأنثروبولوجية إلى اللغة الرياضية بالفجاجة، إلَّا أنها تساعدنا على الإفلات من التورط في الحقائق الإمبريقية والمفهومات المحملة بالقيمة" (Leach,E.,1961:12-13)**، لقد أعجب **ليتش** بنمط التعميم الذي قدمه **ليفي شتراوس**، ورأى فيه المؤشر الدال على المستقبل، ويمكن للباحث الأنثروبولوجي- في ضوءه- عدم التورط في مقارنة المادة التي يمكن ملاحظتها مباشرة في المواقف الإثنوجرافية، وإنَّما المقارنة بين الأنساق الصورية المتباينة التي تكمن فيها.

- الأنثروبولوجيون الوظيفيون واللغة:

في الفترة الواقعة بين عام 1920 وتنتهي في عام 1960 تقريبًا لم يُبد الأنثروبولوجيون الاجتماعيون البريطانيون أي اهتمامات جادة بـ"اللغة"، حيث لم يكونوا، طوال هذه الفترة، سوى مرددين لبعضٍ من وجهات نظر **مالينوفسكي** دون الاهتمام باخضاعها لأي تدقيقات نظرية جادة، هذا إذا افترضنا أنهم قد فكروا فيها أصلًا، ولذلك لا نجد أثرًا لحلقات الوصل التي قامت بين **جون روبرت فيرث**، ومدرسة لندن لعلم اللغة و**مالينوفسكي** بين الأنثروبولوجيين الوظيفيين، وربما لم يكن لهذه الحلقات أي وجود أصلًا، فبالنسبة للأنثروبولوجيين الوظيفيين، فإنَّ اللغة لم تمثل إلَّا جزءًا من النظرية اللغوية، وهم لم يهتموا (نتيجة لموقفهم المعارض للأنثروبولوجيا النظرية التي سادت في القرن التاسع عشر) إلَّا بما يمكن أن يثبتوه بطريقة إمبريقية وحسب، وبإمكاننا ذكر الأسباب الأخرى التي أدت إلى تنامي تلك النزعة الإمبريقية بين الأنثروبولوجيين الوظيفيين، كالظروف الاستعمارية التي أجريت فيها الأبحاث الميدانية، إلَّا أن المقام لا يسمح ببحثها بشيء من العمق. وعلى أية حال فقد أدى تشكيك الأنثروبولوجيين الوظيفيين في التعميمات النظرية البحتة إلى ضآلة عدد مَنْ اهتم منهم بمصطلحات القرابة أيضًا، هذا بالرغم من أهمية الأنساق القرابية في فهم البُنى السياسية للمجتمعات التي خضعت للحكم الاستعماري البريطاني.

ودون شك، هناك استثناءات، ومع ذلك فعند تقييمنا لتلك الاستثناءات (وهي تمثل دليلًا موجبًا) يجب أن نتذكر أنها لم تمثل إلَّا قدرًا ضئيلًا للغاية من كل المنتوج الأنثروبولوجي الذي ظهر في هذا العصر، ولذلك لم ترتبط تلك الاستثناءات الحميدة بأية مدرسة فكرية، أو أية نظرية أنثروبولوجية حدث وأن تطورت عن قصد، وفي الوقت نفسه لم يكن بمقدور الدليل السالب-

بطبيعته- أن يشرح تلك الاستثناءات بشكل مباشر، هذا علاوة على هبوط عدد المقالات اللغوية والمراجعات في مجلة "الإنسان Man" و"مجلة المعهد الأنثربولوجي الملكي" مقارنة بالسنوات الأولى من هذا القرن، ومن ثم كان الموقف التمثيلي لهاتين المجلتين لتلك الفترة هزيلًا، ولم تسترد هاتان المجلتان وضعها الذي كانتا عليه في بداية هذا القرن إلَّا في الخمسينيات من القرن ذاته، وعلي مدار أربعين عام لم يظهر في مجلة "الإنسان Man" إلَّا مقالًا لغويًا يتيمًا، وضعه **سيتوارد مان** S.E.Mann عام 1943 بعنوان:"مهد الهندوأوربيين: الدليل اللغوي"**(Mann,1943)**، ولقد كان- وكما يظهر من العنوان- مقالًا فوضويًا تمامًا.

الجزء الرابع
خاتمـــــــة

سبق وأن صرحت في المقدمة أن الهدف من الكتاب ينحصر في تقديم وصف تاريخي للمواقف التي أظهرتها الأنثروبولوجيا البريطانية من"اللغة" و"علم اللغة"، وبالرغم من الصلة الوثيقة القائمة (افتراضًا) بين هذا الوصف والتطورات الجديدة التي شهدتها الأنثروبولوجيا الاجتماعية، سواء في بريطانيا، أو فيما عداها من البلاد، فإنَّني لم اتطلع لتقديم أي وصف تفصيلي لها، أو تفسيرها، ولقد حرصت كل الحرص على تمثيل السياق التاريخي التفصيلي الذي يساعدنا على فهمها، هذا علاوة على أنني لست حريصة- في الخاتمة- على تناول التطورات الجديدة في الموقف البريطاني، بقدر حرصي على تقديم بعض التأملات حول التاريخ البريطاني بما يتلائم مع الوصف التاريخي التفصيلي الذي قدمته في الكتاب، والتطورات التاريخية الموازية التي شهدتها الأنثروبولوجيا وعلم اللغة في كل من أمريكا وفرنسا، ونظرًا أن هذا المخطط الموجز يخرج عن نطاق الهدف الذي حددته للكتاب، فإنَّ من غير الجائز تدعيمه بأي استشهادات تفصيلية، وعلى هذا الأساس يجب النظر إلى هذه الخاتمة بوصفها مجرد هامش مركز لنص الكتاب وحسب.

وابدأ اقتراحاتي بتقديم بعض المقارنات الخاصة بتاريخ العلاقة بين الأنثروبولوجيا واللغة في بريطانيا ومثيله في البلدين الآخرين، فقد أوحي عنوان الكتاب بوجود نوع من التماثل في تاريخ هذه العلاقة في البلاد الثلاثة، ولذلك فإنَّ عليَّ في تلك الخاتمة أن اتناول الاختلافات القائمة في تلك العلاقة كما أملتها التعاليم الأنثروبولوجية في كل من أمريكا وفرنسا.

ويمكن العثور على جلِّ اتجاهات علم اللغة الأنثروبولوجي الأمريكي في المقدمة الكلاسيكية التي وضعها **فرانز بواس** F.Boas لـ"دليل اللغات الهندية الأمريكية" في عام 1911، ففي تلك المقدمة اعترف **بواس** بنسبية المقولات اللغوية، وعدم تماثلها بالضرورة، وفي الواقع، لقد بدأ **بواس**- منذ عام 1889- في تطوير نظرية الفونيم Phoneme الخام، وفي ضوء هذه النظرية قام بتطبيق مبدأه الرئيسي الذي يقضي بضرورة عدم النظر إلى أية لغة في علاقتها بأي أنماط مفاهيمية أجنبية، أو أي أنماط نظرية قد تم تطويرها مقدمًا، وأن من الواجب النظر إلى أية لغة إنسانية في حدود النمط المفاهيمي الفريد الخاص بها**(Kroeber,1943)**، وفي الواقع، لقد كان **بواس** مقتنعًا بعدم وجود لغات إنسانية يمكن وصفها بـ"البدائية"، ومدركًا لقدرة سائر اللغات الإنسانية علي التكيف مع سائر الأوضاع الاجتماعية دون استثناء، ولقد عدَّ اللغة نسقًا ثقافيًا يماثل ما

عداها من الأنساق الثقافية، وأن قيمتها للأنثروبولوجيا تنحصر في عدم خضوع مقولاتها النحوية والدلالية- على الخلاف من الأنساق الثقافية الأخري التي تماثلها- للتمييز الشعوري، ومن ثم، فإنَّ اللغة لم تكن تمثل موضوعًا للتبرير العقلي، كغيرها من الأنساق الثقافية المماثلة الأخري.

ثم جاء **إدوارد سابير** E.Sapir بعد **بواس**، فوسع في أفكار النسبية اللغوية عنده، لتشمل كافة المقولات اللغوية**(Mandelbaum,1949)**، ولقد اعتقد- متتبعًا نظرية أشبه بنظرية اللغة عند **فون همبولت** Von Humboldt- في عدم قدرة الإنسان على اختبار العالم الموضوعي مباشرة، على فرض أنه يقوم بتلك العملية عن طريق اللغة، ولذلك صرح باختلاف متحدثي اللغات المختلفة فى إدراكهم للعالم الموضوعي، وذلك بفعل الصلة المباشرة القائمة بين هذا الإدراك واختلاف اللغات في تصنيفاتها لهذا العالم الموضوعي، وتبويبها لموضوعاته، وإذا كان من الصعب علينا التمييز بين نسبية الأشكال اللغوية على نحو دقيق، فذلك لأننا قد تأقلمنا- في ضوء هذه الأشكال اللغوية- على هذا النحو، أو ذاك، وإلى جانب اهتمامه بتسجيل اللغات الهندية الأمريكية وتصنيفها، قام **سابير** برصد التأثيرات الاجتماعية التي يمارسها المجتمع علي اللغة.

ثم جاء **ورف** B.L.Whorf فقطعت معه أفكار النسبية اللغوية شوطًا طويلًا، وبُذلت جهودًا جبارة لإثبات"فرضيات **سابير- ورف**"، ولتنفيذها أيضًا**(Whorf,1956)**، أما **كروبر** (وهو ينتمي مع **بواس** للجيل الأول من الأنثروبولوجيين واللغويين الأمريكيين) فقد رفض النزعة العرقية التى رتبت لغات العالم في مراحل تطورية، شغلت لغات أوروبا الغربية فيها القمة**(1)**، وشكك في إمكانية تطبيق نموذج علماء اللغة "التاريخيين" على سائر لغات العالم، وأكد في كافة أبحاثه على الارتباط الوثيق بين اللغة والثقافة على أي مستوى من مستويات التحليل اللغوي.

وعلى أية حال، يجب أن يكون واضحًا أنه بالرغم من شهرة العلماء المستشهد بهم حتى الآن في تلك الخاتمة في أمريكا، فإنَّ ذلك لا يعنى أنهم الوحيدون الذين درسوا مشكلات العلاقة بين اللغة والثقافة، أو مْنّ اهتموا بإمكانية استخدام تقانات كل من الأنثروبولوجيا وعلم اللغة في

---

(1) سواء فى كتابه : الأنثروبولوجيا (1923)، أم فى مقال : "مصطلحات القرابة التصنيفية" (1909).

تفسير مادة العلم الآخر، حيث كان هناك تيار مستمر من الكتب والمقالات وضعها أمريكيون- سواء أطلقوا على أنفسهم أنثروبولوجيين، أم لغويين، أو سيكولوجيين- يهتمون بتلك القضايا.

ويعود الاختلاف الرئيس بين الموقفين الأمريكي والبريطاني إلى أنه في أمريكا (كما هو الحال في بريطانيا) لم يكن هناك تقسيم حاد للعمل الأكاديمي مطلقًا، فمثلما خضع الدارسون الأنثروبولوجيون للتدريب على تقانات البحث اللغوي، خضع الدارسون اللغويون للتدريب على تقانات البحث الأنثروبولوجي- كذلك، وعلى أية حال يكمن سبب اختلاف الموقف الأمريكي (عن مثيله البريطاني) في شخصيات مؤسسي الأنثروبولوجيا الأمريكية[1] وأولوياتهم الشخصية، وفي انعزالهم عن الأنثروبولوجيا الأوروبية، وعن علم اللغة الأوروبي (هذا وإن خضع **سابير** للتدريب على تقنيات علم اللغة الهندوأوروبي المقارن)، وفي طبيعة اللغات الهندية الأمريكية، والظروف التي درست فيها، وفي المكانة التي شغلها الرجل الهندي الأمريكي في أمريكا البيضاء، ولقد قدم **مالمبرج** G.B.Malmberg ملخصًا مفيدًا لتلك الأسباب في كتابه: "اتجاهات جديدة في علم اللغة" (1964) **(Malmberg,1964:159-160)**.

وفيما يتعلق بالتطورات التاريخية الفرنسية المماثلة في الموضوع، فقد سبق **لكازاجراند** J.B.Casagrande أن عرضت السمات الجوهرية لشجرة العائلة الفكرية الفرنسية في فقرة طويلة (سبق أن اقتبستها في مقدمة الكتاب)، ولذلك سوف تجيء إشارتي للموقف الفرنسي أوجز- من حيث الكم- عن نظيرتها للموقف الأمريكي، وعلى أية حال، فبالرغم من تطور علم اللغة في فرنسا بوصفه تراثًا أكاديميًا مستقلًا، ارتبط الرواد اللغويون الفرنسيون مع أمثالهم الأنثروبولوجيين والسوسيولوجيين بروابط وثيقة، وهكذا ظهر تأثير نظريات **إميل دوركايم** (نظرية الطبيعة المتميزة

---

[1] ليس هذا المقام هو المقام الملائم لتقديم أي تحليل تفصيلي للمدرسة الأمريكية، ويمكن العثور على أحد المداخل الملائمة لتقديم هذه المدرسة في كتاب هايمز: "اللغة في المجتمع والثقافة" (1964) بالإضافة إلى الأبحاث التي حررها بالتعاون مع جومبرز J.Gumrerz في مختارين، الأول: "أثنوجرافيا الاتصال" (1964)، والثاني: "اتجاهات في علم اللغة الاجتماعي" (1970)، وكذلك في كتاب هاري هويجر "اللغة في الثقافة" (1954)، وكتاب هنيل:"اللغة والفكر والثقافة" (1958)، وأخيرًا كتاب مورهمان C.Morhmann وآخرين: "تيارات في علم اللغة الأوروبي والأمريكي" (1961)، و يلخص الكتاب الأخير الاختلافات الأساسية بين المدخل الأمريكي ونظيره الأوروبي .

للحقيقة الاجتماعية، ومبدأ عدم صلاحية الأدوات النظرية لعلم النفس الفردي لتفسيرها) في أعمال **فردينان دوسوسير**[2] و**أنطوان مييه** A.Miellet الذي ارتبط ارتباطًا وثيقًا بأعضاء مدرسة **دوركايم**، وأسهم في عام 1960 بمقال قيم في الحولية السنوية للسوسيولوجيا (وهي المجلة الخاصة بالسوسيولوجيين الفرنسيين) ربط فيه بين الأسباب المؤدية للتغير اللغوي والعوامل الاجتماعية، ولقد تولى- بعد ذلك- تحرير باب المراجعات اللغوية في الحولية ذاتها، أما **دوركايم** و**موس** M.Mauss فقد نشرا مقالًا بعنوان "الأشكال البدائية للتصنيف" (1901-1902) أظهرا فيه- في هذا التاريخ المبكر- اهتمامًا واضحًا بتلك المشكلات التي لم يثار الجدل حولها في الأنثروبولوجيا الاجتماعية البريطانية إلَّا حديثًا، وثمة في التراث الفرنسي نفسه كتابين لـ**هيرتز** R.Hertz ، الأول: كتاب "الموت La Morte" ولقد نُشر في عام 1907، والثاني هو: كتاب "الحق الشرعي للشخص" La Main Droite، وقد نُشر في عام 1909، ولم يترجم الكتابان إلى اللغة الإنجليزية إلَّا في عام 1960**(Hertz,1907;1909)**، هذل بالإضافة إلى أن استخدام **ليفي شتراوس** للنماذج اللغوية لم يكن نتاجًا للاهتمام الشخصي بالموضوع، بقدر ما كان ثمرة لانحداره المباشر- كما صرح بنفسه- عن مدرسة الحولية السنوية للسوسيولوجيا، التي ظهرت في فرنسا في بداية هذا القرن، وإن كان ينتسب- في الوقت نفسه- إلى **فرانز بواس**.

ولعل العامل الرئيسي المسئول عن هذا التطور الفرنسي للموضوع هو أن الأنثروبولوجيا الفرنسية لم تطور- على الخلاف من نظيرتها البريطانية- أيديولوجية إمبريقية صارمة، وعلى حين أجرى الأنثربولوجيون الفرنسيون بعض الأبحاث الميدانية، لم يلتزموا فيها بتلك الإجراءات المتشددة التي التزم بها الأنثروبولوجيون البريطانيون- أو حتى الأنثروبولوجيون الأمريكيون- في جمع المادة، ففي فرنسا بقيت الأنثروبولوجيا (وبقي علم اللغة كذلك) **في عالم الفلسفة**، ولهذا السبب كان

---

(2) لقد سلَّم كثيرون بالتأثير الدوركايمي في علم اللغة السوسيري، وبالرغم من ذلك، فإننَّا نرى أن التأثير الذي مارسه دوسوسير نفسه في الفكر الحديث لا يعود إلي تأثره بعلم الاجتماع الفرنسي، بقدر ما يعود إلى طبيعة المسلمات المنهجية التى وضعها لعلم اللغة، وأهمها تعريف علم اللغة ذاته بوصفه علمًا سيميولوجيًا، على فرض أن هذا العلم لم يكن ينتمي- عنده- إلى علم الاجتماع، أو علم النفس، أو التاريخ، وإنَّما كان ينتمي إلى علم العلامات Semiologé، وهو علم لم يكن قد نشأ إلي الوجود بعد، ولقد وضع دوسوسير أسسه، وحدد موضوع دراسته، ولم يظهر إلَّا بعد سنوات طويلة من وفاته (المترجم).

الأنثروبولوجيون البريطانيون يشككون، دائمًا، في التقابلات الأنيقة، والقياسات التمثيلية المثيرة للإعجاب عند **ليفي شتراوس**، ولقد عزز تشكيكهم في المدخل الأدبي Literary الصريح لـ**ليفي شتراوس** من قناعتهم بمعرفتهم الميدانية، ولقد كانت خبرة العمل الميداني عنده ضئيلة بالمقارنة معهم، وكان استخدامه للأبحاث الميدانية للأنثروبولوجيين الآخرين متعاليًا إلى حد بعيد.

لقد أشرت في هذه الخاتمة إلى أنه بالرغم من التاريخ المستقل لكل من الأنثروبولوجيا الاجتماعية وعلم اللغة في بريطانيا، فقد حدث تغير في التوجه الأنثروبولوجي نحو دراسة أنساق المعاني والأنساق التصنيفية، وهو أمر برز- بشكل خاص- منذ الستينيات، وهو ادعاء يقتضي منا التوضيح. ومن المهم أولًا أن نعرف أن هذا التغير قد اقتصر على عدد ضئيل من الأنثروبولوجيين الذي نجحوا في الخروج على تناقضات الاتجاه الوظيفي، وليس من المتيسر الإشارة- في هذا المقام- إلى إنجازاتهم بالتفصيل، وعلى حين كان عددهم صغير نسبيًا، كان انتاجهم من الكتب والمقالات المرتبط بموضوع الكتاب في العقد الماضي وحده يعادل كل المادة التى استطعت العثور عليها حول الموضوع نفسه فيما يتعلق بالقرن الماضي بأكمله، وعلى أية حال لقد تمثل المدخل الجديد الذي أعنيه في بحث **ليتش**: "تأثير السياق الثقافي على الاتصال غير اللفظي" (1972)، وكتاب **دوجلاس**: "الرموز الطبيعية: اكتشافات في ميدان الكوزمولوجيا" (1970)، وبحث **نيدام**: "آلات النقر والمقطع الانتقالي" (1967)، وبحثي **فيكتور تيرنر**: "غابة من الرموز: مظاهر الطقوس عند النديمبو" (1967)، و"طبول الحزن: دراسة العمليات الدينية بين نديمبو زامبيا" (1968)، وبحثي **ميلنر**: "التوائم السيامية، الطيور، والمحارة المزدوجة" (1969)، و"الدرع المربع الواقي: مختصر في علم التصنيف الدلالي" (1968)، وبحثي الفقيد **وايتلي**: "الأنثروبولوجيا الاجتماعية، والمعنى، وعلم اللغة" (1966)، و"استخدام اللغة والتغير الاجتماعي" (1971)، فكل هذه الأبحاث تعد بذاتها إسهامات قيمة من وجهة النظر اللغوية، هذا إلى جانب إسهامات **أردنر** في كتاب "الأنثربولوجيا الاجتماعية واللغة" (1971) وهي تثبت التزامه بالمدخل الجديد.

وهناك اسهامات **روث فينجان** (1969، 1972)، و**روبين فوكس** (1968)، و**رالف بولمير** (1967)، والفقيدة **جين بوكستون** (1968)، وكل هؤلاء كتبوا مقالات لمجلة "الإنسان Man" ومجلة المعهد الأنثروبولوجي الملكي، وسوف استخدم هاتين المجلتين مرة أخري- انسجامًا مع

العادة المتبعة في الأجزاء السابقة من الكتاب– بوصفهما مرشدًا للتوصل إلي التغير الحادث في المناخ الفكري لاهتمامات الأنثروبولوجيا المعاصرة. فعلى حين كان على **أردنر** في عام 1954 أن يغير عنوان مقاله: "تصنيف الألوان عند الإيبو" ليصبح: "بعض اتجاهات الإيبو نحو تخضيب البشرة" لكي يقبل للنشر في مجلة "الإنسان Man"، فإن المجلة تنشر الآن بانتظام مقالات تدور حول التصنيف والأنساق الرمزية... وهكذا، ويمكن تحديد هذا التغير الملحوظ في السياسة التحريرية للمجلة بعام 1964، ففي هذا العام عُين **روبينز** مستشارًا للتحرير، بهدف تشجيع المقالات اللغوية وتسليمها للنشر بالمجلة، وسرعان ما ساعدت المقالات اللغوية على نشر المعلومات المتعلقة بتطور علم اللغة، وتطور تقاناته في علاقتها بالأنثروبولوجيا الاجتماعية، ولقد غطت المجلة ميادين الاهتمام المشتركة بين العلمين مثل: الأغاني التقليدية، والمعاجم المتخصصة. وعلى أية حال، فإنَّ **روبينز** هو مْنّ يُسأل عن تلك الطريقة الاستفزازية المتعمدة التي تم بها تقديم بعض الموضوعات الأساسية ذات الاهتمام المشترك (أعنى موضع المعنى في التحليل اللغوي، واستخلاص الاستدلالات الشرعية من علم اللغة المقارن والتاريخي)**(ROBINS,R.H.,1964)**، هذا علاوة على أن **روبينز** قد اعترف في مراجعته لكتاب **دل هايمز**: "اللغة في الثقافة والمجتمع" عام 1966 بعدم كفاية المدخل البريطاني التقليدي لتناول الموضوع، ولقد صرح: **"لقد أصابت الجامعات الأمريكية فى تمسكها بعدم استطاعة دراسي الأنثروبولوجيا، ومدرسيها أداء واجبهم تجاه عملهم على النحو الأكمل دون اطلاعهم على أبحاث علماء اللغة ووجهات نظرهم، وفي اصرارها– كذلك– على عدم استطاعة الباحثين اللغويين فهم موضوع دراستهم (اللغة) بالمعنى الدقيق للكلمة، إذا لم يتعلموها داخل سياق إحدى الثقافات، أو أكثر، وإذا لم يرتبطوا بتلك الثقافة بعد ذلك بشكل حميم، وإذا كان هذا الكتاب يشجع على التكامل بين الدراسات اللغوية والأنثروبولوجية، وييسر القيام بها فى الجامعات الناطقة بالإنجليزية فإنَّ الفضل فى ذلك يعود إلى دل هايمز" (IBID.,:133-4)** .

أما **دوجلاس**، فإنَّها زعمت في مقال ظهر لها بمجلة "الإنسان Man" في عام 1968 أن الأنثروبولوجيا قد انتقلت الآن من تحليلها للبُنى الاجتماعية (وهو ما كان شائعًا في الأربعينيات) إلى التحليل البنائي لأنساق الفكر**(DOUGLAS,1968:361)**، وهو تصريح متفائل للغاية، وذلك إذا نظرنا إلى الأنثروبولوجيا الاجتماعية البريطانية ككل، ولقد اكتشف الراحل **وايتلي** في مسح قام به

للإسهامات البريطانية في دراسة "المعنى" في عام 1966 عدم وجود مثل هذه الإسهامات، وذلك نتيجة لجهل الأنثروبولوجيين البريطانيين بعلم اللغة، وتجاهلهم أهمية اللغة للأنثروبولوجيا، وفي نهاية العقد ذاته تأسفت **فينجان** على إخفاق الأنثروبولوجيا الاجتماعية البريطانية في الإسهام في دراسة الأدب الشفاهي، وفي عبارة وجيزة قالت: "**يتضح نقص الاهتمام البريطاني بالأدب الشفاهي حين نقارنهم مع نظرائهم من غير البريطانيين، فقد تجاهل الأنثروبولوجيون البريطانيون قضايا الأدب الشفاهي دون سبب واضح**"(FINNEGAN,1969:91)، ولقد أكدت على أهمية دراسة العنصر الأدبي في الأنثروبولوجيا، متبعة في ذلك مثال **لينهارت** و**إيفانز بريتشارد** اللذين أشرفا على تحرير نصوص الأدب الأفريقي في سلسلة أكسفورد، ولقد كان استنتاجها النهائي ذو صلة وثيقة بموضعنا الحالي، إذ صرحت: "**لقد أغلقت النزعة الوظيفية الباب أمام هذا المدخل الأدبي، الذي فُتح على مصراعيه، فى الوقت نفسه، من الخارج، وذلك نتيجة احتكاك الأنثروبولوجيا البريطانية بالأنثروبولوجيا الأمريكية، وقبل كل شيء نتيجة للتأثير الذي مارسه ليفى شتراوس فى هذا المجال**"(IBID.,:61)، وهو استنتاج يذكرنا بما صرح به **ليتش** عند مراجعته لكتابي **ليفي شتراوس**: "الطوطمية" و"العقل البري" (1963)، حيث عبر عن تخوفه البالغ من تغير الأنثروبولوجيا خارج بريطانيا وتخلف الأنثروبولوجيا البريطانية عن اللحاق بهذا التغير: "**يمثل هذا التغير بداية لظهور أحد الأطوار المحدثة للأنثروبولوجيا الاجتماعية، ونحن نأمل أن يحث ذلك الأنثروبولوجيين البريطانيين أنفسهم لكي يعجلوا بتقديم إسهاماتهم فى هذا المجال**"(LEACH,1963:46-47) .

إذا استعرضنا موقف الأنثروبولوجيا البريطانية من "اللغة" طوال القرن الماضي إجمالًا تبين لنا أنها لم تقدم أي أسس، أو تعاليم، للاهتمامات الجديدة التي تطورت بالرغم منها، ففي البداية استخدم الباحثون الأنثروبولوجيون "اللغة" و"علم اللغة" بما يتفق مع المشكلة الراهنة التي بين أيديهم، ولقد ظهر– حينذاك– قدر من الحسد للتقنيات الراسخة فى علم اللغة، وبالرغم من ذلك لم يُبد الأنثروبولوجيون أي قدر من الفهم الصحيح للصلة الوثيقة القائمة بين التقانات اللغوية والأنثروبولوجية، ولقد ظهر– في تلك الفترة– بعض الأفكار المتطرفة، التي أثبتت بالرغم من تطرفها– وأنا أفكر في الأفكار التي قدمها **ماكس موللر**– فائدتها، ولم تكن "اللغة" و"علم اللغة" جزءًا من الاهتمام الأنثروبولوجي إلَّا في أضيق الحدود، ولقد تقيدت هذه الأفكار بالنزعة التاريخية والظنية

للعصر، وحين قامت الثورة المالينوفسكية رفض الأنثروبولوجيون البريطانيون "اللغة" و"علم اللغة"، بسبب عدائهم الشديد له، ولفترة وجيزة– وهي الفترة التي سميتُها فترة الانتقال– ارتبطت اللغة بالاهتمامات العملية لمْنّ لم يرفض من الأنثروبولوجيين البريطانيين التأملات النظرية في معالجتها، وفي ذلك الحين، كانت هناك إمكانية لتأسيس مدخل بريطاني مناظر للمدخل الأمريكي، حيث احتوت أبحاث **هوكارت**– على سبيل المثال– على بعض الأفكار المماثلة للأفكار الأمريكية المبكرة، ولكن **مالينوفسكي** كان قد وفِدَّ– آنذاك– إلى الساحة البريطانية، ومن المؤكد أن اهتمامه بـ"اللغة" داخل الأنثروبولوجيا الاجتماعية البريطانية كان أشبه مايكون باستثناء منعزل، ولقد تجنب الأنثروبولوجيون البريطانيون قضايا اللغة برمتها "**نكاية فيه**"، ولقد أدي تعصبه الشديد لنظرياته اللغوية إلى غموض المسائل اللغوية الحقيقية، وحينها أصبح من المستحيل التواصل مع التعاليم اللغوية السابقة انطلاقًا من نظرياته اللغوية، ومن ثم أصبحت "اللغة" و"علم اللغة" موضوعين زائدين، لا علاقة لهما بالهدف الرئيسي المعلن للأنثروبولوجيا الوظيفية، التي لم يتعد الاهتمام فيها بمشكلات اللغة نطاق الاهتمام الذي كانت عليه الأنثروبولوجيا التطورية في العصر السابق عليها، وفي نهاية الأمر تم عزل الاستثناءات، وبقيت هكذا دون أي تأثير على الأنثروبولوجيين المعاصرين، كما نجد في حالة **نادل**.

ولقد أشرت فى هذه الخاتمة إلى تعليقات **ميلنر** (1954) على التطور المتوازي الذي خضعت له الأنثروبولوجيا الاجتماعية وعلم اللغة منذ بداية نشأتهما، بدءًا من اهتمامها بـ**المتعاقب DIACHRONY** والانتشار الثقافي واللغوي إلى انشغالهما الكامل بـ**المتزامن SYNCHRONY** والبناء والوظيفة، وهو تيار استمر في العلمين كليهما حتى وقتنا الحاضر، ومن أهم المظاهر الدالة التي ميزت الأنثروبولوجيا الاجتماعية البريطانية وعلم اللغة الوصفي خلال عقود الثلاثينيات والاربعينيات والخمسينيات هو تجنبهما كلاهما لقضية "المعنى"، ولذلك حين تم الاعتراف بهذه القضية بوصفها تمثل الأرضية المشتركة التى يمكنها أن تجمع بين الأنثروبولوجيا الاجتماعية وعلم اللغة أصبح بالإمكان فهم سبب انعزال الأنثروبولوجيا الاجتماعية الوظيفية البريطانية عن علم اللغة، ولقد استحوذت على المدرستين (المدرسة الأنثروبولوجية البريطانية والمدرسة اللغوية البلومفيلدية) رغبة جامحة في تحقيق الاحترام العلمي، فمن ناحية سلَّم **بلومفيلد** بضرورة استناد التفسير في علم اللغة إلى المادة العينية الملاحظة، بوصفه التفسير الوحيد المشروع في هذا العلم، ورفض إمكانية اخضاع "المعنى" لتقانات

الوصف الموضوعي الصارم، ولقد أدي سيطرة هاجس الموضوعية العلمية ذاته في الأنثروبولوجيا الاجتماعية البريطانية، والاهتمام بالحقائق الإثنوجرافية العينية إلى تجنب المتخصصين لأي تصورات ذاتية لـ"المعنى" كذلك.

لقد أدت وجهتي نظر الأنثروبولوجيا البريطانية وعلم اللغة البلومفيلدي وموقفهما من "المعنى" إلى وجود نزعتين تخصصيتين متطرفتين، فقد انطلق **بلومفيلد** واتباعه من توصية **بواس** التي تؤكد على ضرورة دراسة كل لغة وفقا لأنماط مقولاتها المفاهيمية الخاصة، وفي ضوء هذه النظرية طور **بلومفيلد**– الذي اعتنق إحدى النزعات السلوكية المتطرفة– "الإجراءات الكشفية" التي يقوم الباحث اللغوي في ضوئها بتحليل اللغة بأسلوب يضع في الاعتبار خصوصياتها المتميزة مع إهمال أية سمات مشتركة بين اللغات، ومع ذلك فقد كانت النتائج– كما بيَّن **ليونز**– عكسية: **"قد يكون هناك شك في أن البلومفيلديين قد بالغوا في التأكيد على أن لكل لغة أحكامها النحوية الخاصة، رغبة منهم فى تجنب اتجاه القواعد التقليدية، وذلك لأن التشابهات النحوية القائمة بين اللغات المتباعدة، التى لا يربط بينها أي رباط تاريخي، لا تقل بأي حال على الاختلافات النحوية القائمة بينها"(Lyons,1970:103)**.

وبإمكاننا أن ننسب تاريخًا مناظرًا لتاريخ البلومفيلديين الأمريكيين إلى الوظيفيين البريطانيين، الذين تمسكوا بضرورة التسجيل التفصيلي للمواد الإثنوجرافية، وذلك كرد فعل على التعميمات النظرية الفضفاضة التى ميزت الأنثروبولوجيا الفيكتورية، أو الفريزرية الأسبق، اعتقادًا منهم أنه بمجرد قيامهم بجمع المواد الإثنوجرافية الموثقة من مجتمعات محددة، سيصبح بمقدورهم إجراء المقارنات بين هذه المجتمعات مرة أخري، هذا بالرغم من أنه كلما ركز الأنثروبولوجيون على معالجة المجتمعات بحدودها الخاصة، بالغوا في انتحال "العدم" مقدمًا، بوصفه المظهر المشترك الذي سيتم– في ضوئه– تقديم التعميمات الأنثروبولوجية المشروعة فيما بعد، ولقد تعرضت لغة الوصف الأنثروبولوجي للتشكيك، ومن هنا كان استياء **ليتش** البالغ من مسلك الأنثروبولوجيا الاجتماعية البريطانية الذي سبق الإشارة إليه.

ويمثل **ليفي شتراوس** و**تشومسكي** النموذج المثالي للتوازيات المعاصرة التي قامت بين الأنثروبولوجيا الفرنسية وعلم اللغة الأمريكي، وفي الواقع، فإنَّ اختيارهما للتقديم في سلسلة "المفكرون

المحدثون" التي تصدرها مؤسسة فونتانا للنشر لم يكن مصادفة محضة ألبتة، وقد اشتركا كلاهما في صفات الأبطال العظماء المثيرين للإعجاب، وذاعت نظرياتهما خارج حدود تخصصيهما المحدد، ولقد سبق لي الإشارة إلى التصور الكوني أو العالمي لـ"اللغة" عند **تشومسكي**، ونظرته إلى مهمة علم اللغة على أنها محاولة لاقتراح قائمة البُنى الكامنة التي تعمل- في ضوء التحويلات الحتمية والاختيارية- على توليد الإمكانات اللانهائية للغة، ولقد اقتصرت نماذجه في البداية على توليد الجمل النحوية الصادقة في اللغة الإنجليزية فقط، ومع ذلك فقد ساد اعتقاد بين علماء اللغة أن هذه النماذج تمثل في الحقيقة المقومات الكونية، أو العالمية للغة، هذا مع أن **تشومسكي** لم يقر الصفة الواقعية لتلك النماذج، وإنَّما صرح بأنها تقدم تفسيرًا أكثر إقناعًا مقارنة بسائر التفسيرات اللغوية التي اقترحها العلماء دون استثناء .

ويكمن المغزى العميق لنظريات **تشومسكي** في زعمه أنه يتحدث عن **طبيعة العقل البشري**، وهذا ما يفسير- في الواقع- الاهتمام العريض إلى أثارته نظرياته خارج حدود علم اللغة، فقد كان **لدى تشومسكي** رغبة جامحة لتفسير موضوع الإبداع اللغوي، وهو الموضوع الذي أخفق علم النفس السلوكي في تفسيره، ولقد كان الطفل يتعلم سريعًا "الجمل" الجديدة، وكان يخلق- في الوقت نفسه- كثيرًا منها بغية "اكتساب اللغة"، وقد كان علم النفس السلوكي يقوم بتفسير الإبداع اللغوي في ضوء منظور "المثير والاستجابة"، وهو منظور كان بإمكانه تفسير المحاكاة- في نظره- دون الإبداع، ولقد ذهب إلى أن عموميات اللغة تمثل قدرات العقل البشري، والاستعداد الطبيعي الفطري عند الإنسان لكسب اللغة، أما المظهر المهم بالنسبة لنا في نظريته، والذي له دلالته في مقارنتنا الحالية بين الأنثروبولوجيا الفرنسية وعلم اللغة، فيتمثل في عودته لقضية المعنى، فعلى حين ترك **تشومسكي**- في البداية- علم الدلالة ميدانًا مهملًا، أبدى اعجابه- منذ عهد قريب- بالتحليل **التجزيئي** الذي قدمه **كاتز** KATZ و**فودر** FODAR و**بوستال** POSTAL في ميدان علم الدلالة التحويلي، وبصرف النظر عن اعتقادنا في مدى ملائمة المدخل االتحويلي في مجال علم الدلالة، فقد يثبت- إلى جانب أعمال **جون ليونز** في بريطانيا- عودة علماء اللغة إلى قضية المعنى.

ومن الجانب الآخر، فقد وصل إلى "المعنى" عدد من الأنثروبولوجيين، ولقد مهدت أعمال **ليفي شتراوس** الطريق لهم للاهتمام ببناء النماذج، وعلى سبيل التذكرة تتكون النماذج عند **ليفي**

شتراوس من البُنى العميقة الخاضعة للتحويلات، وللتوازي بين **ليفي شتراوس** و**تشومسكي** أهميته في هذا المقام، وذلك على فرض أنهما طورا تصورهما لمفهوم التحويل على نحو مستقل، وليس هناك مجال لإثارة التساؤل حول طبيعة التأثير والتأثر المتبادل بينهما في هذا المجال، وبالمثل لم يزعم **ليفي شتراوس**– مثل **تشومسكي**– وجود واقع ملاحظ لنماذجه، وأكد– مثله– على الصفة الكونية، أو العالمية لها، ولقد تحدث– مثله– عن الاستعدادات الطبيعية الفطرية للعقل البشري أيضًا، ولقد أشار **ليتش** إلى التماثل القائم بين **ليفي شتراوس** والسير **جيمس فريزر**، على فرض أن كليهما قد اشتركا في عدم الاهتمام باستخدام المادة الإثنوجرافية، فعلى حين اهتم **فريزر** بالبحث عن التشابهات الظاهرية التي يمكن العثور عليهما حول العالم، اهتم **ليفي شتراوس** بالبحث عن الاختلافات الظاهرية في سائر أنحاء العالم بغية العثور على التشابهات التي تكمن في البُنية(**LEACH,1964B**) .

وهكذا لم يكن التطور المتوازي للأنثروبولوجيا الاجتماعية وعلم اللغة مجرد ظاهرة تصادفية منعزلة وحسب، وإنَّما كان عملية منتظمة يمكن اقتفاء آثارها عبر السنين، وكما هو واضح فمن غير المهم أن نتساءل عما إذا كان العلمان قد شجعا بفاعلية بعضهما البعض على إيجاد الصلات الناشئة عن تشابه تخصصهما، أم تجاهل كل علم منهما وجود العلم الآخر، وذلك لأنهما اندفعا إلى الأمام بفعل التيارات الفكرية نفسها في الطريق نفسه، وفي الوقت نفسه انعدمت الصلة بينهما، ولقد كان المتخصصون في العلمين كليهما على اطلاع تام بوجهة سير بعضهم البعض، ولقد حاولوا العثور على الأرضية المشتركة بينهما، أو مكان للالتقاء، ولقد كان **ليفي ستروس** هو قائد البعثة الأنثروبولوجية إلى الأرض غير المأهولة، وبالرغم من عثور الآخرين على الأرضية المشتركة الراسخة، إلَّا أنه كان يتمتع بتوهج القائد، ولقد قام وحده بتلك البعثة، ولذلك سوف نعامله هنا بوصفه الممثل الوحيد لهذا المدخل بالاجمال.

ولكن على حين امتلأت أعماله بالإمكانات الفكرية المثيرة للاعجاب، قامت نظرياته على افتراضات مشكوك في صحتها غالبًا، ولذلك من غير المستطاع أن يقال عنها إنَّها تقدم الحل الأنثروبولوجي العالمي، والأمر اللافت للنظر– في سياق هذا الكتاب– هو تعليق الأنثروبولوجيين الاجتماعيين البريطانيين حكمهم عليه، على فرض أنهم لم يرفضوا أفكاره صراحة، ولم يتبنوها كذلك إجمالًا، وحين جرب المجربون أفكاره وتقاناته أخفقوا في ربطها بمناهجهم البريطانية والتقليدية، ولقد

ظهرت تعبيراته في اعمالهم أشبه شيء بالقشرة الخشبية فوق الأساس النظري المختلف، وتفسير ذلك يعود إلى انجذابه للتعاليم الفرنسية والأمريكية، وإلى استخدامه لأفكار علم اللغة بحرية ومشاركته فيها، في حين لم يتعرف الأنثروبولوجيون البريطانيون على تعاليم علم اللغة، ولم يستغلوا أفكاره، ولم يشاركوا فيها، ولذلك لم يتزودوا بالأدوات الفكرية التي تمكنهم من التكيف معه.

ويمكن لنا أن نأخذ حالة **إدموند ليتش**- بوصفها- مثالًا للأنثروبولوجيين البريطانيين، فقد أثبت في كتابه حول **ليفى ستروس** (1970) عدم اتفاقه معه حول النقاط الرئيسية في نظريته، هذا بالرغم من تعصبه السابق للأستاذ الفرنسي، وقد كان عليه التوصل إلى وضع يمكنه من تقييم أفكاره، وأن يغطى مساحة شاسعة من الأرض الغريبة كلية على الأنثروبولوجيين الاجتماعيين البريطانيين، لقد عانى غالبيتهم- ممّنْ لم يقوموا بالرحلة بأنفسهم- من غياب الخلفية الفكرية التي تمكنهم من تقييم الإسهامات الجديدة الوافدة، ولو حدث وبقيت الاهتمامات الجديدة (التصنيف، وبناء النماذج، والرموز، والمعنى) مقصورة على عدد ضئيل من الأنثروبولوجيين الاجتماعيين البريطانيين، فإنَّ ذلك يعود إلى التأثير المستمر للموقف البريطاني التقليدي من "اللغة" و"علم اللغة" الذي سيطر على الأنثروبولوجيا الاجتماعية البريطانية حتى تخطى القرن العشرين عقد الستينيات.

- REFERENCES:

ARDENER, E. 1954. Some Ibo Attitudes to Skin Pigmentation. *Man* 54, 101 : 71-3.

___ 1971a (ed.), *A.S.A.10*, *Social Anthropology and Language*. Tavistock Publications.

__ 1971b. Introduction: Social Anthropology and Language. E. Ardener (ed.), *A.S.A. 10, Social Anthropology and Language*.

__ 1971c. Social Anthropology and the Historicity of Historical Linguistics. E. Ardener (ed)., *A.S.A. 10, Social Anthropology and Language*.

__ 1971d. The New Anthropology and its Critics. *Man* 6 (N.S.) : 449-67.

__ 1972. Language, Ethnicity and Population, *Journal of the Anthropological Society of Oxford* 3, 3: 125-47.

BARLOW, H. 1872.Vocabulary of Aboriginal Dialects of Queensland. *Journal of the Royal Anthropological Institute* 2: 166-75.

BAZELL, C. E., CATFORD, J. C., HALLIDAY, M. A.K., and ROBINS, R. H. 1966. *In Memory of J. R. Firth*. Longmans.

BEALS, R. L. 1957.Native Terms and Anthropological Methods. *American Anthropologist* 59: 716 – 17.

BEATTIE, J. H. M. I955. Contemporary Trends in British Social Anthropology. Sociologus 5: 1 - 14.

__ 1957. Nyoro Kinship . *Africa* 27: 317-4o.

BERNSTEIN, B. 1965. A Socio-Linguistic Approach to Social Learning. J. Gould (ed.), *Penguin Survey of the Social Sciences.* Penguin.

BLOOMFIELD, L. 1933. *Language*. Henry Holt & Co., New York.

BOAS, F. 1889. On Alternating Sounds. *American Anthropologist* 2 (O.S.): 47 – 53.

__ 1911. Introduction, *Handbook of American Indian Languages* . Bureau of American Ethnology, Bulletin 40, part 1:5-89. Smithsonian Institution, Washington.

BOHANNAN, P. 1954. *Tiv Farm and Settlement*. Her Majesty's Stationery Office.

__ 1956. On the Use of Native Language Categories in Ethnology. *American Anthropologist* 58 : 557 .

1958a. On Anthropologists Use of Language. *American Anthropologist* 60 : 161 – 2.

1958b. On Anthropologists Use of Linguistics. *American Anthropologist* 60: 941-2.

BRAIN, R. 1961. *Speech Disorders*. Butterworths.
BRONTE, C. 1849. *Shirley*. 1924, John Grant, Edinburgh.
BULMER, R. 1967. Why is the Cassowary not a Bird? *Man* 2(N.S.): 5-25.
BUXTON, J. 1968. Animal Identity and Human Peril : some Mandari Images. *Man* 3 (N.S.) : 35-49.
CASAGRANDE, J. B. 1963. Language Universals in Anthropological Perspective. J. H. Greenberg (ed.), *Universals of Language* : 220-235. M.I.T.
CHOWNING, A. 1970. Taboo. *Man* 5 (N.S.) : 309-10.
CLARKE, H. 1874. Researches in Prehistoric and Protohistoric.
Comparative Philology, Mythology and Archaeology, in Connection with the Origin of Culture in America, and its Propagtion by the Summerian or Akkad Families. *Journal of the Royal Anthropological Institute* 4 : 148-212.
__ 1894. Note on Mr. W. G. Aston's Japanese Onomatopes, and the Origin of Language, J.R.A.I. 23 : 332. *Journal of the Royal Anthropological Institute* 24 : 6o-2.
CODRINGTON, R. H. 1891. *The Melanesians, their Anthropology and their Folk-Lore*. O.U.P.
__ 1903.On the Stability of Unwritten Languages.*Man*3,11:25-6.
CRAWFURD, J. 1861. On the Aryan or Indo-Germanic Theory. *Journal of the Ethnological Society* 1(N.S.) : 268-86.
CRICK, M. 1972. Max Muller. *Journal of the Anthropological Society of Oxford* 3, 1 : 1-14.
CUST, R. N. 1883. *A Sketch of the Modern Languages of Africa*, 2 vols. Trubner & Co.
DORMAN, S. S. 1917. The Tati Bushmen (Masarwas) and their Language. *Journal of the Royal Anthropological Institute* 47:37-112.
DOUGLAS, M. 1957. Animals in Lele Religious Symbolism. Africa, 27 : 46-58.
__ 1966. *Purity and Danger*. Routledge & Kegan Paul.
__ 1968. The Social Control of Cognition : Some Factors in Joke Perception. *Man* 3 (N.S.) : 361-76.
__ 1970. Natural Symbols. Explorations in Cosmology. Barrie & Rockliff. The Cresset Press.
DUMONT, L. 1953a. The Dravidian Kinship Terminology. *Man* 53, 54:34-9.

__ 1953b. The Dravidian Kinship Terminology.*Man*53,224: 143.
DURKHEIM, E. and MAUSS, M. 1901-2. De Quelques Formes primitive de classification. *L'Annee Sociologique*. Translated R. Needham, *Primitive Classification*, 1963. Cohen & West
ELLIS, J. 1966.On Contextual Meaning. C. E. Bazell et al. (eds.), In *Memory of J. R. Firth* : 79-95
EVANS – PRITCHARD, E. E. 1937. *Witchcraft, Oracles and Magic among the Azande*. O.U.P.
__ 1940. *The Nuer*. O.U.P.
__ 1948. Nuer Modes of Address. *Uganda Journal* 12, 2. Also in Evans-Pritchard, The Position of Women in Primitive Societies, 1965 : 197 - 204. Faber & Faber .
__ 1949. Nuer Curses and Ghostly Vengeance. *Africa*19: 288-92.
__ 1954. A Zande Slang Language. *Man* 54, 189 : 185 – 6.
__ 1956a. Nuer Religion. O.U.P.
__ 1956b. Zande Clan Names. *Man* 56, 62 : 69-71.
__ 1956c. Sanza, a Characteristic Feature of Zande Language and Thought. *Bulletin of the School of Oriental and African Studies* 18 : 161-8o.
FINNEGAN, R. 1969. Attitudes to the Study of Oral Literature in British Social Anthropology. *Man* 4 (N.S.) : 59-69.
__ 1972. Anthropologists and the Sociology of Literature : an example from the study of Epic. *Journal of the Anthropological Society of Oxford*. 3, 2: 53-66.
FIRTH, J. R. 1934. Linguistics and the Functional Point of View. *English Studies* 16, 1 : 18-24.
__ 1935a. The Technique of Semaqntics. *Transactions of the Philological Society*. Also in J. R. Firth, 1957c : 7-33.
__ 1935b. The Use and Distribution of Certain English Sounds. *English Studies* 8, I. Also in J. R. Firth, 1957c: 34-46.
__ 1936. Alphabets and Phonology in India and Burma. *Bulletin of the School of Oriental Studies*, 8, 2 & 3. Also in J. R. Firth, 1957c: 54-76.
__ 1946. The English School of Phonetics. *Transactions of the Philological Society*. Also in J. R. Firth, 1957c: 92-12o.
__ 1948. The Semantics of Linguistic Science. Lingua 1, 4. Also in J. R. Firth, 1957c: 139-47.
__ 1949. Atlantic Linguistics . *Archivum Linguisticum* 1, 2. Also in J. R. Firth, 1957c: 156-72.

__ 195o. Personality and Language in Society . *The Sociological Review* 42, 2. Also in J. R. Firth, 1957c: 177-89.
__ 1951a. Modes of Meaning . *Essays and Studies*. (The English Association.) Also in J. R. Firth, I957c.: 190-215.
__ 1951b. General Linguistics and Descriptive Grammar. *Transactions of the Philological Society*. Also in J. R. Firth, 1957c: 2I6-28.
__ 1956. Introduction to J. R. Firth, 1957c.
__ 1957a. Ethnographic Analysis and Language with Reference to Malinowski's Views. R. Firth (ed.), *Man and Culture*, 1957: 93-118.
__ 1957b. A Synopsis of Linguistic Theory, 1930-1955. *Studies in Linguistic Analysis*, special volume of the Philological Society, ed. J. R. Firth. Also, F. R. Palmer (ed.), 1968, *Selected Papers of J. R. Firth 1952-1959*: 168-2o5. Longmans.
FIRTH, J. R. 1957c. *Papers in Linguistics*, 1934-1951. O.U.P.
__ 1964. *The Tongues of Men and Speech*. O.U.P. Originally published as Speech, 1930. Ernest Benn Ltd., and *Tongues of Men*, 1937. T. M. Wetts & Co.
FIRTH, R. 1936. *We, the Tikopia*. George Allen & Unwin Ltd.
__ 1939. *Primitive Polynesian Economics*. G, Routledge & Sons.
__ 1941. The Analysis of Mana: an Empirical Approach. Polynesian Anthropological Studies. Memoirs of the Polynesian Society 17: 189-214.
__ 1957a. *Man and Culture*. Routledge & Kegan Paul.
__ 1957b. Malinowski as Scientist and as Man. R. Firth (ed.), 1957a: 1-14.
__ 1966a. Twins, Birds and Vegetables. *Man* I (N.S.): 1-17.
__ 1966b. Twins, Birds and Vegetables. *Man* I (N.S.): 339.
FORDE, D. 1948. The Integration of Anthropological Studies *Journal of the Royal Anthropological Institute* 78: 1-10.
FORTES, M. 1945. *The Dynamics of Clanship among the Tallensi*. O.U.P.
__ 1957a. Malinowski and the Study of Kinship. R. Firth (ed.), 1957a: 157-88.
FORTUNE, R. F. 1932. *Sorcerers of Dobu*. George Routledge & Sons.
FOX, R. 1968. Multilingualism in Two Communities. *Man* 3 (N.S.): 456-64.
FRAZER, J. G. 188a. Taboo. *Encyclopaedia Britannica*, 9th Edition, Vol. 23: 15-18. Also in Garnered Sheaves, 1931 : 80-92. Macmillan & Co. Ltd.

__ 1888b. Totemism. *Enclyclopaedia Britannica*, 9thEdition, Vol. 23: 467-76.
__ 1911. *Taboo and the Perils of the Soul*. The Golden Bough, 3rd Edition, Part 2. Macmillan & Co.
__ 1921. The Scope and Method of Mental Anthropology. Garnered Sheaves, 1931: 234-51. First published *Science Progress* 64 April 1922.
__ 1922. Preface to B. Malinowski, *Argonauts of the Western Pacific*: vii-xiv. George Routledge & Sons Ltd. Also in Garnered Sheaves: 391-8. Macmillan.
G.A. (?) 1881. Old English Clans. *Cornhill Magazine* September : 329-44.
GARDINER, A. 1919. Some Thoughts on the Subject of Language. *Man* 19, 2: 2-6.
__ 1932. *The Theory of Speech and Language*. O.U.P.
GLUCKMAN, M. 1959. The Technical Vocabulary of Barotse Jurisprudence. *American Anthropologist* 61 : 743-59.
GOLDIE, H. 1868. *Principles of Efik Grammar*. Muir & Paterson.
GUMPERZ, J. J. and HYMES, D. (eds.) 1964. *The Ethnography of Communication*. American Anthropologist Special Publication 66, no. 6, part 2.
__ (eds.) 197o. *Directions in Socio-Linguistics*. Holt, Rinehart & Winston.
HALE, H. 1884. On Some Doubtful or Intermediate Articulations. An Experiment in Phonetics. *Journal of the Royal Anthropological Institute* 14: 233-43.
__ 1886. The Origin of Languages, and the Antiquity of Speaking Man. *Proceedings of the American Association for the Advancement of Science and Anthropology* 35 :279-323.
__ 1890. *The Oregon Trade Language or Chinook Jargon'*. Whittaker & Co., London.
__ 1891. Language as a Test of Mental Capacity. *Journal of the Royal Anthropological Institute* 21 : 413-55.
HALLIDAY, M. A. K. 1961. Categories of the Theory of Grammar. *Word* 17 : 241-92.
HENLE, P. (ed.) 1958. *Language, Thought and Culture*. University of Michigan Press.

HERTZ, R. 1907. La Mort. *L'Annee Sociologique*. Translated R. and C. Needham Death and the Right Hand, 1960. Cohen & West.
__ 1909. La Main droite. Revue Philosophique. Translated R. and C. Needham, *Death and the Right Hand*, 196o. Cohen & West.
HILL, A. A. 1952. A Note on Primitive Languages. *International Journal of American Linguistics* 18: 172-7. Also in D. Hymes(ed.), Language in Culture and Society, 1964 : 86-8.
HOCART, A. M. I912a. The Psychological Interpretation of Language. *British Journal of Psychology* 5, 3:267-79.
__ 1912b. On the Meaning of *Kalou* and the Origin of Fijian Temples. *Journal of the Royal Anthropological Institute* 42 : 437-49.
__ 1913. The Meaning of *Turanga* in Fijian. *Man* 13, 8o : 14o-3.
__ 1915. On the Meaning of the Rotuman Word '*Atua*'. *Man* 15, 75 : 129-31.
__ 1918. A Point of Grammar and a Study in Method. *American Anthropologist* 20: 265-79.
__ 1919. Notes on Rotuman Grammar. *Journal of the Royal Anthropological Institute* 49 : 252-64.
__ 1922. Mana Again. *Man* 22, 79 : 139-41 .
__ 1924. The Origin of the Polite Plural. *Man* 24, 3 : 3-4.
__ 1925. Medicine and Witchcraft in Eddystone of the Solomons. *Journal of the Royal Anthropological Institute* 55 : 229-70.
__ 1932. Natural and Supernatural. *Man* 32, 78 : 59-61.
__ 1937. Kinship Systems. *Anthropos 22 : 345-51. Also in* The *Life Giving Myth*, 1970 : 173-84.
HOCART, A. M. 1970. *The Life-Giving Myth, and other Essays*. Lord Raglan (ed.). First published 1952. Methuen & Co. Ltd.
HOIJER, H. (ed.) 1954. *Language in Culture*. University of Chicago Press.
__ 1961. Anthropological Linguistics. C. Mohrmann et al. (eds.), *Trends in European and American Linguistics*, 1961 : 110-27. Spectrum.
HUMBOLDT, W. VON 1836. *Uber die Verschiendenheit des menschlichen Sprachbaues und ihren Einfluss auf die geistige Entwicklung des Menschengeschlechts*. Berlin. Die Gedruckerei der Koniglichen Akademie der Wissenschaften.
HYMES, D. (ed.) 1964a. *Language in Culture and Society*. Harper & Row.
__ 1964b. Introdction to Part One, 'The Scope of Linguistic Anthropology'. *Language in Culture and Society* : 3-14.

__ 1971. Sociolinguistis and the Ethnography of Speaking. E. Ardener (ed.), A.S.A. 10, *Social Anthropology and Language* : 47-93. Tavistock.
JAKOBSON, R. 1953. Results of the Conference of Anthropologists And Linguists, chapter two. *Memoir of the International Journal of American Linguistics*, 8.
KACHRU, B. B. 1966. Indian English : a Study in Contextualisation. C. E. Bazell et al. (eds.), In Memory of J. R. Firth : 255-87.
KENNEDY, J. 1856. On the Probable Origin of the American Indians, with Particular Reference to that of the Caribs. *Journal of the Ethnological Society* 4 (O.S.) : 226-67.
KROEBER, A. L. 1909. Classificatory Systems of Relationship. *Journal of the Royal Anthropological Institute* 39: 77-84.
__ 1923. *Anthropology*. Harcourt, Brace & Co. Inc.
__ 1943. Franz Boas, the Man. Franz Boas, 1858-1942. *American Anthropological Association*, Memoir 61, no. 3, part 2 : 5-26.
__ 1958. Sign Language Inquiry. *International Journal of American Linguistics* 24, 1 : 1-19.
__ 1964. Foreword to D. Hymes (ed.), *Language in Culture and Society* : xvii-xix.
LANG, A. 1883. The Early History of the Family. *Contemporary Rrview* September : 406-22. Also, *Custom and Myth*, 1884: 245-75. Longmans, Green & Co.
__ 1884. Cupid, Psyche and the Sun Frog. *Custom and Myth*.
__ 1905. *The Secret of the Totem*. Longmans, Green & Co.
LANGENDOEN, D. T. 1968. *The London School of Linguistics : a Study of the Linguistic Theories of B. Malinowski and J. R. Firth.* M.I.T.
LEACH, E. R. 1945. Jinghpaw Kinship Terminology. *Journal of the Royal Anthropological Institute* 75 : 59-72.
LEACH, E. R. 1954. Review of Durkheim, *Sociology and Philosophy*, Translated by D. F. Pocock. *Man* 54, 134: 92-3.
__ 1958a. Concerning Trobriand Clans and the Kinship Category 'Tabu', J. Goody (ed.), *The Developmental Cycle in Domestic Groups* : 120-45. Cambridge Papers in Social Anthropology, I.C.U.P.
__ 1958b. Magical Hair. *Journal of the Royal Anthropological Institute* 88 : 147-64.

__ 1961. Rethinking Anthropology. *Rethinking Anthropology* : 1-27. L.S.E. Monographs on Social Anthropology 22. Athlone Press.
__ 1963. Review of Levi-Strauss, *Le Totemisme aujourd'hui and La Pensee sauvage. Man* 63, 50: 46-7.
__ 1964a. Anthropological Aspects of Language : Animal Categories and Verbal Abuse. E. H. Lenneberg (ed.), *New Directions in the Study of Language* : 23-64. M.I.T.
__ 1964b. Telstar et les Aborigenes, ou *'La Pensee Sauvage'. Annales: economies, societes, civilisations* I9, 3 : 1100-I6.
__ 1966. Twins, Birds and Vegetables. *Man* I (N.S.) : 556-7.
__ 1970. *Levi-Strauss*. Fontana Modern Masters. Fontana / Collins.
__ 1972. The Influence of Cultural Context on Non-Verbal Communication in Man. R. A. Hinde (ed.), *Non-Verbal Communication* : 315-44. C.U.P.
LEITNER 1874. In discussion on H. Clarke, 1874. Journal of the Royal Anthropological Institute 4: 212-14.
LEVI-STRAUSS, C. 1953. Linguistics and Anthropology. *Memoirs of The International Journal of American Linguistics* 8. Also, as Chapter 4 (translated and slightly adapted) of *Anthropologie structurale*, 1958. Plon.
__ 1962a. *Le Totemisme aujourd'hui*. Presses Universitaires de France. Translated R. Needham, Totemism, 1963. Beacon Press, Boston.
__ 1962b. *La Pensee sauvage*. Plan. Translated The Savage Mind, 1966. Weidenfeld & Nicolson .
LYONS, J. 1963. *Structural Semantics*. Publications of the Philological Society, 20. Basil Blackwell.
__ 1966. Firth's Theory of 'Meaning'. C. E. Bazell et al. (eds.), In *Memory of J. R. Firth* : 288-302.
__ 1968. *Introduction to Theoretical Linguistics*. C.U.P.
__ 1970. *Chomsky*. Fontana Modern Masters. Fontana / Collins.
MACKENZIE, A. 1873. Specimens of Native Australian Languages. *Journal of the Royal Anthropological Institute* 3 : 247-64.
MACKINLAY, W. E. W. 1901. Memorandum of the Languages of The Philippines. *Journal of the Royal Anthropological Institute* 31 : 214-18.
MACMICHAEL, H. M. 1932. Introduction to Seligman, C. G. and B. Z., 1932: xvii-xx
MAINE, J. S. 1861. *Ancient Law*, John Murray.

MAIR, L. 1935. Linguistics without Sociology. Some Notes on the Standard Luganda Dictionary. Bulletin of the School of Oriental and African Studies 7 : 913-21.
MALINOWSKI, B. I913. Review of Durkheim, *Les Formes elementaires de la vie religieuse*. *Folk Lore* 24 : 525-31.
__ I9I5. The Natives of Mailu. *Transactions and Proceedings of the Royal Society of South Australia* 39 : 494-7o6. Adelaide.
__ 1916. Baloma ; the Spirits of the Dead in the Trobriand Islands. *Journal of the Royal Anthropological Institute* 46 : 353-430.
__ 1920. Classificatory Particles in the Language of Kiriwina. *Bulletin of the School of Oriental Studies* I, part 4 : 33-78.
__1922. *Argonouts of the Western Pacific*. George Routledge & Sons Ltd.
__ 1923. The Problem of Meaning in Primitive Languages. Supplement I to Ogden and Richards, I923.
__ 1926. *Crime and Custom in Savage Society*. Routledge & Kegan Paul.
__ 1927. *Sex and Repression in Savage Society*. Kegan Paul, Trench, Trubner & Co. Ltd.
__ I929. *The Sexual Life of Savages*. George Routledge & Sons Ltd.
__ 193o. Kinship. *Man* 3o, I7 : I9-29.
__ 1935. *Coral Gardens and their Magic*. 2 vols. George Allen & Unwin.
__ 1936. Preface to R. Firth, I936 : vii-xi.
__ 1937. The Dilemma of Contemporary Linguistics. D. Hymes (ed.), *Language in Culture and Society*, 1964 : 63-5. First published Nature I4o, I937.
__ I939. The Group and the Individual in Functional Analysis. *American Journal of Sociology* 44 : 938-64.
__ I967. A Diary in the Strict Sense of the Term. Edited by V. Malinowski. Routledge & Kegan Paul.
MALMBERG, G. B. 1964. *New Trends in Linguistics.* translated E. Carney. Published under auspices of the Nature Methods Institutes, Lund, Stockholm.
MANN, S. E. 1943. The Cradle of the 'Indo-Europeans'; *Linguistic Evidence. Man*, 43, 64 : 74-85 .
MARETT, R.R.19o9.The Threshold of Religion. Methuen & Co.
__ 1912. *Anthropology*. Thornton Butterworth Ltd.
__ 1936. *Tylor*. Chapman & Hall.
MCLENNAN, J. F. 1865. *Primitive Marriage*. Black.

MEAD, M. 1939. Native Languages as Field-Work Tools. *American Anthropologist* 41 : 189-204.
MEEK, C. K. 1931. *Tribal Studies in Northern Nigeria*. Kegan Paul Trench, Trubner & Co. Ltd.
MEILLET, A. 1905-I906. Comment les mots changent de sens *L'Annee Sociologique* 9 : 1-38.
MILNER, G. B. 1954. Review of J. Perrot, *La Linguistique*. Man 54, 267 : 172.
__ 1968. *Problem of the Structure of Concepts in Samoa*. Unpublished Ph.D. thesis. University of London.
__ 1969. Siamese Twins, Birds and the Double Helix. *Man* 4 (N.S.) : 5-23.
__ 1971. The Quartered Shield : Outline of a Semantic Taxonomy. E. Ardener (ed.), A.S.A. I0, *Social Anthropology* and *Language* : 243-69.
MITCHELL, T. F. 1957. The Language of Buying and Selling in Cyrenaica : A Situational Statement. *Hesperis* 44 : 31-72.
MITFORD, M. R. 1826. *Our Village* : *Sketches*. Vol. 2 : The Touchy Lady. Whittaker.
MOHRMANN, C., SOMMERFELT, A. And WHATMOUGH, J. (eds.) 1961. *Trends in European and American Linguistics*. 9th International Congress of Linguistics. Spectrum.
MORGAN, L. H. 1870. *Ancient Society*. Holt & Co.
__ 1877. *Systems of Consanguinity and Affinity of the Human Family.* Smithsonian Institution, Washington.
MULLER, F. M. 1854. The Turanian Family of Languages. C. C. J. Bunsen (ed.), *Christianity and Mankind*: Vol. 3. Longman, Brown,Green, & Longmans.
__ 1856. Comparative Mythology (*Oxford Essays*, 1856, part I). *Selected Essays*, 1881. Vol. 1: 299-424. Longmans, Green & Co.
__ 1861. *Lectures on the Science of Language*. Longman, Green, Longman & Roberts.
__ 1871. On the Philosophy of Mythology (Royal Institution Lecture, I87I). *Selected Essays*, I88I, vol.1: 577-623.
__ 1872. Results of the Science of Language. (Published 1872 in German by Strassburg University.) *Selected Essays*, 1881, vol. 1 : 174-251.
__ 1873. Lectures on Mr. Darwin's Philosophy of Language. *Fraser's Magazine* 7 : 525-41 ; 659-78 ; 8 : 1-24.
__ 1878. *Hibbert Lectures*. Longmans, Green & Co.

__ 1892. *Anthropological Religion*. Gifford Lectures.
NADEL, S. F. 1951. *The Foundations of Social Anthropology*. Cohen & West.
NEEDHAM, R. 1967a. *A Bibliography of Arthur Maurice* Hocart. Blackwell.
__ 1967b. Percussion and Transition. *Man* 2 (N.S.) : 606-14.
__ 1970. Foreword to 2nd Impression of *The Life-Giving Myth*, A. M. Hocart, Methuen & Co. Ltd.
OGDEN, C. K. and RICHARDS, I. A. 1923. *The Meaning of Meaning,* Kegan Paul, Trench, Trubner & Co. Ltd.
OPPERT, G. 1883. On the Classification of Languages in Conformity With Ethnology. *Journal of the Royal Anthropological Institute* 13 : 32-5o.
PAYNE, E. J. 1899. *History of the New World Called American*. Vol. 2. O.U.P.
POCOCK, D. F. 1961. *Social Anthropology*. Sheed & Ward.
PUSEY, B. 1875. In discussion A. H. Sayce, 1875. *Journal of the Royal Anthropological Institute* 5 : 219-20.
RADCLIFFE-BROWN, A. R. 1924. The Mother's Brother in South Africa. Structure and Function, 1952 : 15-31 . First published *South African Journal of Science* 21 : 1924, 542-55.
__ 1929. Notes on Totemism in Eastern Australia. *Journal of the Royal Anthropological Institute* 59 : 399-415.
__ 1930. A System of Notation for Relationships. *Man* 30, 93 : 121-2.
__ 1931. The Present Position of Anthropological Studies. *British Association for the Advancement of Science*, 1931 : 1-32.
__ 1933. Preface to 2nd Edition of The Andaman Isladers. C.U.P.
__ 1935. On the Concept of Function in Social Science. *American Anthropologist* 37, 3 : 394-402.
__ 1941. The Study of Kinship Systems. Structure and Function, 1952 : 49-89. First published *Journal of the Royal Anthropological Institute* 71, 1941.
__ 195o. Introduction to A. R. Radcliffe-Brown and D. Forde (eds.), *African Systems of Kinship and Marriage*. O.U.P.
__ 1952. *Structure and Function in Primitive Societies*. Cohen & West.
__ 1953. The Dravidian Kinship Terminology. *Man* 53, 169: 112.
RATTRAY, R. S. 1916. *Ashanti Proverbs*. O.U.P.

RAY, S. H. 1911. Comparative Notes on Maisin and other Languages of Eastern Papua. *Journal of the Royal Anthropological Institute* 41 : 397-405.
__1923. The Languages of the Western Division of Papua. *Journal of the Royal Anthropological Institute* 53 : 332-60.
__ 1929. The Languages of the Central Division of Papua. *Journal of the Royal Anthropological Institute* 59 : 65-96.
RIVERS, W. H. R. 1910. The Maternal Uncle in the Torres Straits. *Man* 1, 136 : 172.
__ 1904. Sociology, Magic and Religion of the Western Islanders.*Reports of the Cambridge Anthropological Expedition to Torres Straits*, Vol. 5. C.U.P.
RIVERS, W. H. R. 1910.The Genealogical Method of Anthropological Enquiry. *The Socioloical Review* 3, I : I-I2.
__ 1911. The Ethnological Analysis of Culture. Presidential Address to the Anthropological Section of the British Association for the Advancement of Science. G. Elliot-Smith (ed.), *Psychology and Ethnology*, 1926. Kegan Paul, Trench, Trubner & Co. Ltd.
__ 1922. The Unity of Anthropology. *Journal of the Royal Anthropological Institute* 52 : 12-25.
ROBERTSON-SMITH, W. 1889. *The Religion of the Semites*. A. & C. Black, Ltd.
ROBINS, R. H. 1952. A Problem in the Statement of Meanings *Lingua* 3, 2 : 121-37.
__ 1959. Linguistics and Anthropology. *Man* 59, 283 : 175-8.
__ 196I. J. R. Firth. Language 37 : 191-200.
__ 1964. Articles on Linguistic Topics in Man. *Man* 64, I3 : 2o.
__ 1966. Review of D. Hymes, Language in Culture and Society. *Man* 1 (N.S.) : 133-4.
__ 1971. Malinowski, Firth, and the 'Context of Situation'. E. Ardener (ed.), A.S.A. Io, *Social Anthropology and Language* : 33-46. Tavistock.
SAPIR, E. 1949. *Selected Writings of E. Sapir in Language*, *Culture and Personality*, D. G. Mandelbaum (ed.). University of California Press.
SAPORTA, S. (ed.) 1961. *Psycholinguistics*. Holt, Rinehart & Winston.

SAUSSURE, F. DE. 1916. *Cours de linguistique generale*, Payot. Translated W. Baskin, I959, Peter Owen Ltd.
SAYCE, A. H. 1875. Language and Race. *Journal of the Royal Anthropological Institute* 5 : 212-16.
__ I88o. *Introduction to the Science of Language*. 2 vols. C. Kegan Paul & Co.
SELIGMAN, C. G. 1910. *The Melanesians of British New Guinea.* C.U.P.
SELIGMAN, C. G. and B. Z. 1932. *Pagan Tribes of the Nilotic Sudan*. George Routledge & Sons Ltd.
SIBREE, J. 1883. Notes on the Relics of the Sign and Gesture Language among the Malagasy. *Journal of the Royal Anthropological Institute* 13 : 174-82.
SICARD, R. A. C. 1808. *Theorie des Signes pour l'Instruction des Sourds Muets*. 2 vols a l'Imprimerie de l'Institution des Sourds Muets, Paris.
SMITH, E. W. 1934. The Story of the Institute. Africa 7 : 1-27.
__ 1952. African Symbolism. *Journal of the Royal Anthropological Institute* 82 : 13-38.
STEINER, F. I956. Taboo. Cohen & West. Also 1967, Pelican.
TALBOT, P. A. I926. The Peoples of Southern Nigeria, vol. 4, *Linguistics and Statistics*. O.U.P.
TAMBIAH, S. J. 1968. The Magical Power of Words. *Man* 3 (N.S.):175-208.
TAPLIN, G. 1871. Notes on a Comparative Table of Australian Languages. *Journal of the Royal Anthropological Institute* I :84-8.
TAYLOR, D. 1958. On Anthropologists' Use of Linguistics. *American Anthropologist* 6o : 940-1.
THOMAS, N. W. 1901. *Anthropological Report on the Edo-Speaking Peoples of Nigeria*, part I. Harrison & Sons.
__ 1913. *Anthropological Report on the Ibo-Speaking Peoples of Nigeria*. Harrison & Sons.
__ 1921a. Semi-Bantu. *Man* 21, 4 : 8-9.
__ 1921b. The Plural in Biafada. *Man* 21, 54 : 91-3.
__ 1924. The Week in West Africa. *Journal of the Royal Anthropological Institute* 54 : 183-210.
TURNER, V. 1967. *The Forest of Symbols : Aspects of Ndembu Ritual*. Cornell University Press.

__ 1968. *The Drums of Affiction : A study of Religious Processes among the Ndembu of Zambia*. O.U.P.
TYLOR, E. B. 1865. *Researches into the Early History of Mankind and the Development of Civilisation*. Murray.
__ 1871. *Primitive Culture. Researches into the Development of Mythology, Philosophy, Religion, Language, Art and Custom*. Murray.
__ 1881. *Anthropology : An Introduction to the Study of Man and Civilisation*. Macmillan.
__ Notebooks in the Pitt Rivers Museum, Oxford.
WESTERMARCK, E. I936. Methods in Social Anthropology. *Journal of the Royal Anthropological Institute* 66 : 223-48.
WHITEHEAD, G. O. 1947. Personal Names among the Bari. *Man* 42:45-6.
WHITELEY, W. H. 1966. Social Anthropology, Meaning and Linguistics. *Man* 1 (N.S.) : 139-57.
__ (ed.) 1971. *Language Use and Social Change*. O.U.P. for International African Institute.
WHITNEY, W. D. 1874. Darwinism and Language. *North American Review* 119 : 61-8.
__ 1875. In discussion on A. H. Sayce, 1875, *Journal of the Royal Anthropological Institute* 5 : 216-17 .
WHORF, B. L. 1965. *Language, Thought and Reality : Selected Writings of B. L. Whorf*, J. B. Carroll (ed.). M.I.T. and John Wiley.

تم بحمد الله، وعنايته